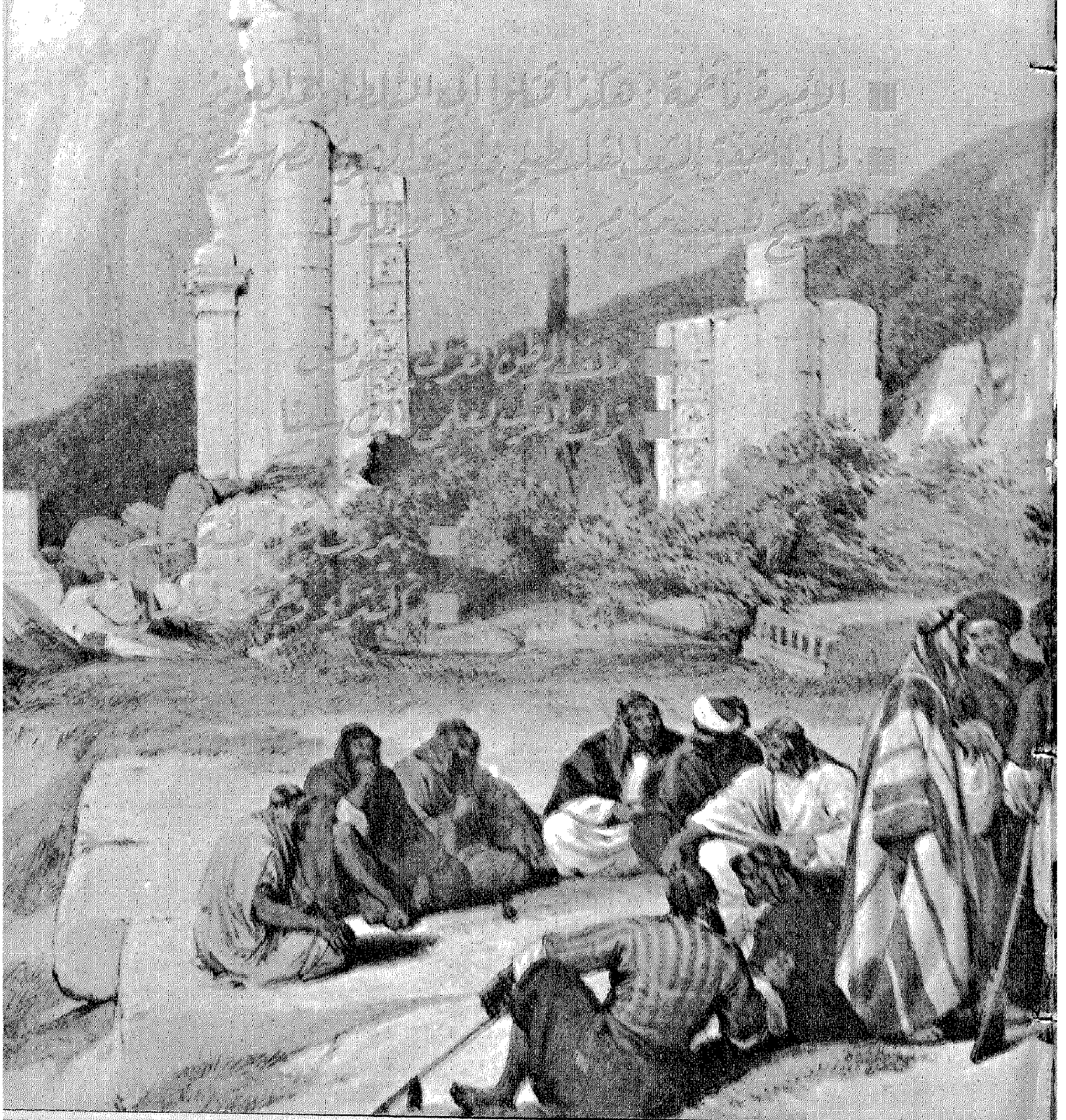
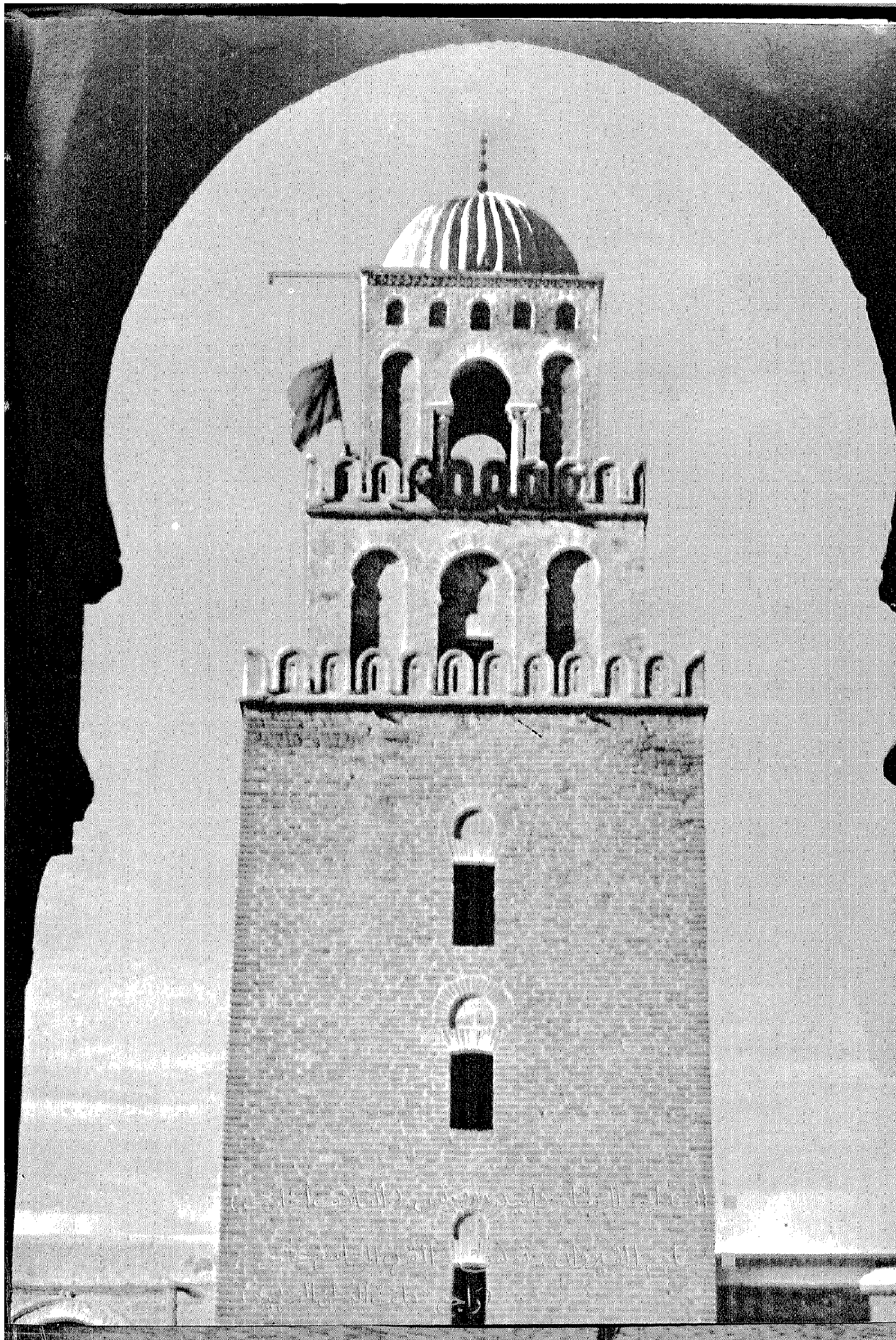
تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السَنة الاولى - العَدَد العَاشِر - آب " اغسطس" ١٩٧٩ - المـوافِق رَمضَان ١٣٩٩





تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الاولى
العدد العاشر
آب (اغسطس) ١٩٧٩
رمضان ١٣٩٩ هـ

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

رئيس التحرير: فاروق البربير
المستشار: د. أنيس صايغ

المدير المسؤول: محمد مشموشي

ص.ب: ٥٩٠٥ - بيروت، لبنان
بناية أبو هليل - شقة ١١
شارع السادات - تلفون: ٣٤٦٢٧٦

الانتاج:
مطبعة المتوسط ش.م.ل.

الاعلانات
تتم: الشركة العربية لإنماء الإعلان
ص.ب: ١١/٦٨٨ - بيروت، لبنان

التوزيع:
الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات

ثمن النسخة

لبنان: ٤ ل.ل	سوريا: ٦ ل.س
العراق: ٧٠٠ فلس	ليبيا: ٨٠٠ درهم
السعودية: ٧ ريال	الكويت: ٥٠٠ فلس
الأردن: ٥٠٠ فلس	أبوظبي: ٨ درهم
دبي: ٨ درهم	قطر: ٧ ريال
البحرين: ٧٠٠ فلس	المغرب: ٥ درهم

الإشتراكات

في لبنان	٥٠ ل.ل
المؤسسات والدوائر الحكومية	١٥٠ ل.ل
في الدول العربية	٧٥ ل.ل
في أفريقيا وأوروبا	١٠٠ ل.ل
دول العالم الأخرى	١٥٠ ل.ل
المؤسسات والدوائر الحكومية في العالم العربي	٢٠٠ ل.ل

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

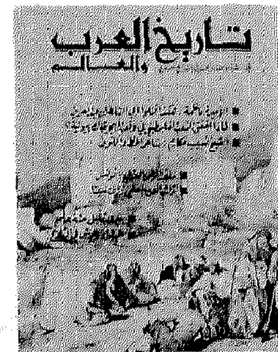
EDITED BY FARUK BARBIR
A MONTHLY ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM
SADATE ST. ABOU HLEIL
BLG. P.O.B. 5905
TEL.: 346276
BEIRUT, LEBANON

VOL. 1
No. 10. August, 1979
PRICE : 4 L.L.
ANNUAL SUBSCRIPTION :
50 $ IN NON-ARABIC
SPEAKING COUNTRIES

في هذا العدد

● المقالات الواردة توزَّع حسب التبويب الفني للمجلة. ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب. مع حفظ المكانة الاجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط.

الموضوع		الصفحة
▪ الأميرة ناظمة: هكذا قتلوا أبي السلطان عبد العزيز	عادل الصلح	٣
▪ بيروت قبل مئة عام: لمحات عن نهضتها الاقتصادية والاجتماعية	د. مروان بحيري	٩
▪ البتراء وجرش في التاريخ	د. نقولا زياده	١٤
▪ من اخبار المسرح الكوميدي في مصر: عزيز عيد (٢)	د. محمد يوسف نجم	٢٢
▪ الشيخ نسيب مكارم: شاعر الخط واللون (٢)	د. سامي مكارم	٣١
▪ لماذا اخفق الشعب الفلسطيني في وقف الهجمة الصهيونية ١٩٤٨؟	عبد القادر ياسين	٣٩
▪ ملف الوطن العربي: تونس فتحها اكابر العرب وجعلوها حاضرتهم في المغرب	اعداد: قسم الابحاث والدراسات	٤٥
▪ نساء شهيرات: ميمونة	محمد حسن كامل	٥٢
▪ تراث العرب العلمي: ابن سينا	د. غازي ابو شقرا	٥٣
▪ الحياة الثقافية والسياسية في الشرق العربي ما بين ١٨٩٠ و ١٩٣٩	خالد عايد	٦٢
▪ شيشرون: أشهر جاسوس في الحرب العالمية الثانية (٢)	ترجمة: «تاريخ العرب والعالم»	٦٨
▪ الموت ولا الاستسلام انتفاضة الازتيك الأخيرة في وجه الاسبان ١٥٢٠ (٢)	ترجمة: «تاريخ العرب والعالم»	٧٥
▪ قبل ٢٥ سنة	ايمان نويهض	٨٠
▪ تاريخ الرياضة: الفراعنة والرياضة (٢)	د. سيد كريم	٨٢
▪ تاريخ الشطرنج: الهند تتحدى أذكياء فارس.. بالشطرنج	محمد مراد سكر	٨٧
▪ تاريخ الطوابع: سورية أيام الانتداب	ميشال أسطفان	٩١
▪ تاريخ البروج: برج الأسد ٢٤ تموز-٢٣ آب	منى تنير	٩٦



راجع مقالة البتراء وجرش في التاريخ ص ١٤ د. نقولا زياده

● المقالات والدراسات تُرسَل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة: ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

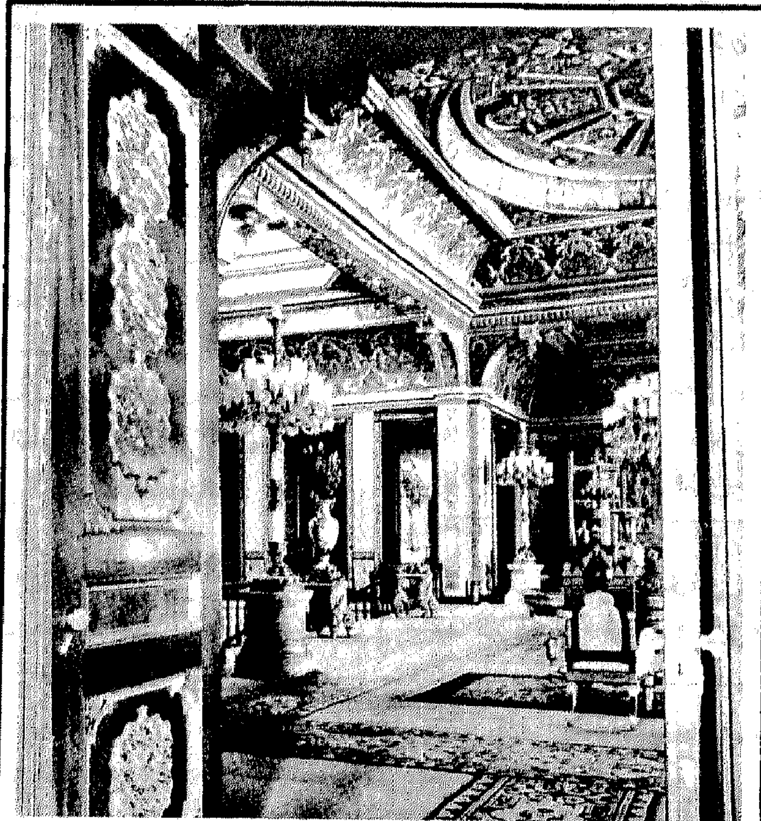
● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تُردّ إذا لم تنشر.

الأميرة ناظمة :

هكذا قتلوا ابي السلطان عبد العزيز

بقلم : عادل الصلح*



قصر ضولمه باقجه

● في ٣ اذار (مارس) سنة ١٩٢٤ الغى مصطفى كمال الخلافة العثمانية واقصى العائلة المالكة عن تركيا فخرجت هذه العائلة من اسطنبول وتفرقت في مختلف الأنحاء وجاء قسم كبير منها إلى لبنان. فسكن البعض في بيروت والبعض الآخر في جونية. وكان من بين هؤلاء الوافدين المرشال خالد درويش باشا وزوجته وقد نزلا في قرية صربا وسكنا البيت الذي أصبح فيما بعد القصر الجمهوري. والداماد خالد باشا عضو في مجلس الأعيان العثماني وقرين الاميرة ناظمة سلطان ابنة السلطان عبد العزيز وشقيقة عبد المجيد آخر خلفاء بني عثمان. وقد قدر لي أن أصاهر عائلة درويش باشا وأن يتسنى لي بذلك التعرف إلى الأميرة ناظمة سلطان وهي سيدة فاضلة ذكية ذات ثقافة عالية وخلق سام ولطف جم. وقد جرى لي مرة حديث معها عن التاريخ العثماني وعلى الأخص الحقبة التي تولى فيها والدها عبد العزيز عرش السلطنة وحكاية وفاته. ولعل هذا الحديث هو أوضح رواية شخصية وعيانية من مشاهد للحادث البارز في حياة السلطنة. ولكن قبل الانتقال إلى شهادة الاميرة لا بد من الاطلاع على الرواية الرسمية كما نشرتها الصحف في حينها.

الرواية الرسمية

قالت جريدة «الجوائب»[1] الصادرة في اسطنبول في عددها المؤرخ في ١١ جمادى الأولى سنة ١٢٩٣هـ:

«قد شاع انه من يوم خلع المرحوم السلطان عبد العزيز اعترضته أمراض دماغية فاضطرب في حركاته فكان يتخيل ان البواخر السلطانية الراسية في البوغاز تطلق النار على العدو فزاده ذلك قلقاً فلم يستطع الرقاد في ليلة الأحد. فلما أصبح ذهب إلى الحمام كعادته ثم إلى البستان ثم رجع إلى حجرته وجعل يأمر بفتح الشبابيك والأبواب ثم يخرج منها ويرجع ثم يذهب مرة ثانية إلى البستان فكان الدنيا ضاقت عليه برحبها. ثم حاول الخروج إلى شاطىء البحر فرآه الضابط الذي كان يحرس الباب فقال له متأدباً: لا إذن في الخروج يا سيدي، فأبى وشتمه ثم جاء ضابط آخر وأشار عليه بالدخول إلى مقره فدخل وزاد بلبالا واضطراباً، حتى ظهرت فيه علامات الاختلال فكان يتوهم أن العدو هاجم وأنه يجب على العساكر أن تهجم على العدو وعلى البواخر ان تطلق النار عليه. وصار يتحدث مع أحد أعوانه في كيفية محاربة العدو. ثم طلب من احدى الجواري مقصاً ليقص به أطراف لحيته على عادته فخرجت الجارية واخبرت والدته بذلك فأعطتها مقصاً ومرآة فأخذهما وجعل يقص أطراف لحيته ووالدته تنظر اليه من وراء الباب فرآها وأمرها بالانصراف. ثم جلس على متكأ ونادى أحد الأعوان مرة اخرى واعاد عليه ذكر محاربة العدو ثم اخذ المقص وقطع به عرقا في وسط ذراعه اليمنى فحاول العون ان يأخذ المقص منه فمانعه. فذهب إلى والدته صارخاً فجلس المرحوم على متكأ وقطع عرق يده اليسرى قطعا مبينا. وقيل إنه قبل أن فعل ذلك أقفل الباب فجاءت والدته والجواري وطفقن يصرخن ويعولن وكسرن زجاج الشبابيك فجاء الضباط وسبعة عشر من مشاهير الأطباء. ولكن قبل وصولهم كان رحمه الله قد قضى نحبه فمات على تلك الحالة وصراخ جواريه يسمع من مسافة بعيدة. وعلم من تقرير الأطباء أن طول الجرح كان خمس أصابع وعمقه ثلاثا. وقد طبعت شهادة الاطباء ليكون معلوماً عند الناس كيفية موته. وفي الساعة الخامسة من ذلك اليوم أرسلت جثته إلى سراية طوبقبو لتغسل قبل دفنها. وفي الساعة العاشرة مرت جنازته من ديوان يولي ودفن إلى جانب أبيه المرحوم مولانا السلطان محمود وصحب جنازته عدة من الوكلاء الكرام والمؤمرين الكرام الفخام والمشايخ والعلماء وجم غفير من الناس رحمه الله وعفا عنه إنه غفور رحيم.

كانت ولادة المرحوم السلطان عبد العزيز خان في ١٥ شعبان سنة ١٢٤٥ وجلوسه على سرير السلطنة السنية في ١٧ ذي الحجة ١٢٧٧ وخلعه في ٧ جمادى الأولى ١٢٩٣ ووفاته في صباح يوم الأحد الموافق ١١ جمادى الأولى من السنة المذكورة».

••• ورواية ابنته

هذا ما نشرته «الجوائب» في صدد وفاة السلطان عبد العزيز وهي الرواية الرسمية التي سمح بنشرها.

(*) عادل الصلح: رئيس بلدية بيروت سابقاً. مجاهد قديم، مسجل وقائع تاريخية شهدها بنفسه. له كتابان: «سطور من الرسالة»، ويروي فيه عن والده قصة حركة ١٨٧٧م، من أجل استقلال الشام وتولية عبد القادر الجزائري عليها، «وحزب الاستقلال الجمهوري»، ويؤرخ فيه كتائب لرئيس الحزب. مساهمته في المقاومة ضد الانتداب الفرنسي.

وما ان ذاع الخبر حتى سرت الاشاعة بأن الرواية كاذبة وان السلطان قتل قتلاً وبقي الأمر غامضاً وموضوع تضارب في الرأي وقضية غير محسومة من قضايا التاريخ العثماني.

ولذلك اهتممت بمعرفة ما عند الاميرة ناظمة عن موت والدها. واليك الآن شهادتها في وفاة السلطان عبد العزيز كما روتها لي. قالت الاميرة: «ان الذين يقولون بأن والدي مات منتحراً مضللون. وقد شاهدت مقتله بأم عيني. وهاك ما رأيت:

في ذات يوم بينما كان والدي جالساً في إحدى قاعات القصر. وأنا إلى جانبه يداعبني. وكنت يومئذ في العاشرة من عمري. دخل علينا ثمانية رجال يشبهون المصارعين وتبدو عليهم القوة البدنية والشراسة. فلما شاهدهم والدي ادرك سوء قصدهم. ووقف يحاول الإفلات منهم. فأخذوا يتقدمون منه ببطء وحذر. تحسبا لما يحتمل ان يصدر عنه من مقاومة. وقد كان رحمه الله ضخم الجثة قوي البنية ومن المصارعين الاشداء. وبعد عدة مداورات استطاع أن ينأى عنهم. وأن يصل إلى مكان سلم نقال يؤدي إلى الطابق العلوي من القصر. وفوجىء هناك بخلو المكان من السلم لأن المتآمرين كانوا قد انتزعوه تحسباً واحتياطاً. فوقف ينادي بأعلى صوته «بورادە يومرديوه ن واردي كيم الدي» (هنا كان يوجد سلّم من اخذه؟) وأخذ يردد هذا السؤال ويطوف في قاعات القصر مهتاجاً والمهاجمون في أثره. وقد أرعبني هذا المشهد. فاتخذت من ستائر أحد الأبواب مخبأ استرق منه النظر إلى ما كان يجري. ثم رأيت هؤلاء الرجل قد تمكنوا في النهاية من محاصرة والدي بعد مقاومة عنيفة في زاوية من الزوايا. والقائه ارضا على ظهره. وجلس اثنان منهم فوق ذراعه اليمنى. واثنان فوق اليسرى. واثنان فوق ساقه اليمنى. واثنان فوق اليسرى. وتولى احدهم قطع شرايين كلتا يديه بموس. وبقوا فوقه حتى نزف دمه. وفاضت على هذه الحال روحه. ثم لفوه بعد ذلك بقطعة من ستائر النوافذ وحملوه إلى المخفر القائم عند المدخل. وكان مدحت باشا موجوداً فيه. مما يدلك على أنهم كانوا يبيتون له السوء منذ البداية أنه يوم وقوع الخلع بعثوا بالمناديس ينادون في الاحياء بأن عبد العزيز مات والسلطان سراد تولى مكانه.

إنني لا أدعي أن والدي لم يخطىء في حكمه. وجل من لا يخطىء. ولكنني أؤكد لك انه كان صادقاً في خدمة بلده. وعمل كثيراً من أجل مجد الأمة فقوى الجيش وجعل البحرية العثمانية القوة الثانية في العالم. كان إنساناً



مدحت باشا.

كريم الخلق حليماً توابا. وكان كاتباً أديباً. كتاباته الرسمية قطع ادبية رائعة. وكان ملما إلماما حسنا بالأدبين العربي والفارسي ورساماً ماهراً وموسيقيا موهوباً. كان أحياناً يقضي فترات للراحة في مقصورته في قصر ضوبله باقجة المطلة على البوسفور. ويشوقه روعة ليالي الصيف المقمرة لسماع لحن جميل فيأخذ الناي الذي يحبه ويطلق منه الألحان الجميلة فيتجمع لها المتنزهون في قواربهم حتى يمتلىء بها البحر. وكنا نحن من قاعات القصر نشارك مواطنينا نشوتهم وسرورهم. وغصت الأميرة هنا بالبكاء وسكتت هنيهة ثم قالت: لقد ظلم والدي».

واقعة شركس حسن

نقلت إلى القارىء حديث الأميرة ناظمة سلطان كما روته لي وقد أخبرني الصديق السيد عزت خورشيد رئيس دائرة التشريفات في وزارة الخارجية اللبنانية ان الأميرة روت له هذه الحادثة كما ذكرتها أعلاه.

وقد كان لوفاة السلطان عبد العزيز على هذا الشكل الغامض ذيول كثيرة منها حادث مقتل بعض الوزراء وكان ذلك بعد وفاته بأربعة أيام. اذ بينما كان مجلس

الوكلاء (الوزراء) مجتمعاً في بيت رئيس مجلس شورى الدولة مدحت باشا اقتحم مكان الاجتماع ضابط شاب ينتمي إلى أسرة قفقاسية عريقة اسمه شركس حسن واخذ يطلق الرصاص بكثرة على الحاضرين، فقتل خمسة أشخاص منهم حسين عوني باشا نفسه وناظر الخارجية راشد باشا. وفي التحقيق قال الضابط القاتل: انني فعلت ذلك من أجل السلطان عبد العزيز والأمة.

ويروي هنا الكاتب المؤرخ الشهير وأحد كبار موظفي القصر الملكي محمود جلال الدين باشا، وقد كان حاضراً الاجتماع الذي قتل فيه الوزراء ونجا هو من الموت، هذه الحادثة فيقول: بعد وفاة السلطان عبد العزيز باثني عشر يوماً وفي مساء الخميس ٢٣ جمادى الأولى دعي مجلس النظار إلى الاجتماع في اسكدار في بيت رئيس مجلس شورى الدولة مدحت باشا لمعالجة قضية الثورة التي نشبت ضد الحكومة في جزيرة كريت. وكان الحاضرون هم وزير الدولة الشريف مدحت باشا والصدر الأعظم محمد رشدي باشا والسر عسكر حسين عوني باشا ومدير الطوبخانة المشير رضا باشا وناظر البحرية قيسرلي أحمد باشا وناظر الخارجية راشد باشا وعضو مجلس شورى الدولة الشريف حسين باشا، (الملك حسين بن علي ملك الحجاز فيما بعد)، وناظر المعارف المؤرخ جودت باشا، ومستشار الصدارة العظمى سعيد أفندي. وبعد ان تناول المجتمعون طعام العشاء في الطابق الثالث من البيت انتقلوا إلى احدى القاعات الكبرى. وفي اثناء الاجتماع دخل ضابط شاب يحمل بأحدى يديه مدية شركسية وفي الأخرى مسدساً وتقدم خطوات قليلة ثم توقف وصاح بالمجتمعين لا تتحركوا. وأطلق الرصاص على السر عسكر حسين عوني باشا وناظر الخارجية راشد باشا وراح يجهز عليهما طعنا بمديته ثم تابع إطلاق الرصاص على الصدر الأعظم محمد رشدي باشا وعلى ناظر البحرية قيسرلي أحمد باشا وأحمد آغا خادم مدحت باشا. وقد ظن المجتمعون ان ثمة مؤامرة انقلابية وراء هذا الاعتداء ولما فوجيء المجتمعون باطلاق الرصاص فر منهم من فر واختبأ من أختبأ. ثم أطفأ الضابط الأنوار وأنزل ستائر النوافذ وأخذ ينادي النظار كلا بمفرده ليخرجوا من مخابئهم. ولكن الجنود لم يمهلوه. ودخلوا القاعة وجاء وراءهم الأهالي وأحاطت مفارز من الجيش والشرطة بالمكان وقبضوا عليه بعد أن تمكن من قتل شكري بك مرافق الصدر الأعظم وأحد الجنود. وبلغ عدد القتلى في هذا العراك خمسة والجرحى اثنان. وكانت الساحة قد أصبحت كأنها ساحة حرب. ثم انتقل المجتمعون إلى سراي السلطان لاجراء التحقيق في أسباب هذه الحادثة.



مصطفى كمال بالملابس التركية التي ألغاها.

اعترافات في التحقيق

ولما سيق الضابط القاتل إلى التحقيق قال أمام المحقق العسكري:

إنني في السادسة والعشرين من عمري، أعزب، ولدت سنة ١٢٨١ (هـ). جئت من شركستان الى دار السعادة ودخلت طالباً في الكلية البحرية. ثم انتقلت منها إلى الكلية الحربية البرية.

وبعد ما اكملت فيها دروسي تخرجت برتبة يوزباشي والحقت بالجيش الهمايوني السادس ثم قضيت ياورا في مجلس الشورى العسكري ومنه نقلت إلى الدائرة الخاصة كمرافق للشهزاده يوسف عز الدين أفندي.

إلى أن يقول: كنت أنوي قتل حسين عوني باشا أثناء مراسم دفن السلطان عبد العزيز في تربة السلطان ولكنني عدلت عن ذلك لأنني لم أر من المناسب تحقيق امنيتي في هذا المكان.

وخرجت اليوم من بيتي قاصداً السر عسكر حسين عوني باشا أحمل مسدساً وخنجراً شركسياً. في الساعة الثانية وصلت اليه وبادرت الاغاوات بالسؤال عما إذا كان الباشا موجوداً في البيت فقيل لي انه ذهب إلى بيت مدحت باشا وقد أرسل في طلب أوسمته. فسرت رأساً إلى

بيت مدحت باشا. وعند وصولي اليه مكثت قليلاً في غرفة الاغوات. ثم سألتهم اذا كان السر عسكر باشا موجوداً هناك فأجابوني بالايجاب. فقلت لهم إن طيار باشا أرسلني لمواجهته. وصعدت إلى الطابق العلوي. ودخلت إلى القاعة مكان اجتماع النظار أحمل بأحدى يدي مسدسي وفي الأخرى مديتي. وقلت لهم لا تتحركوا انهضوا جميعاً. وما ان لمحت عيناي حسين عوني باشا أمامي حتى أطلقت الرصاص عليه وقتلته. وأذكر أنني أصبت كذلك ناظر الخارجية رشدي باشا. ثم اقتربت من حسين عوني باشا وطعنته بمديتي عدة طعنات وكذلك فعلت برشدي باشا. وتأكدت من موت الأثنين. وبينما كنت افتح باب الغرفة التي لجأ اليه مدحت باشا والصدر الأعظم وقيسريلي أحمد باشا. ضربني أحد الاغوات بآلة حادة على رأسي فأطلقت عليه الرصاص فقتلته ثم جاء رجال الحرس وأطلقوا الرصاص علي بكثرة فقاتلتهم بالمثل ولا أعلم اذا كان أحد منهم أصيب. وفي النهاية سلمتهم سلاحي. فقد قتلت حسين عوني وناظر الخارجية واحد الاغوات ولم أقتل غيرهم. وبعد ذلك قبضوا علي وجاءوا بي إلى هنا. انني فعلت ذلك من أجل الأمة والسلطان عبد العزيز.

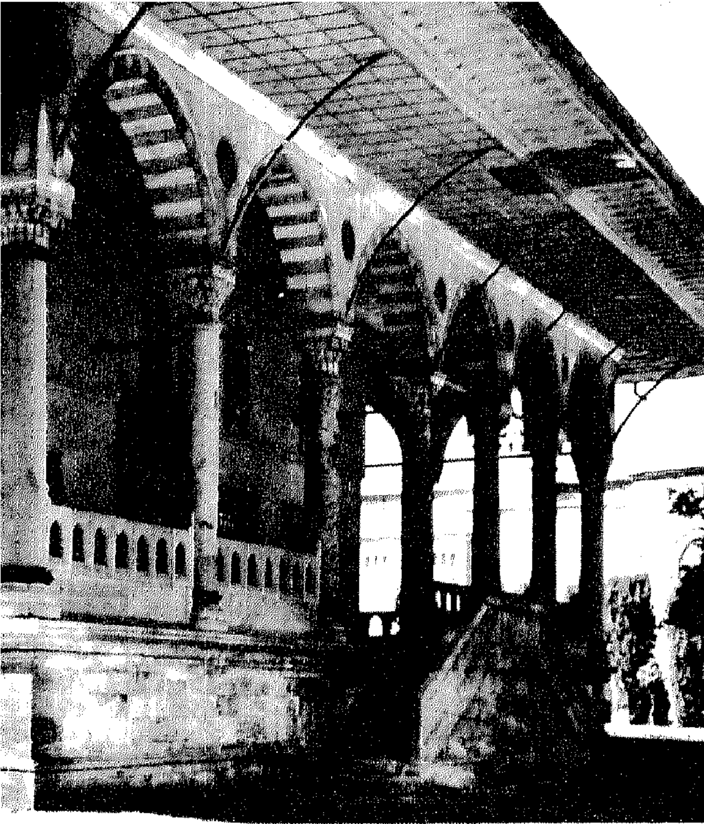
وبعد مرور أربعة أيام على وقوع الحادث أعدم شركس حسن شنقاً في ميدان بايزيد. ودفن في مقبرة «أدرنه قبوس».

وقد أقامت له والدة السلطان عبد العزيز ضريحاً فخماً نقشت على بلاطه ما يأتي: المرحوم المغفور له شركس حسن بك نجل ديش براكي زاده غازي اسماعيل بك. احد مشاهير الامراء الغزاة تخرج من الكلية الحربية وحصل على رتبة القول اغاسي. قدم روحه وهو في شرخ الشباب فداء لولي نعمته الفاتحة سنة ١٢٩٣ (هـ).

وشهادات أخرى

وللمؤرخين القائلين بموت عبد العزيز قتلاً شواهد عديدة تثبت مدّعاهم أهمها: الشهادات التي أدلى بها أمام محكمة يلدز التي تشكلت لمحاكمة مدحت باشا بتهمة قتل السلطان عبد العزيز. وقد أثار هذه الدعوى البرنس يوسف عز الدين أفندي بن عبد العزيز بتحريض من السلطان عبد الحميد.

ومن هذه الشهادات شهادة البرنس يوسف عز الدين نفسه فقد قال أمام المحكمة انه في يوم وقوع الحادثة، السراي كلها كانت محاطة بالجند على غير عادة، «وعندما بلغني نبأ الفاجعة حاولت الدخول إلى غرفة صاحب الجنان



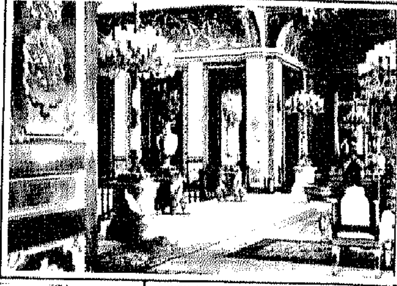
سراي طوبقبو حيث غسل جثمان عبد العزيز.

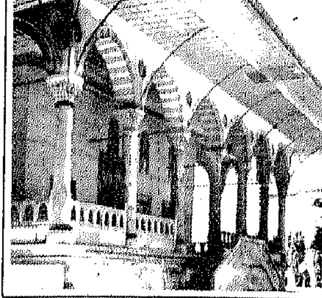
فلم يأذنوا لي. وقناعتي أنه مات شهيداً».

وقال أحد موظفي القصر: رأيت الفاعلين يدخلون إلى الغرفة وهم: جزائرلي مصطفى، ومصطفى جاويش، ومحمد آغا، وفخري، ونجيب، وعلي، وراقم. وبعد هنيهة سمعت صوت السلطان يصرخ: أمان الله. وكانت النوافذ مقفلة وفي الباب جنديان يحرسان مدخل الدار. وقد دامت هذه الحالة عشر أو خمس عشرة دقيقة. وبعد ذلك لفوا صاحب الجنان بستار احدى النوافذ. وقال شاهد آخر: «عندما جيء بالأطباء إلى مخفر قصر «فرعية» حيث كان يقيم السلطان وحاولوا معاينة أطرافه، تصدى لهم حسين عوني باشا وكان واقفاً عند الباب متكئاً على سيفه، ومنعهم من ذلك قائلاً ليست هذه جثة أحمد آغا ومحمد آغا بل هي جثة بادشاه. انني لن اسمح لكم بازالة الستر عنها كلها لمعاينتها. وكان هذا الموقف التهديدي الذي اتخذه السر عسكر داعيا لحمل الأطباء على الاكتفاء بالمعانية السطحية ووضع التقرير بحضوره.

وأدلى مدحت باشا في المحكمة بشهادة طويلة ختمها بهذه الخلاصة: «لقد اطلعت على شهادات الاشخاص الذين يعتقدون بانتحار السلطان عبد العزيز وعلى ادعاءات الأشخاص الذين يقولون بموته شهيداً. وقرأت أيضاً بدقة تامة الأوراق التي ملأت صندوقاً كبيراً من صناديق محكمة يلدز. ورغم كل ذلك لم اوفق إلى أعطاء أي حكم قاطع في أي من الادعاءين هو الصحيح.









وبشر القاتل بالقتل

انما اذ استعرضنا بأمعان الحوادث الذي وقعت منذ اليوم الذي بدأت فيه تهيئة خلع المرحوم حتى ساعة رحيله أو ترحيله إلى دار البقاء أقول: اذا كان السلطان عبد العزيز مات قتلاً فان قاتله يكون حسين عوني باشا واذا كان موته حصل انتحاراً فان السبب في هذا الانتحار وبتعبير آخر القاتل المعنوي هو أيضاً حسين عوني باشا».

ولما بلغ الصدر الأعظم السابق يوسف كامل باشا مقتل حسين عوني باشا على يد حسين شركيس قال: «وبشر القاتل بالقتل».

أما حسين عوني فهو من مواليد قرية من لواء اسبارطة وكان والده حاجباً في إحدى الدوائر الرسمية. وكان ذكيا محباً للعلم دخل المدرسة الابتدائية في بلدته ثم سافر إلى اسطنبول والتحق بالكلية الحربية. وبعد ما اتم تحصيله فيها انتسب إلى السلك العسكري وتدرج في رتبه حتى بلغ أعلاها. ومنه انتقل إلى السلك الاداري وترقى فيه حتى تولى الصدارة العظمى. وكان عسكرياً جريئاً واداريا ممتازاً. وكان من المناصب التي تولاها مشيرية الجيش الهمايوني الخاص. فكان بحكم هذا المنصب مجبراً على قضاء معظم أوقاته في القصر السلطاني وان يظل في معية سيده حيثما يكون. ويبدو ان حسين عوني كان يسلك مع بعض نساء القصر سلوكاً لا يتفق وتقاليد ذلك الزمن فيعمد أحياناً أثناء رواحهن وغدوهن في أروقة القصر ودروب الحدائق إلى مطارحتهن كلاماً يتنافى وقواعد الحشمة والرصانة. وانه كان يخص إحدى الجواري بدعابته ويفرط في إسماعها ما لم يرضها. فشكت أمره إلى والدة السلطان. وكان قد بلغها من أمره الشيء المثير. فنقلت بدورها الشكوى إلى السلطان فثار لذلك وأقاله على الفور من منصبه في الجيش الخاص، ونفاه إلى مدينة اسبرطة. وبعد ان قضى فيها عدة أشهر تقدم بعض أصدقائه من رجالات البلاد باسترحام إلى السلطان ليعفو عنه فأجابهم إلى طلبهم وأعاده إلى اسطنبول.

وقد اضطرت بعد ذلك كفاءات حسين عوني السلطان إلى تسليمه اخطر المهام في الدولة. ولكنه بقي حاقداً عليه وكذلك كان شأن عوني تجاه السلطان. وظل هذا الحقد والنفور المتبادل يتأجج مع الزمن. واغتنم حسين عوني أخطاء عبد العزيز، فاتفق مع مدحت باشا على السعي لخلعه. وتمكن الاثنان من تنفيذ مشيئتهما. ويبدو ان ذلك لم يشف غليل حسين عوني. يضاف إلى هذا أنه كان يخشى ردة في الجيش والشعب تعيد عبد العزيز إلى عرشه وكان له فيهما أنصاره ومريدوه الأقوياء. فدبر على ما يقوله البعض مقتله. وقد حرص عوني باشا على ان يتولى منصب «السر عسكر» أي وزارة الحربية وقيادة الجيش ورئاسة الاركان قبيل موعد تنفيذ الخلع، حتى يتسنى له القيام به والقوات المسلحة كلها تابعة لسلطته. وقد هيأ للانقلاب بأن جاء بالجنود من خارج اسطنبول، وبفرق من سوريا وسائر البلاد العربية لأن هؤلاء بحكم وجودهم بعيداً عن العاصمة لا يعرفون ما يدور فيها من التآمر. واشاع عوني قبيل موعد الخلع بيومين أن الروس على أهبة احتلال العاصمة، ثم أمر كتيبة من طلبة الكلية الحربية الفرسان باحاطة قصر ضولمه باغجة من ناحية البر وقطع الأسطول من جهة البحر لتنفيذ الخلع. وخطب قائد المفارز العسكرية المتمركزة في ميدان القصر بجنوده «انه كان في نية السلطان عبد العزيز تسليم الدولة إلى الروس. وانه لذلك تم خلعه وتولية جلالة السلطان مراد الذي أنقذ البلاد من الأعداء مكانه، وأوصاهم بالمحافظة عليه» ●

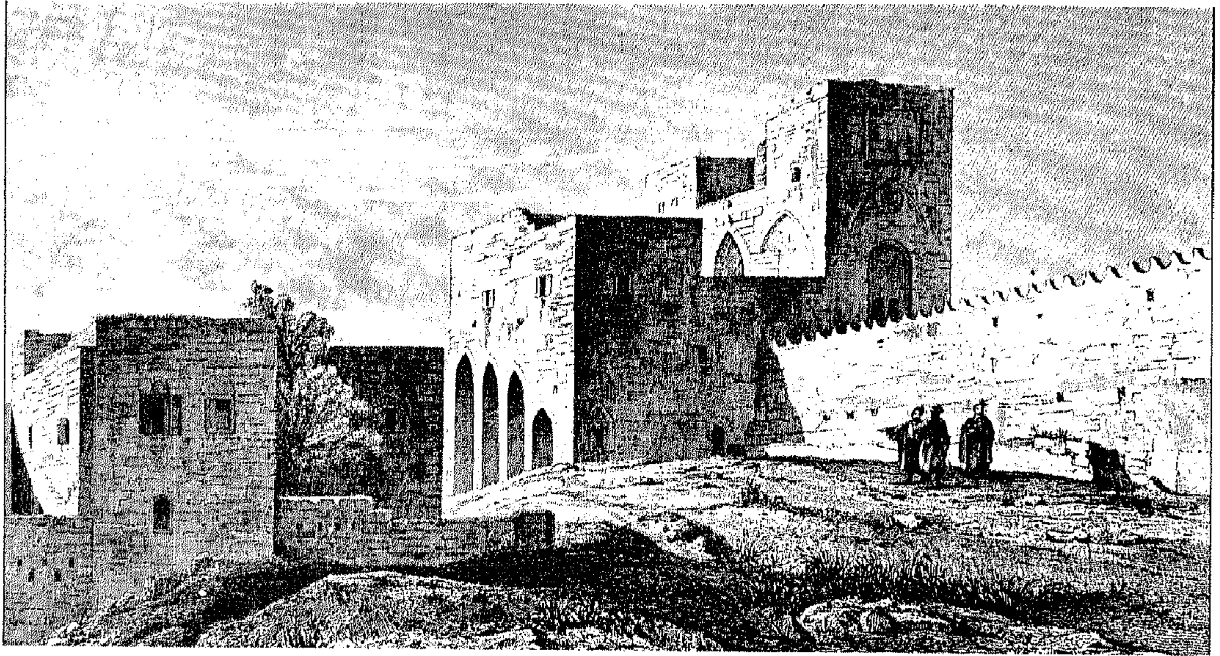
---

(١) انشأ جريدة الجوائب في الاستانة أحمد فارس الشدياق أحد اركان النهضة الأدبية العربية الاخيرة سنة ١٨٦١. وقد انتشرت انتشاراً واسعاً واشتهر امرها في الشرق والغرب. وكان لها شأن كبير عند ادباء العرب لما كانت تحويه صفحاتها من ابحاث لغوية وادبية قيمة. وكانت تعد في السياسة وسائر شؤون الدولة على انها تعبر عن رأي السلطان والحكومة. وقد توقفت عن الصدور في الاستانة سنة ١٨٨٤.

بيروت

قبل مائة عام

د. مروان بحيري*



داخل سور بيروت ١٨٤٠.

● لم يكن ثمة ما ينبيء في عام ١٨٢٥ ، ان بيروت ستصبح مدينة لبنان الأولى. كانت مدن أخرى مثل طرابلس وصيدا معروفة أكثر بأهمية تجارتها وكثافة سكانها ومبانيها. ومع ذلك ، وفي مدى جيل واحد استطاعت بيروت ان تلحق بمنافستيها ، وان تتفوق عليهما ، لتصبح المرفأ الرئيسي أولاً ، ثم عاصمة للبنان.

هذا التطور ذو المظاهر المعقدة ، نجد رواية لاحداثه في شهادة ثلاثة رجال عاشوا سنة ١٨٥٠ : تومسون وفارلي ورزق الله.

كانت حملات ابراهيم باشا العسكرية وتدخل القوى الأوروبية قد نشطت الاقتصاد. وتدفقت الدراهم والبضائع على البلاد. واختيرت بيروت كمرفأ ومحجر لا بد للسفن من ارتياده والتوقف فيه. وأقيم فيها مقر اركان القوات المسلحة طوال سنوات الحرب. وبعد هزيمة ابراهيم باشا وعودته إلى مصر عام ١٨٤١ ، انصرفت الطبقة

(*) د. مروان بحيري ، استاذ التاريخ في الجامعة الاميركية ، بيروت ، متخصص في تاريخ الاقتصاد الحديث وعلاقات الشرق والغرب ، خريج جامعة برنستون في الولايات المتحدة الاميركية.

لمحات عن نهضتها الاقتصادية والاجتماعية

الوسطى الجديدة المكونة من المقاولين، إلى العمل لتضخيم الثروات المتراكمة بفضل الاحداث.

وفي الخمسينات، كتب و. م. تومسون مؤلف: «الارض والكتاب»، عن بيروت حيث كان يقيم: «منذ ثلاثين سنة كانت تسكن بيروت ٥٠٠٠ نسمة. وكانت المدينة تعتمد على صيدا في مؤونتها. واليوم يسكنها ٤٠ ألف نسمة. وأصبحت صيدا هي المعتمدة كليا على بيروت. ومنذ ثلاثين سنة لم يكن ثمة خارج سور المدينة أي مسكن لائق، عملياً. أما اليوم فان ثلثي السكان يعيشون في مئات المنازل المشيدة بذوق في البساتين. والمنازل الفخمة التي تزين الضواحي، ليست نادرة» (ص ٣٧). وأضاف تومسون يقول: «لم تشهد أية مدينة أخرى في الامبراطورية العثمانية مثل هذا التوسع السريع».

وفي الستينات، تأثر ج. لويس فارلي، رئيس محاسبة البنك العثماني. الذي كان قد استقر لتوه في بيروت، تأثر هو الآخر بالتطور المدهش لحركة البناء: «خلال اقامتي التي دامت أقل من عامين شقت طرق جديدة واقيمت عمارات كبيرة في رأس بيروت. مركز البريد والقنصلية الفرنسية أقيما هناك. وفي الوقت نفسه فتحت عدة مقاه أبوابها. ويقال لي انها مجهزة بطاولات البليار. وبالقرب من فندق «بيلفو» جرى هدم مجموعة من المباني القديمة. وفي مكانها اقيمت مبان كبيرة مخصصة لاحتواء مجموعات من المكاتب. ويحتل التجار الانجليز اثنين من هذه المباني. واتسعت حركة البناء إلى خارج الاسوار. وهكذا شيد زعيم عائلة بسترس الغنية قصراً أميرياً فخماً، كما شيد السيد مشاقة قصراً أقل فخامة».

وفي العام ١٨٥٨ بدأت شركة فرنسية رصف طريق للعربات تصل بيروت بدمشق. والمشروع، وهو مفيد جداً، يجعل السفر ممكنا بعربات الخيل ويسهل الاتصالات السريعة بداخل البلد. وفي السنة ذاتها كان خليل الخوري يطبع أول صحيفة في بيروت: «حديقة الأخبار». وبعد عشرين سنة كانت تصدر في العاصمة دزينة من الصحف منها «ثمرات الفنون» ١٨٧٥، التي كان يصدرها عبد القادر القباني، مؤسس جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية[1]، ومنها «لسان الحال» التي أسسها خليل سركيس عام ١٨٧٧. كذلك كان يصدر عدد مماثل من المجلات المتخصصة، الناطقة بالنهضة الثقافية في الشرق الأدنى: «المجمع الفاتيكاني»، وأصدرها اليسوعيون سنة ١٨٧٠، «والجنان» لبطرس البستاني وقد أسسها في السنة ذاتها، «والمقتطف» ليعقوب صروف وفارس نمر (١٨٧٦). وكان لبيروت حتى مجلة طبية: «الطبيب»، التي اطلقها الدكتور جورج بوست، من الكلية السورية البروتستانتية، التي ستتحول فيما بعد إلى جامعة باسم جامعة بيروت الاميركية وأيضاً مجلة «بيروت» التي كان يصدرها محمد رشيد الدنا.

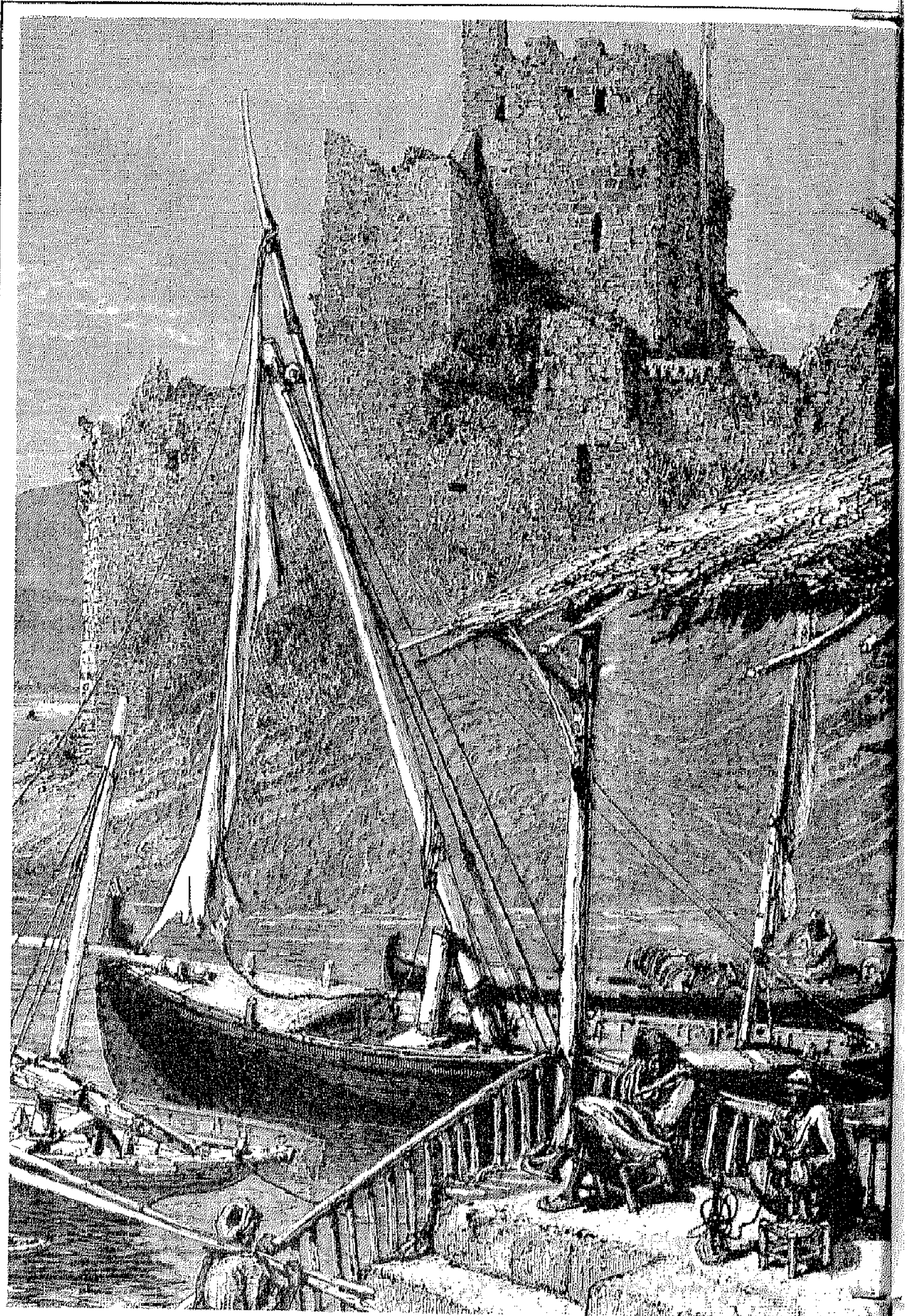
وهكذا أصبحت المدينة المركز الثقافي والاعلامي في البلاد. وللمقارنة، فان طرابلس لم تشهد صحيفتها الأولى «طرابلس» الا سنة ١٨٩٣، وقد أصدرها محمد كامل بحيري. أما صيدا فلن يصدر فيها أحمد عارف الزين «جبل عامل»، الا في العام ١٩١١.

الشاهد الثالث على تطور بيروت، في منتصف القرن الماضي، هو حبيب رزق الله. وهو كاتب من الشويفات، ألف بالانجليزية كتاب «الشوك وأرز لبنان» (لندن ١٨٥٤). وهذه ترجمة لأحدى مشاهداته الحية: «مدينة بيروت التي اكتسبت أهمية كبيرة بسرعة، يمكن اعتبارها المستودع الرئيسي للتجارة السورية. في عام ١٨٤٠ كان ثمة ثلاث أو أربع عائلات أوروبية مقيمة في البلد. وكان نادراً ما تلقي باخرة انجليزية مرساها في مياه مرفأ بيروت. أما اليوم، أي بعد ثلاث عشرة سنة، فان التجار والحرفيين القادمين من كل صوب أوروبي اجتاحوا المدينة. ولا يمر اسبوع الا وترسو ثلاث أو أربع سفن، آتية من مختلف المرافىء الأوروبية. مشهد البحر من أزهى ما يمكن. ويوم الأحد، كانت السفن المختلفة تترك بيارقها للريح، وتقابلها على الشاطىء بيارق القنصليات. وكنت ترى سربا من السفن الانجليزية والفرنسية والسردينية والنمساوية والاميركية والبرتغالية والاسبانية والهولندية والدانمركية والنرويجية والسويدية، تحمل يومياً سلعاً من ما نشستر،

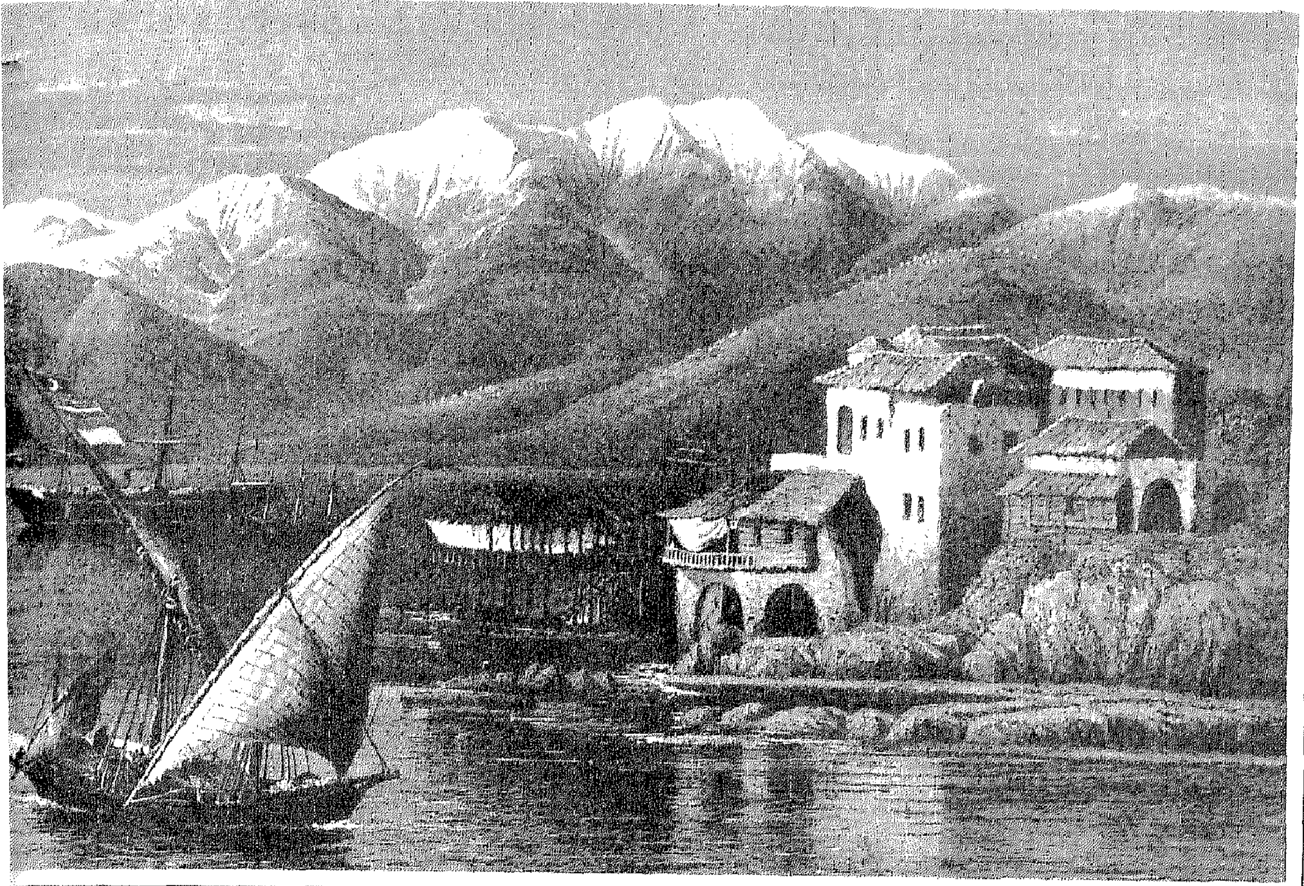
ومنتجات من لندن جلبت من المستعمرات البريطانية. وسكر من هامبورغ، وأطعمة منوعة من فرنسا وايطاليا. وكماليات متعددة وضروريات أساسية من كل أنحاء العالم. وبدورها كانت بيروت تصدر خيطان الحرير المكبية في أكثر من مصنع في الضواحي أو في جبل لبنان، والحبوب الآتية من الداخل، والحرير الخام الذي كان جزء منه يأتي من مسقط رأس كاتب هذه السطور. يضاف إلى هذه زيت زيتون بيروت وسورية، والخشب والجوز وعينات عديدة من الفاكهة المجففة، التي أخذ شحنها ينتظم على يد رجل أميركي صاحب مبادرة. وكان سكان بيروت يتزايدون بوتيرة سريعة، والازدهار أيضاً، والمؤسسات الجديدة تؤسس. ويكتشف التجار شبكات تجارية جديدة. واخذ الناس يشيدون البيوت ويقيمون الاسوار ويسوون الحدائق. ويشترون الأراضي ويزرعونها. وبيروت التي حولها زلزال ١٨٢١ إلى مدينة بؤس ودمار تحولت بسرعة إلى مدينة جميلة مزدهرة ذات أبنية رشيقة وجنائن زاهرة تطل على واحد من أجل المشاهد البحرية التي يحلو لريشة الرسامين أن ترسمها، أو لقريحة الشعراء ان تنشدها. وان شاء الله آمل أن أرى اليوم الذي تصبح فيه بيروت العزيزة قادرة على منافسة أو تخطي أزمير، أو حتى اسطمبول».

الحياة في بيروت

كيف كانت الحياة في بيروت منذ قرن من الزمان؟ لنفترض أنه في العام ١٨٨٨، أراد تاجر بيروتي أن يقابل زميلاً أوروبياً نزل لتوه من البحر من إحدى السفن الاثنتي عشرة البخارية التي تؤمن الخطوط البحرية المتعاملة مع مرفأ بيروت اسبوعياً. لكان يجده مستقرا في فندق «بسول» أو في فندق «بيلفو» (١٠ إلى ١٥ فرنكا في تلك الفترة) في منطقة الزيتونة، الا اذا كان الزائر من انصار التعرف على البيئة البلدية. لكان عندئذ يجده إما في فندق «كوكب الشرق»، في ساحة الشهداء، حيث كان سليم الشامي صاحب الفندق يتقاضى فرنكين لليلة، أو في إحدى الغرف المفروشة عند مدام باسكال في الزيتونة أيضاً، وبأجرة متواضعة... والواقع ان دليل بيروت، الذي أصدره عام ١٨٨٩ أمين الخوري، باسم «الجامعة»، يعدد حوالي سبعة عشر فندقاً. فاذا وجد تاجرنا زميله، واذا كان مغرماً بالحمامات التركية، فهو يأخذه إلى أحد الحمامات الكثيرة في المدينة، مثل الحمام «الكبير»، قرب باب الدركة، «والزهور»، شارع دمشق، أو «البرغوت» قرب الثكنات المركزية للجيش العثماني، أو «الشفاء»، أو «الباشورة»، أو يقترح عليه أخذ حمام بحري في واحدة من المؤسسات البحرية الجديدة المقامة في الزيتونة أو المدور.



مقهى على الشاطئ.



وبعد عملية الانعاش هذه، يقوم الزائر بجولة على المصانع، تبدأ بمصنع الكبريت الجديد (١٨٨١) لصاحبه عدوان خوري، ومصنع الصابون «سلطاني» لصاحبه جرجي الصابونجي، ثم مصنع الرخام الجديد لأبراهيم الشامي وطنوس شعيا، قرب مكتب التلغراف. والجولة الكاملة على مصانع الحرير، يفترض ان تتضمن عادة زيارة مصنع قسطنطين نجار (الدحداح سابقاً)، ومصنع بيدروني في منطقة الحرش، ومصنع نصر، شارع دمشق، ومؤسسة سليم جبيلي وانطوان ورده في النهر. أما معمل القرميد الذي بدأ بداية طيبة، فقد أقفل أبوابه. لكن المسافر المهتم بصناعة الورق، كان يمكنه زيارة مصنع أحمد عيتاني أو مصنع الكرتون المجاور الخاص، بمطبعة اليسوعيين.

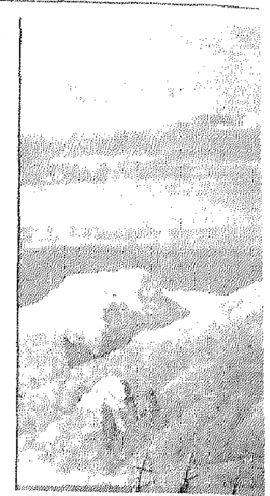
وصفقة تلك الحقبة، كانت اعطاء امتياز استثار المرفأ إلى جوزيف مطران، وتكوين «الشركة العثمانية لمرفأ وأرصفة ومخازن بيروت» (١٨٨٨) بمساهمة البنك الامبراطوري العثماني، وبنك الحسم الباريسي، وشركة المواصلات البحرية. وفي عام ١٨٨٨ اضيئت المدينة بالغاز بفضل امتياز منح لشركة فرنسية. ووقعت البلدية عقدا لتجهيز شبكة من ٦٥٦ موقعاً منيراً. لكن سكان بيروت ظلوا متمسكين بقناديلهم التي تضيء بالنفط. ولذلك قررت شركة الغاز تنويع عملها، وانطلقت في تجارة توزيع الثلج.

والأعمال المصرفية كانت تحظى بتقدير كبير. وكان في امكان التاجر اللبناني وزميله الأوروبي ان يختارا واحداً من المصارف التالية: المصرف الامبراطوري العثماني في خان انطون بك، مصرف جبور طبيب وشركاه في خان فخري بك، مصرف سرسق، مصرف فرعون وشيحا قرب وكالة الشقال.

وكان ثمة عدد كبير جداً من المبادلين الصغار وبيوت التسليف. أما الجواهر، التي انطبع بها الشرق في أذهان الغربيين، فكانت تباع في سوق رعد وهاني، عند الياس نقولا الحمصي وباسيل طوقتلي وحبيب ديان وسليم فيعاني.

وامتد نفوذ الغرب إلى كل البنية الاجتماعية، واشتد الاقبال على خياطي الازياء على الطراز الأوروبي: جرجي عرمان قرب خان انطون بك، جرجي خديج في سوق أياس، ويوسف شاوول في سوق الحرير. أما السيد بيانشي فكان من جانبه يقدم آخر مبتكرات تصاميم الازياء الرجالية. أما الأزياء الشرقية فكان كبار خياطيها: حنا

بيروت وخلفها الجبل.



اسعد خياط.



فليفل في سوق البازركان، وسليمان أبو شاكر ومحمد البلطجي.

لقد كانت الجبال تشكل ملجأ بشكل تقليدي. وخلال عشرين سنة من الحرب الطائفية (١٨٤٠ – ١٨٦١) تحولت بيروت إلى قطب جاذب لموجة من اللاجئين في الاتجاه الآخر... وأدى النماء الديموغرافي إلى نماء مماثل في الخدمات الطبية. وكان كثير من اللبنانيين يزاولون مهنة الطب عام ١٨٨٨، نذكر من بينهم ابراهيم صافي، الياس شكر الله، شاكر خوري، ابراهيم مطر، اديب قدورة، يضاف اليهم الاطباء المزاولون في الجامعة الاميركية والجامعة اليسوعية. والسيدة صبرا، الطبيبة الشهيرة آنذاك، كانت تعنى بالمرضى من النساء. أما في طب الأسنان فالخيار كان أضيق. كان هناك الياس ونقولا يواكيم، وخريستو انسطاسي. وفي المقابل كانت الصيدليات كثيرة جداً. كان ثمة خمس عشرة صيدلية على الأقل. وبين الصيادلة المؤهلين كان هناك مسعود حيمري (الذي بدأ يعمل عام ١٨٥٠)، وايلي عرب، وايلي تابت، واسكندر حلو، ومراد بارودي، ويمين وسوراني، والاخوان مطر.

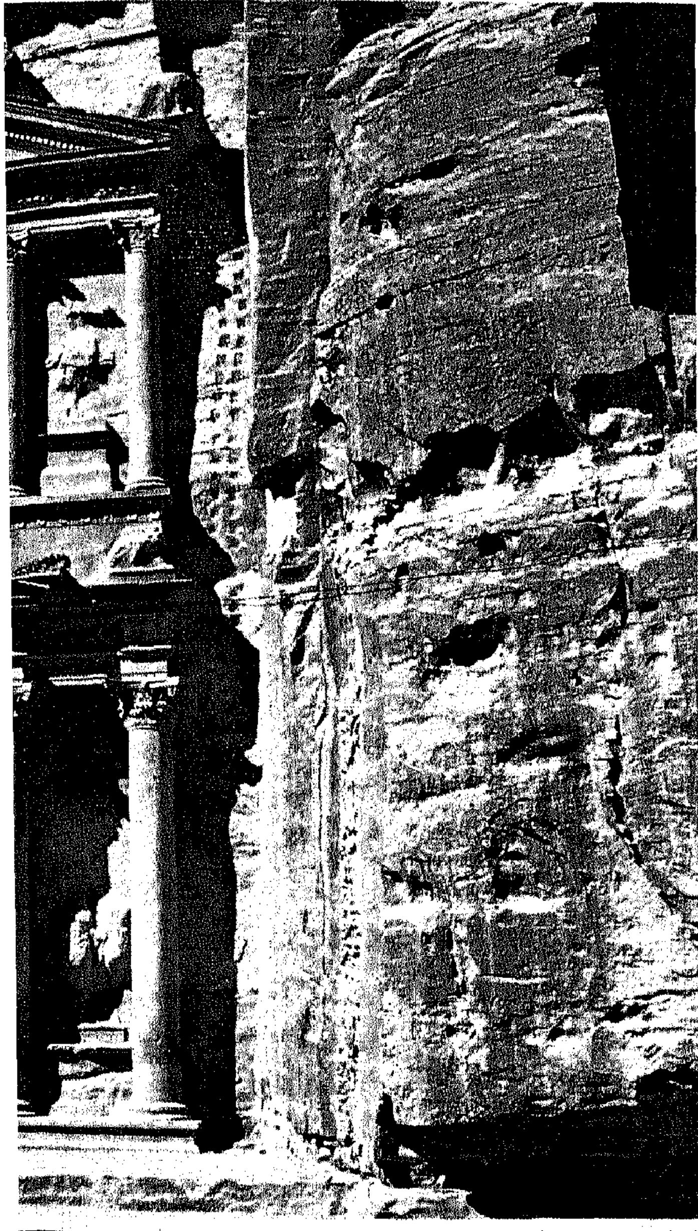
واستمر نماء بيروت الذي بدأ في الربع الأول من القرن الماضي. واجتذبت المدينة المزيد من مؤسسات التعليم والبواخر والشركات الدولية، أي انها اجتذبت منافسة متزايدة ومفيدة. والواقع ان المدينة أصبحت سوقاً كبيرة للاستيراد والتصدير، من والى سورية الداخلية. وفي نهاية ذلك القرن كان كثير من الناس يتكلمون لغتين معاً. وهذا الأمر طبع بيروت بطابع دولي خاص جداً. لقد أصبحت المكان الأمثل للقاءات الدولية، ومستودعا فسيحاً للمنتجات الاشد تنوعاً ومصهراً للافكار والتيارات السياسية ●

الهوامش

(١) هي أول الجرائد الاسلامية في بيروت وأول صحيفة عربية انشأتها شركة مساهمة في العالم كله. كانت شركتها تتألف من أثني عشر سهماً وقيمة كل سهم الفان وخمسمائة غرش ذهب عثماني. وكان المساهمون من أدباء المسلمين واعيانهم يؤلفون «جمعية الفنون» برئاسة الحاج سعد حماده ابن الحاج عبد الفتاح حمادة الشهيرين. الا أن جمعية الفنون لم يطل عمرها لدى وفاة مؤسسها الحاج سعد حمادة، فانتقل اسم الجريدة الى صاحب الامتياز الشيخ عبد القادر قباني الذي جعل قبلته خدمة الامة. وكانت للمسلمين ثقة عظيمة بهذه الصحيفة التي بقيت لسان حالهم زماناً طويلاً ولا سيما بعد احتجاب جريدة الجوائب في الاستانة. فكانوا يطالعونها بكل اهتمام لأنها كانت تنشر اخبارهم وحوادث ممالكهم واحوال شعوبهم في مشارق الأرض ومغاربها. وفي ١٢ أيار (مايو) ١٨٩٩ جرى الاحتفال الرسمي بعيدها الفضي فحضره ذوو الوجاهة والفضل مأمورو الحكومة تقديراً لخدمة صاحب الامتياز. وقد عد القوم ذلك الاحتفال حادثاً تاريخياً للصحافة العربية.

البتراء

اليعاقبة ... ثورة وطنية



● وقفت أمام مقر الشرطة في وادي موسى. كان ذلك قبيل المغرب. والقيت بنظرة كلها شوق إلى المكان الذي تتوسطه البتراء. التي آثرت ان تظل محتجبة عني. وهي تحتجبُ عن كل زائر حتى يصلها.

وفي صبيحة اليوم التالي. وقبل ان تظهر الشمس على الافق الشرقي. كنت في طريقي إلى البتراء. وكان السيق مدخلنا الوحيد إلى قلبها. وهناك وقفت أمام خزنة فرعون. وقد تدلّت من فوقنا بوادرُ اشعة الشمس. فبدت هذه آيةً من ايات الفن، وهي آية اتحدث يدُ الانسان والطبيعة في اخراجها. وكل البتراء – هياكل وبيوتا ومدافن – هي آيات من الفن، نحتها الانسانُ في الصخور الجميلة الألوان. فاضاف إلى طبيعتها الجميلة فنه الدقيق.

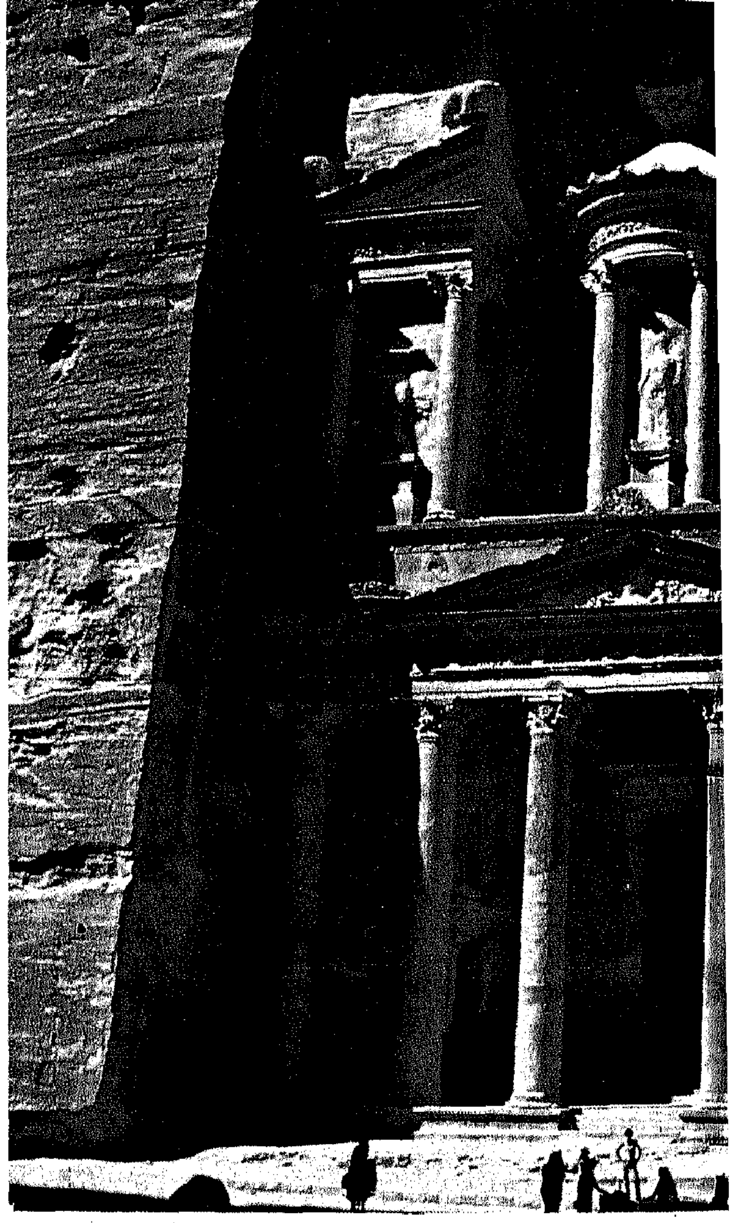
وانت اذ تسير في انحاء البتراء. وتزور متحفها. وترى في الكتب والصور نقودها وتقرأ نقوشها. تقفز إلى ذهنك أسئلة لا حد لها: من هم الانباط الذين فعلوا هذا؟ ولماذا اختاروا هذه البقعة؟ ولماذا قبل الناس أن يأتوا اسواقهم للاتجار؟ وغير ذلك.

الانباطُ استقروا في البتراء وما يحيط بها في القرن الخامس قبل الميلاد. ولعلهم كانوا ورثاء الادوميين. لكن هؤلاء استقروا في بقاع اخرى. والأنباطُ، على ما هو عليه اكثر الباحثين، هم عرب جاءوا هذه الرقعة من أواسط الجزيرة العربية أو حتى من جنوبها. وقد حاول السلوقيون السيطرةَ على الانباط واحتلال البتراء. ولكنهم فشلوا. هذه الحملة يفصل اخبارها ديودورس الصقلي المؤرخ اليوناني فيقول ان الجيش السلوقي الذي هاجم البتراء سنة ٣١٢ قبل الميلاد، كان مؤلفاً من ستمائة فارس واربعة آلاف راجل. وان الجيش تمكن من الدخول إلى البتراء واستولى على ما في اسواقها من اللبان والمر. كما صادرَ خمسمائة وزنة من

جرش في التاريخ

د. نقولا زياده

عربية ضد الحكم البيزنطي



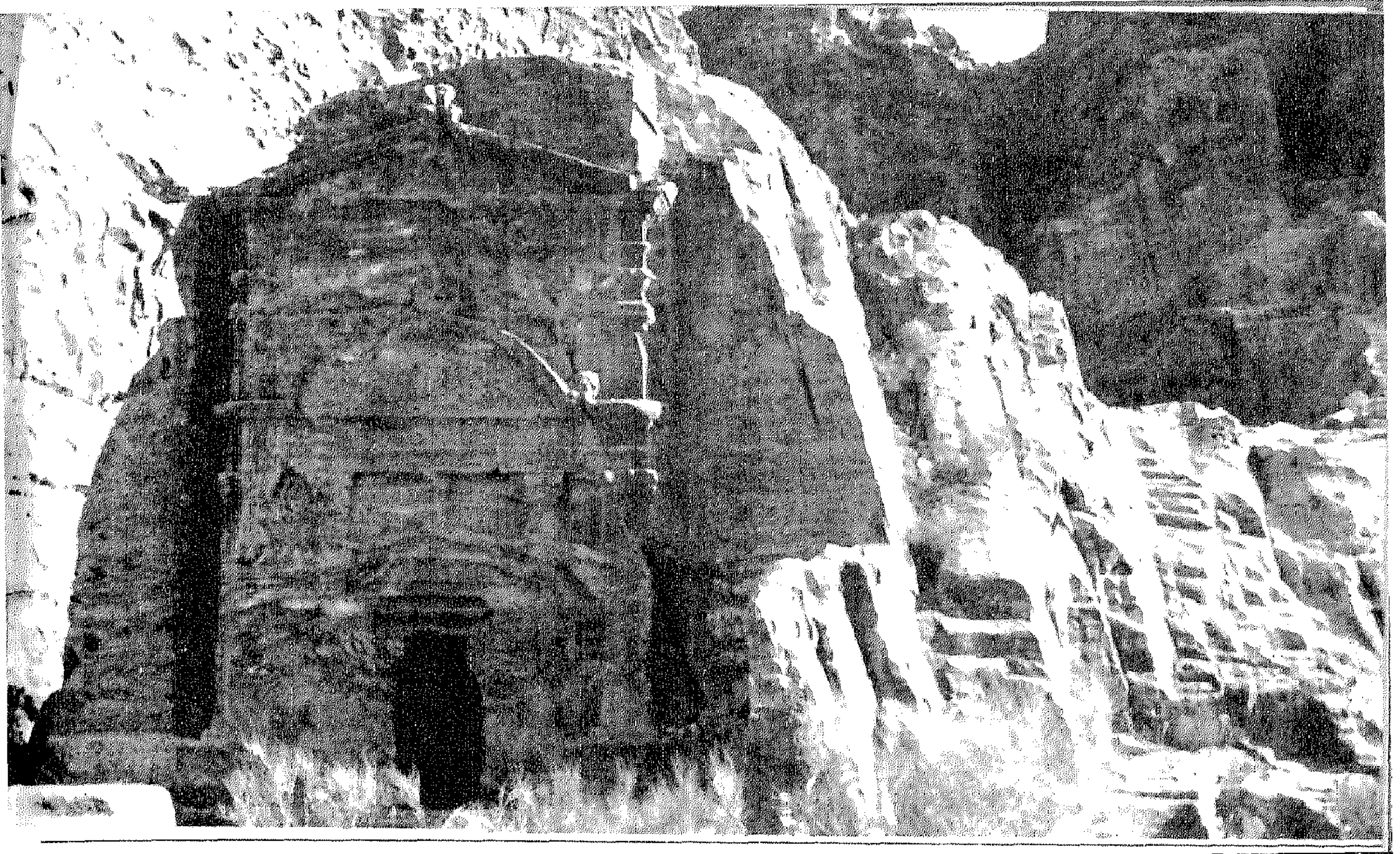
الفضة. لكن سكان البتراء. أي الأنباط. كانوا قد وضعوا ابهم ونساءهم واطفالهم في مكان حريز. وقاموا بهجوم معاكس حرروا فيه مدينتهم. واستردوا الاسلاب. وكانت خسارتهم في ذلك كله خمسين رجلاً.

ومع ان السلوقيين جددوا الحملة. لكنهم لم ينجحوا. وقد كان للقار الذي يستخرج من البحر الميت أثر هام في اهتمام السلوقيين بالاستيلاء على ديار الأنباط. فالقار الذي كان يطوف قطعاً صغيرة على سطح هذا البحر. والذي كان يجمع في شباك. كان ينقل إلى مصر ليستعمل في صنع العقاقير. كما كان مادة اصلية في التحنيط. ومن ثم فقد كان مصدر ثروة كبيرة.

تجارة منوعة

لكن القار لم يكن الشيء الوحيد الذي كان الانباط يتاجرون به. ذلك ان الطرق التجارية الآتية من اليمن عبر الحجاز. والواصلة من أواسط الجزيرة عبر دومة الجندل. وهي الجوف اليوم. والطرق الموصلة إلى جنوب فلسطين ومصر وشواطئ المتوسط. والطرق التي يتبعها الناس إلى دمشق وبقية الانحاء الداخلية من بلاد الشام – هذه الطرق كلها كانت تلتقي في البتراء. والمتاجر التي كانت تنقل على هذه الطرق من لبان حضرموت ومر الصومال وطيوب الهند وتوابلها. كانت يتاجر بها في اسواق البتراء. وكان من حسن حظ الانباط ان الجمل كان قد دخل ميدان حمل البضائع قبل مجيئهم بنحو خمسة قرون. وحل محل الحمار حيوان نقل. فيسر عليهم الكثير. فالجمل على المشاق اصبر. وعلى الحمل أقدر.

والانباط كانوا صناعا ماهرين. ولعل الفخار الذي أنتجوه من أجمل ما انتج في المنطقة جمعاء. فهو إلى



المقابر الملكية في البتراء.

زخرفه الانيق الملون الدقيق، رقيق إلى حد يكاد أن يكون شفافاً. ومن هذا صنعوا المعاطر والمكاحل والصحون والاطباق. هذا إلى ان الانباط افادوا من نحاس وادي عربة، وكانت معرفته سابقة لعهدهم، فافادوا من المعرفة هذه. وكان العطر مما يصنعونه. ومن هنا فقد اضافوا إلى المتاجر المحمولة إلى بلادهم الكثير من صنعهم مما نقل جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً.

وقد توسع الانباطُ في سبل العناية بالماء النابع من الأرض والماء الساقط من السماء. والقني التي يشاهدها زائر البتراء اليوم محفورة في اعالي السفوح الجبلية لتوصل الماء إلى تلك الاماكن هي مدعاة للاعجاب. والانباط كانوا من أكبر الشعوب التي ظهرت في المنطقة مقدرةً على الحفاظ على الماء وعلى التربة أيضاً. وهذه الأمور ليست وقفاً على البتراء، بل هناك اماكن كثيرة على شاكلتها مثل بويصرة وغيرها.

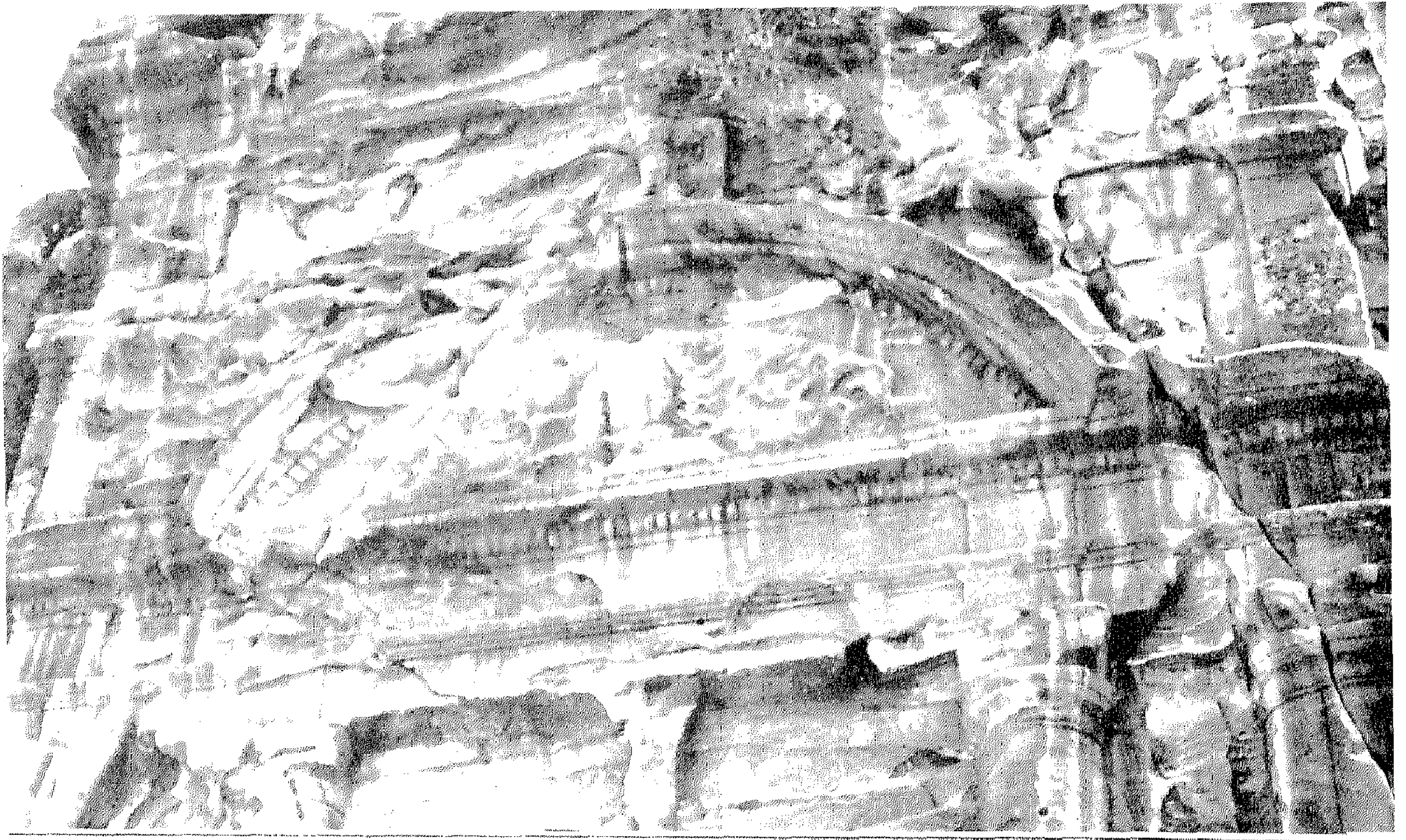
وقد رأى الانباط ان الحفاظ على طرق التجارة يحتاج، بالاضافة إلى الجند المدرب، إلى حصون، فأقاموا من هذه ما احتاجوا اليه. ولأن ملك الانباط امتد من مداين صالح في شمال الحجاز إلى دمشق، فان الرقعة التي استقروا فيها كانت رقعة واسعة. وقد جاء احتلالهم لدمشق حول سنة ٨٠ قبل الميلاد.

وأسماء ملوك الانباط فيها رنة عربية. فهناك الحارثُ وعبادة ومن أسماء ملكاتهم صقيلة وجميلة، وان كان في نطق بعض هذه الاسماء لكنة لعل سببها انهم كانوا يستعملون الخط الآرامي بادي بدء. ويبدو ان اشهر ملوك الانباط هو الحارث الرابع، الذي حكم نحو نصف قرن من سنة تسع قبل الميلاد إلى سنة اربعين بعده. وقد عرف باسم حبيب الشعب.

الاحتلال الروماني

بعد ان احتل الرومان سورية ولبنان وفلسطين وشمال الاردن سنة ٦٣ قبل الميلاد، وجهوا نظرهم نحو الانباط. ولكنهم لم يهاجموا البتراء إلا سنة ١٠٦ أيام الامبراطور تراجان، الذي انشأ ولاية سماها «العربية»، ووصل بين المدينة وبقية الانحاء الواقعة إلى شمالها بطرقٍ منظمةٍ. ومع ان الملك النبطي انتهى امره، الا ان تجارة الانباط وما كان لهم من مشاركة في الفنون وامور الحضارة لم ينته. فالذي اظهره البحث أخيراً هو ان هذا الشعب النشيط ظل يجاهد قرنا أو اكثر بعد مجيء الرومان. وقد ورثه في المنطقة شعب «عربي» آخر هم الغساسنة.

واليوم البتراء قبلة الزوار. وهكذا فقد فرضت على الناس ان يذهبوا اليها مرتين: الأولى يوم جاءوها للاتجار، والثانية يوم يأتونها ليستمتعوا بالفن وآياته.



من عمان إلى جرش

كان الاتصال الأول الكبير لبلاد الشام بالنسبة إلى عالم الاغريق في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، اذ احتل الاسكندر الكبير المنطقة الممتدة من البحر الأبيض المتوسط إلى شمال الهند وأواسط آسية. وبعد وفاة الاسكندر قامت بين خلفائه خصومات انتهت، بالنسبة إلى ما يهمنا، إلى استقرار السلوقيين في بلاد الشام وقيام دولة البطالمة في مصر. ومع ان الحرب كانت سجالا بين الدولتين، فان ذلك لم يمنع حضارة اليونان من ان تنتشر في هذه الرقعة، ونال الاردن منها حظاً ليس بالقليل.

واذا نحن اخذنا بالبحث عن المظاهر المادية لهذه الحضارة وآثارها لوجدناها في بناء المدن والمعمار والفن—حفراً ونقشاً وتصويراً، كما نتعرف على آثارها المعنوية شعراً ينظمه شاعر من جدارا القديمة أي ام قيس الحالية، وفكراً وفلسفة يتفاعل مع ما كان عند أهل البلاد.

وتعثرت أمور الدولة السلوقية والبطلمية. وكان العالم يرقب ظهور قوة جديدة هي رومة. وهذه وصلت جيوشها إلى بلاد الشام في أوائل القرن الأول قبل الميلاد. وكان الرومان ممتازين في الادارة وبناء الطرق والجسور، لذلك ادخلوا إلى هذه البلاد شيئاً من هذا الذي عرفوه. أما في النواحي الحضارية الأخرى فقد كان عملهم نشر الحضارة اليونانية على نحو ما كان الأمر من قبل. هذا بالاضافة إلى ان القرنين الأول والثاني للميلاد كانا زمن «السلم الروماني» وهو زمن الازدهار.

فاذا نحن أخذنا الفترة اليونانية الرومانية كلها كأنها وحدة حضارية، لوجدنا فيها أموراً حرية بالذكر.

منها أن المدن عامة كانت شوارعها تتقاطع على زوايا قوائم، وتسير في خطوط مستقيمة، وكانت المياه الصالحة للشرب تنقل اليها من جهات بعيدة. فقد نقلت مياه الشرب إلى درعا من مسافة خمسة عشر كيلو متراً.

ومنها ان الرومان انشأوا عدداً من الحصون والقلاع والمسالح كانت تمتد من المدورة في جنوب الاردن إلى الفرات. وهذه امنت للسابلة الطرق.

ومنها ان الطرق عمرت البلاد فطريق بحري يمتد من الساحل الشامي إلى مصر، وطريق سلطاني يجتاز الاردن من الشمال إلى الجنوب، وطرق عرضية تصل الطرق الرئيسية المذكورة، وكل هذا يتصل بالبلاد المجاورة.

وعادت الحياة للمدن اليونانية والمدن التي هي أقدم منها عهداً، وتقاطر اليها الناس وسكنوها. فكانت عمان (فيلادلفيا) وبيسان وفحل وجدارا وجرش مراكز للحياة المتحضرة.

وفي كل مدينة من هذه المدن . وغيرها كثير في بلاد الشام . يجد الواحد مدرجا يتسع لآلاف من المتفرجين . الذين يؤمونه ليشاهدوا تمثيل الروايات التي كتبها ابناء البلاد أو نقلت عن اليونانية . وكان لكل مدينة ساحة ندوة كان الرومان يسمونها «فورم» حيث كان يلتقي احرار المدينة تلبية للدعوة التي يوجهها الرئيس اليهم ليقرروا الشؤون العامة . وكانت للمدينة مبانيها المشرقة وهياكلها الجميلة . ونشطت مجالسها المحلية لتجميلها .

. . وبقيت جرش

ولنلق نظرة على جرش . على اعتبار انها مثل حي للمدينة التي تحدثنا عنها . فعمان وام قيس وغيرهما من المدن المعاصرة لجرش عملت يد التخريب فيها . وعمان بني الكثير فوق ما كان منها مخبأ تحت التراب . أما جرش فقد استمرت حياتها حتى بعد الفتح العربي إلى أيام العباسيين . على نحو ما ظهر من أعمال الحفر والتنقيب الاثري الذي تم أخيراً .

فالدخول المألوف إلى جرش هو من الباب الجنوبي . مروراً تحت ركنيه وتاجه . والغالب ان يتجه الزائر يساراً إلى المسرح المدرج فيتسلقه . ومن هناك يشرف على آثار المدينة . فالندوة البيضاوية شكلاً تمتد أمامه . وارضها التي بلطت قبل الف وستمائة ويزيد من السنين لا تزال هناك . وتحيط الأعمدة الكورنثية الجميلة . وهناك نحو سبعين منها . بساحة الندوة هذه . هذا غير الذي تهدم بفعل الزلازل .

وهناك الشارع الرئيسي الذي كان يخترق المدينة من الجنوب إلى الشمال . وقد كان مكونا من طريق للمركبات عرضه نحو ستة أمتار في الوسط . يحيط به رصيفان مرتفعان للمارة . وعلى جانبي هذا الشارع كانت تقوم الحوانيت والمتاجر الكبيرة . فضلاً عن ساحة الندوة ذاتها التي كانت سوقاً كبيرة للبلد وتجاره .

وفي وسط هذا الشارع حوض منحوت من الصخر الأحمر الجميل . تعلوه مصاب للماء . الذي لعله كان مسبحاً لآلهة الجمال .

وهناك بقايا هيكل أرطميس . وكان لهذا الهيكل مائتان وستون من الأعمدة الكورنثية يعتمد عليها . وليس منها هناك اليوم سوى عدد ضئيل . كان هذا هيكلاً تعبد فيه الشمس . كما كانت تعبد الشمس في اماكن كثيرة من بلاد الشام . فقد كانت هذه العبادة أشيع انواع العبادات في القرنين الثاني والثالث للميلاد في منطقتنا جمعاء . وكان كهنة الشمس قد نظموا شؤونهم وادخلوا تنجيم البابليين وأساطير الكواكب في عبادتهم . وكانت الشمس قلب الكون النابض ومصدر النور الحق للعالم . فعبد سكان بلاد الشام الشمس على انها أكبر الآلهة . ومن بلاد الشام انتشرت عبادة الشمس في العالم الروماني . بتأثير هؤلاء الكهنة الذين عنوا بتفسيرها وشرحها للناس . حتى ان الامبراطور اوريليان . وهو من أباطرة القرن الثالث الميلادي . رفع «الشمس التي لا تقهر» إلى مقام اسمى إله في الامبراطورية .

ومثل كل مدينة رومانية كبيرة كان لجرش حلبة لسباق الخيل تسمى هيبودروم . وهذا البناء كان يحيط بالمسبق وفيه صفوف من المقاعد يجلس فيها المتفرجون . واذا كانت عمان قد نعمت بمدرج يتسع لنحو خمسة الاف شخص . فان جرش كان فيها مدرجان — الجنوبي وهو على يسار الداخل من الباب الجنوبي — والشمالي والأول يتسع لثلاثة الاف متفرج . أما الشمالي فكان اصغر وكانت فيه اقبية تحت أدنى صف من المقاعد لعلها كانت غرفا للاحتفاظ بالحيوانات المفترسة لاوقات الجلاد .

وكان لجرش . مثل غيرها . حمامات عامة . وهي في جرش غربية وشرقية . والحمامات كانت للاغتسال . كما كانت تقوم مقام الاندية .

ويوم في مادبا

كان الانباط أول جماعة عربية استوطنت الاردن وأقامت فيه مدينة لا تزال تبهر الناظرين في البتراء وغيرها من مدنهم وقراهم . ولكن الذي يجب ان نذكره أيضاً هو ان جماعات صغيرة كانت تنتقل من الجزيرة العربية إلى اجزاء مختلفة من بلاد الشام . وفي القرن الثاني أو الثالث بعد الميلاد نجد ان هذا العدد من الجماعات الصغيرة يزداد حجماً وقوة . بحيث اننا لا نكاد نصل إلى القرن الرابع أو الخامس حتى نجد ان الغساسنة قد استقروا في الاردن والجولان . وكانت لهم قوة وعنفوان وحضارة وبلاط . ونعرف انهم استولوا . فيما استولوا عليه . على اطراف دمشق ان لم يكونوا قد وصلوا إلى المدينة نفسها .

وكان حدث هام قد أخذ طريقه إلى الاردن في القرن الرابع للميلاد . وهو انتشار المسيحية في ربوعه . ومن هنا كانت هذه الكنائس الكثيرة التي بنيت . ويبدو هذا واضحاً في جرش . إذ لا تزال آثار اثنتي عشرة كنيسة قائمة فيها . وأشهرها الكاتدرائية الكبرى التي كانت موجودة في

سنة ٣٥٩ بدليل اشتراك اسقف جرش ، أي مطرانها ، في مجمع سلوقية الذي عقد في تلك السنة . على أنه ثمة ما يدل على بناء كنيسة أو أكثر هناك تعود إلى القرن الثاني وأوائل القرن الثالث . الا أنه من الثابت ان بعض الكنائس القائمة آثارها في جرش تعود إلى القرنين الخامس والسادس.

ثورة وطنية عربية ضد بيزنطية

وهناك أمران هامان يتعلقان بانتشار المسيحية وبناء الكنائس في الأردن . أما الأول فهو أن الغساسنة ، الذين كانوا حلفاء البيزنطيين أو الروم ، كانوا يعاقبة أي إنهم كانوا يختلفون عن المذهب الرسمي لحلفائهم . وكانوا ، من هذه الناحية ، على وفاق مع أقباط مصر الذين كانوا يعاقبة أيضاً . وكانت مصر كذلك ولاية بيزنطية أي رومية . ومن المؤرخين من يرى ان هذا الموقف الذي وقفه الغساسنة ، وهم أقوى فئة مسيحية في بلاد الشام ، واخوانهم الاقباط في مصر لم يكن في طبيعته خلافاً على مسائل دينية مع الكنيسة البيزنطية الرسمية ، بل كان موقفا وطنيا يعبر عن ثورة داخلية في البلدين ضد السلطة الاجنبية عنهما .

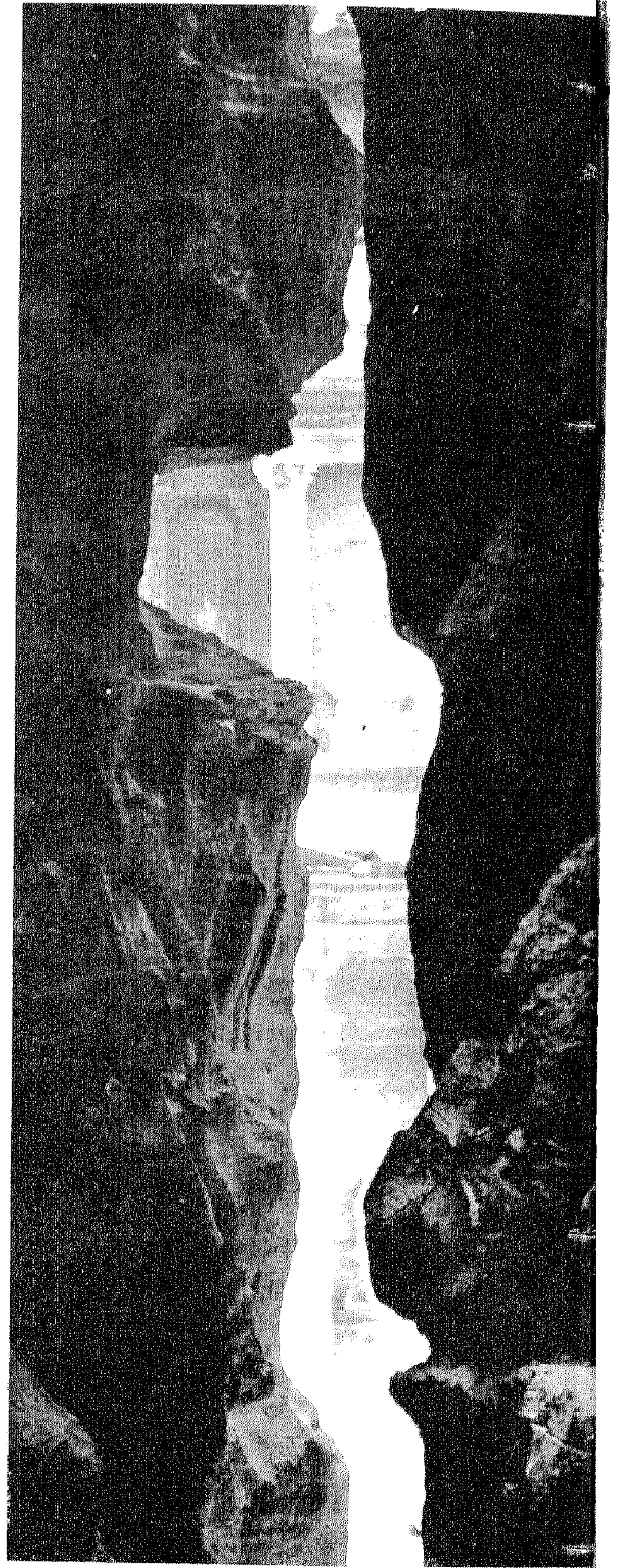
أما الأمر الآخر الحري بالذكر فيتعلق بالكنائس نفسها . فقد شاعت في ذلك الوقت —منذ القرن الرابع إلى القرن السابع —زخرفة الكنائس بالفسيفساء ، أي الحجارة الصغيرة الملونة التي كانت تستعمل لزخرفة الارضين والجدران . وقد استعملت قطع الزجاج الصغيرة الملونة أيضاً .

ونحن واجدون في جرش في الكاتدرائية الكبرى وفي كنيسة القديس ثيودوروس وفي الكنيسة ذات الرواق مصليات صغيرة مزينة أرضها بالفسيفساء . وقد كانت الفسيفساء الموجودة في كنيسة القديس يوحنا المعمدان فسيفساء على جانب عظيم من الروعة وتشتمل على صور مدن ومن جملتها الاسكندرية وممفيس ، ويحيط بها إطار عريض يشتمل على رسوم اشخاص وحيوانات . ويمكن لمن يريد ، أن يشاهد هذه في متحف جرش ومتحف الفسيفساء في عمان .

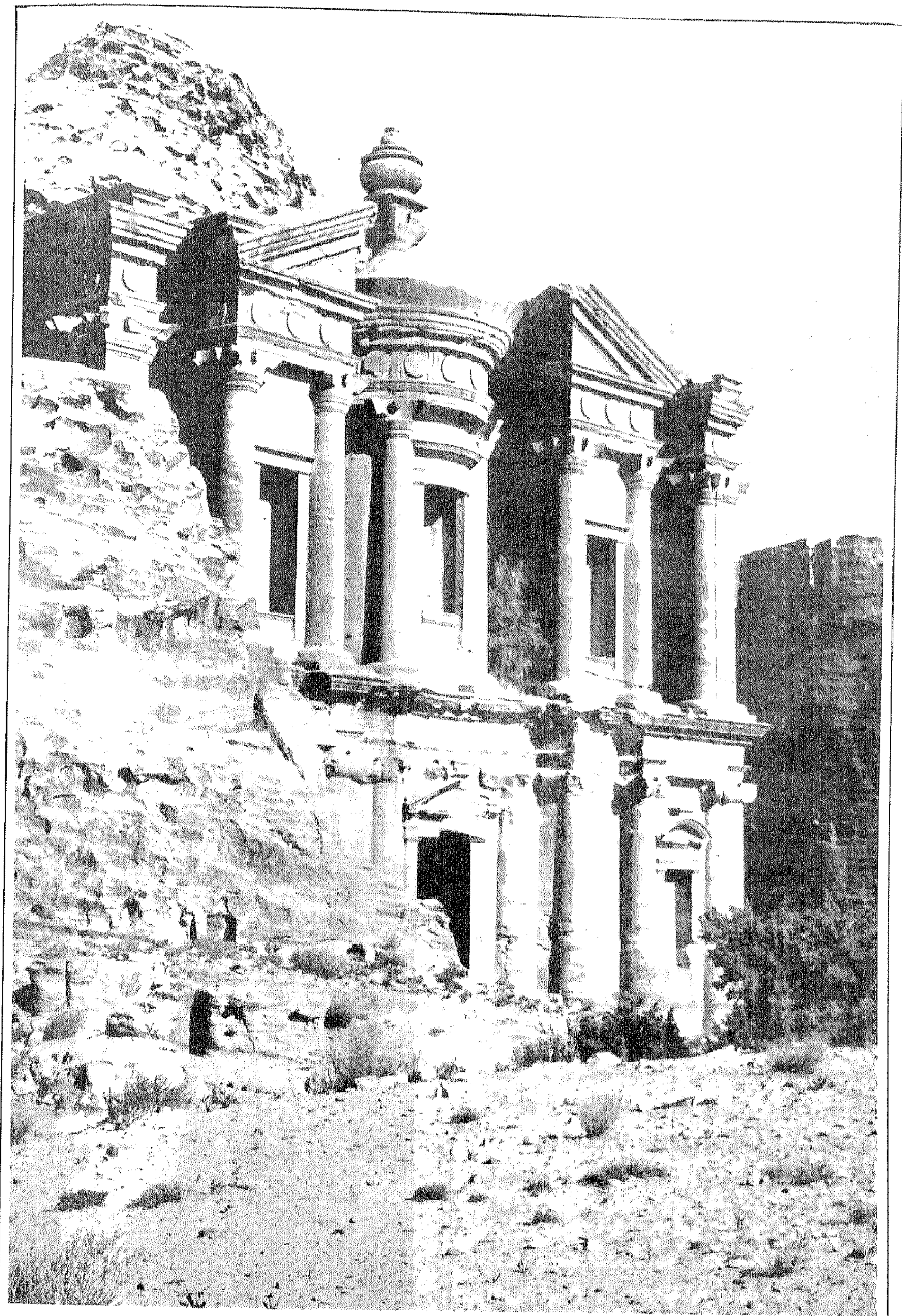
وقد كانت ثمة غرفة على مقربة من درج الكاتدرائية تستعمل مصنعاً للفسيفساء الزجاجية وذلك في القرن السادس .

خريطة من الفسيفساء

على أن المكان الذي يبدو فيه فن الفسيفساء الأردني على جماله فهو مدينة مادبا وجبل الصياغة القريب منها .



السيق : الممر الوحيد إلى البتراء بين جبال الصخر.



«الدير»: تحفة فنية خالدة منحوتة في الصخر في البتراء.

هذا بالاضافة إلى أماكن منتشرة حول مادبا.

فالزائر للكنيسة الارثوذكسية في مادبا يستطيع أن يشاهد حتى اليوم صناعة متقنة عجيبة. ولعل أكثر هذه اتقاناً خريطة الأرض المقدسة وسورية وسيناء ومصر. وقد تلف قسم منها. لكن الموجود إلى الآن تتضح فيه معالم الصناعة الدقيقة. فهناك خريطة صغيرة. داخل الخريطة الرئيسية. لمدينة القدس تبدو فيها الأماكن المسيحية المقدسة واضحة. ويظهر نهر الاردن والبحر الميت بوضوح. ولعل من أطرف ما يشاهده الزائر هو هذه السمكة التي تصل في الاردن إلى قرب مصبه في البحر الميت ثم تلوي عنقها محاولة العودة ادراجها. اشارة إلى انه بحر لا تقوم فيه الحياة بسبب ملوحة مائه الشديدة.

ثم هناك بقية من الخريطة التي تبدو فيها اجزاء من سورية. ولكن القسم الذي تظهر فيه سيناء ومصر أوضح. والنيل وفرعاه اللذان يكونان الدلتا بينة المعالم في هذه الفسيفساء الأرضية.

إلى جانب هذا كله فهناك الابراج السماوية الأثنا عشر. ممثلة بالنجوم وما ترمز اليه اسماؤها من حيوان أو رمز. يضاف إلى ذلك صور لبعض أنواع النباتات التي تظهر في المواسم التي تمثلها الأبراج.

وفسيفساء الصاغة، المعروف باسم جا نه أيضاً.

تعكس الأفكار نفسها التي تعكسها الصور الأخرى. ومن طبيعة الأشياء ان تكون أسفار الكتاب المقدس وما ورد فيه من قصص دينية هي المصدر الرئيسي لمارسم في الكنائس من فسيفساء. لكن حتى اخبار العهد القديم مطبوعة بالطابع المسيحي الممثل في العهد الجديد.

ونحن إذا أخذنا بعين الاعتبار وجود مدن مصرية مصورة في بعض كنائس جرش. وخريطة مصر التي نشاهدها في فسيفساء مادبا. أدركنا مدى ما كان يعتمل في نفوس الذين زخرفوا هذه الكنائس من ارتباط بين الفريقين التابعين للمذهب اليعقوبي القائل بالطبيعة الواحدة. مقابل المذهب الرسمي للكنيسة البيزنطية. ولعل هذا يؤكد ان الارتباط لم يكن دينيا فحسب. بل كان ارتباط معارضة وطنية للحاكم الاجنبي.

هذه الآثار الجميلة الممثلة في المعمار والفن في الكنائس وغيرها قضت عليها عوامل مختلفة. لعل أهمها الزلازل الكثيرة التي كانت تضرب البلاد. وتؤذي المباني الشاهقة أكثر مما تصيب المباني الأصغر. وكان من أكثر الزلازل تدميراً لكثير من هذه المباني. في جرش وغيرها. ذلك الذي وقع سنة ٧٤٦ للميلاد. وهو الزلزال الذي جعل جرش مدينة شبه مهجورة. اذ تساقطت معظم مبانيها ●



بائع بطيخ فاشل... يصبح من كبار الاطباء!

هو ابراهيم النبراوي بك..

أرسله أهله الى القاهرة ليبيع بطيخاً. فخسرت تجارته. فخاف الرجوع الى أهله فدخل الأزهر واتفق احتياج محمد علي باشا الى شبان يعلمهم الطب. فتقدم النبراوي ودخل مدرسة أبي زعبل. ومن ثم أرسل الى باريس مع البعثة الأولى. فتزوج فرنسية، وترجم -وهو بفرنسا- مؤلفات كلوت بك. وتولى بعد ذلك تعلم الجراحة الكبرى في زمن كلوت بك. واختاره محمد علي باشا طبيباً خاصاً له ورقاه الى رتبة أميرالاي. وانتخبه أيضا عباس باشا طبيباً له.

(عن كتاب: حركة الترجمة في مصر خلال القرن التاسع عشر)



لعل من أغرب الظواهر التاريخية ظاهرة نشوء الامبراطورية البريطانية وتقدمها وبقائها. فانه ليستعصي على الفهم أن ينجح سكان جزيرة صغيرة. تقع وسط بحار مكفهرة. ويمتاز جوها بالقسوة والعنف. في فتح امبراطورية مترامية الاطراف تشغل ثلث مساحة الارض. ثم السيطرة عليها قروناً.

اندريه موروا

من أخبار المسرح الكوميدي في مصر

١٩٠٥-١٩٢٠

د. محمد يوسف نجم

٢

عزيز عيد



لقطة تجمع بين ستيفان روستي ونجيب الريحاني (وبينهما ليلى مراد في فيلم غزل البنات).

العودة إلى جورج أبيض (١٩١٧ - ١٩١٨):

● انفصل عبد الرحمن رشدي عن جوق استاذه جورج أبيض في نهاية موسم ١٩١٦ - ١٩١٧ وكوّن فرقة مستقلة باسم «شركة التمثيل العربي». وعاد عزيز إلى صديقه القديم جورج أبيض عقب انفصال رشدي، مخرجاً وممثلاً.

وقد شارك عزيز في تمثيل بعض المسرحيات. وعرفنا من ادواره دور سالومون في «الممثلكين»[1] ودوره في «دخول الحمام مش ذي خروجه»[2]. التي كان قد قدمها على مسرح الأبيه دي روز. ودور جاكمان الحاج في «شارل السادس»[3]. ودور كواتيه في «لويس الحادي عشر»[4]. ودور فوشيه في «مدام سان جين»[5] ودور كليوفاس في «الساحرة»[6]. ودور ياجو في «عطيل»[7].

وتجول الجوق في مديريات الوجه البحري إعانة لمشروع «يومنا ١٩١٧». ووافق عزيز على أن يرافقه في هذه الرحلة مخرجاً وممثلاً. على أن يتقاضى خمس الأرباح. ويقال أن جورج حقق في هذه الرحلة أرباحاً طائلة بلغت الخمسة آلاف جنيه، أبى أن يسلم لعزيز بحقه فيها[8]. ويقال أن عزيزاً احتقبها في نفسه وانتقم

من جورج انتقاماً فنياً بارعاً وذلك باقناعه باخراج «فيروز شاه» التي كانت وبالاً عليه من الناحيتين الفنية والمالية.

وبعد عودة الجوق من تلك الرحلة استأنف التمثيل على مسارح القاهرة والاسكندرية وقدم موسمه المعتاد في الأوبرا. وأخرج عزيز مسرحيات هذا الموسم المرموق ومثل فيها دور أوغلو، أبو تيمورلنك. في «تيمورلنك»[٩]، ودور ريمون في «العثرة الأولى»[١٠]. ودور فلت في «الشعلة»[١١]، ودور سالون في «الممثل كين»[١٢]، ودور جاكمان الحاج في «شارل السادس»[١٣].

وأخرج له في هذا الموسم أوبريت «فيروز شاه» التي الفها عبد الحليم دولار ولحنها سيد درويش وغنى فيها جورج. وكانت كارثة فنية ومالية كما ذكرنا[١٤].

مع منيرة المهدية (١٩١٨ – ١٩١٩):

بعد ذلك ظهر اسم عزيز ثانية على مسرح دار التمثيل العربي الذي كان يديره محمود بك جبر زوج منيرة المهدية. فقدم باشراف منه عدداً عن مسرحياته الفودفيلية ومنها «يا ستي ما تمشيش كده عريانة» و«زي ما انت راسي»[١٥].

ثم ألف له محمود بك جبر جوقاً خاصاً أخذ يمثل إلى جانت جوق منيرة. فاختار مسرحية «عبد الستار أفندي» لمحمد تيمور. واختار لها من الممثلين والممثلات زكي طليمات وأحمد حافظ وعبد المجيد شكري وحسن فايق ومحمود فهمي وروز اليوسف ولطيفة أمين وزاهية ومثل هو دور عبد الستار أفندي. وقدمها بمسرح دار التمثيل العربي في ديسمبر ١٩١٨[١٦].

وفي هذا الموسم أخرج لها عزيز أوبريت «روزينا» ومثل فيها دور لاكوكاردييز[١٧].

عودة الى الفودفيل، والريحاني (١٩١٩ – ١٩٢٠):

انفصل امين صدقي والكسار عن جوق مصطفى امين في كازينو دي باري حوالي نهاية ١٩١٨، والفا جوقاً خاصاً بهما اخذ يمثل على مسرح الماجستيك ابتداء من يناير ١٩١٩. فاضطرت ادارة الكازينو الى الاستعانة بمواهب فودفيلية أخرى تستطيع ان تصمد امام الريحاني الذي كان آنذاك يتألق على مسرح الاجبسيانة في مسرحية «حمار وحلاوة» انجح مسرحياته من الناحية المادية في هذه الفترة[١٨]. فاستعانت بعزيز عيد الذي ما كاد يظهر على المسرح ويقدم مسرحية «حنجل بوبو» حتى عاوده سوء الطالع وداهمته احداث ثورة ١٩١٩. فاخفق مشروعه الجديد[١٩].

في تلك الاثناء كان الريحاني. بعد ما حققه من شهرة فنية ونجاح مادي على مسرح الاجبسيانة. يفكر في مشروع تمثيلي من نوع جديد يسير جنباً الى جنب مع نشاطه الفودفيلي الموفق. دون ان يتعارض معه أو يؤثر على نجاحه. فكلف عزيز عيد بتأليف فرقة تجمع بعض البارزين من الممثلين. واستأجر له كازينو دي باري نفسه يمارس عليه نشاطه الجديد. واتفق مع محمد تيمور على ان يمصر له



نجيب الريحاني.

مسرحية «ذو اللحية الزرقاء» عن الفرنسية. فمصرها تيمور ودعاها «العشرة الطيبة». وكتب ازجالها بديع خيري ولحنها سيد درويش.

قضى عزيز في اخراج هذه الأوبريت وتدريب الممثلين عليها زهاء اربعة اشهر[٢٠]. وقدمها ابتداء من ١١ مارس ١٩٢٠. وقد استمر تمثيلها حتى أوائل شهر مايو[٢١]. واشترك في تمثيلها استفان روستي ومحمد صادق سيف وزكي مراد ومحمود رضا ومنسى فهمي ومختار عثمان وعباس فارس وروز اليوسف ونظلي مزراحي وبرلنتي حلمي[٢٢].

واستمر عمل هذه الفرقة المستقلة، باشراف الريحاني وادارته، في كازينو دي باري. فقدمت الى جانب «العشرة الطيبة» عدداً من فودفيلات عزيز المشهورة، منها «خلي بالك من اميلي». و«ياستي ما تمشيش كده

عريانة »، و« بسلامته ما دخلش دنيا »[٢٣].

ثم اختلف الريحاني مع عزيز وسيد درويش، وتخلّى عن الفرقة وتركها لشأنها[٢٤].

العودة إلى ابيض (١٩٢٠-١٩٢١):

بعد ذلك ظهر اسم عزيز ثانية مع جوق ابيض بعد عودته من رحلته الطويلة في بلاد الشام. وذكر اسمه في تمثيل مسرحية «قيصر وكليوباترا»[٢٥] و«أوديب الملك»[٢٦] و«الممثل كين»[٢٧] و«الساحرة»[٢٨] و«برج نيل»[٢٨] (وقد مثل فيها دور اورسيني).

مع جوق سيد درويش (١٩٢١):

كان عزيز اثناء عمله المتقطع مع ابيض يعدّ العدة لعمل عظيم، هو اخراج أوبريت شهرزاد لجوق سيد دوريش. وقد الف هذه الأوبريت بيرم التونسي ولحنها سيد درويش، وقدمت على مسرح برنتانيا في أوائل حزيران (يونيو) ١٩٢١ واستمر تمثيلها حتى ١٦ تموز (يوليو)[٣٠] وبعد ذلك اعاد الجوق تمثيل «العشرة الطيبة»[٣١].

مع منيرة المهدية (١٩٢١):

بعد ذلك التحق عزيز بجوق منيرة المهدية الذي افتتحته في ١٤ آب (اغسطس)[٢٢] ١٩٢١ بالاشتراك مع فتحية احمد. ورافق عزيز هذا الجوق في رحلته الى البلاد السورية التي امتدت من منتصف ايلول (سبتمبر) حتى أوائل تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٢١[٣٣].

* * *

هذا ما استطعنا الوصول اليه من اخبار عزيز عيد في هذه الفترة المتعثرة الحائرة من حياته، قبل اتصاله بمسرح رمسيس. ويبدو لي ان هذه الاخبار، وهي هيكل موضوعي لنشاطه التمثيلي، لا تمدنا بفكرة صحيحة عن جهاد عزيز الفني وعن سعيه الدائم الى خلق الكوميدية المصرية الأصيلة التي تعبر عن روح الشعب المصري وتصور ملامح شخصيته وقسماته الفارقة. وقد كان عزيز، في ما يبدو لي، مثالياً دائماً، يهوّم بأحلامه في عالم بعيد، لا يمت بصلة الى اوضاع المسرح المصري آنذاك، وهي أوضاع غلبت عليها الروح التجارية التي كانت تتملق الشعب وتدغدغ احاسيسه ونزواته، بعيداً عن الفن الحقيقي الذي كان عزيز جادًّا في تحقيقه مع قلة من الفنانين بعضها طأطأ لحكم الظروف واحنى هامته امام الواقع، كجورج ابيض، والآخر خاض المعركة وحده، ولم يكن له دور



عبد الرحمن رشدي.

محسوس آنذاك برغم الجهود المضنية التي بذلها، كعبد الرحمن رشدي ومحمد تيمور وتلك الحفنة من الشبان التي كانت تلتف حولها كأعضاء جمعية انصار التمثيل التي كانت خليقة، لو اسعفت الظروف، ان توجه التمثيل وجهة أخرى، غير ما اراده له أولاد عكاشة والريحاني والكسار.

ولقد أدرك المنصفون من النقاد وأهل الفن الدور الحقيقي الذي كان بامكان عزيز ان يضطلع به في خدمة المسرح المصري، وقدروا له جهاده الحقيقي، وبينوا بعض عيوبه بموضوعية وتجرد، وسأكتفي في هذا الصدد باقتباس رأيين منصفين، احدهما للسيدة روز اليوسف التي تعتبر تلميذته الأولى، والثاني لصديقه وزميله محمد تيمور الذي عرف عزيزاً عن قرب وادرك سر موهبته الفنية الكبيرة وطموحه العظيم. تقول السيدة روز اليوسف:

لا مـــهادنة:

اني لا اعرف فناناً مصرياً ضحى من اجل الفن، وتشبث بمبادئه الفنية في جميع الظروف مثل عزيز عيد. ولم يكن عزيز فناناً على المسرح فحسب، بل كان فناناً في حياته الخاصة، في علاقاته بالناس... فناناً حتى اطراف أصابعه.

كان عزيز يرضى بالفقر، بالجوع، بأي شيء... الا ان يخرج رواية تمثيلية واحدة بطريقة لا يرضى عنها. فاذا



محمد تيمور.

اخذ في اخراج رواية دقق في اختيار الممثلين تدقيقاً بالغاً... لا يعطي اتفه دور فيها لممثل لا يؤمن بكفاءته... اما الكفاءة «الخام» فقد كان يلتقطها من أول لحة ويعرف على الفور اي الادوار يصلح لهذا الفتى أو الفتاة... ثم ينصرف بكليته الى تدريب النجم الناشىء وتمرينه حتى يخلقه خلقاً جديداً. فاذا اضطر لاسناد دور في الرواية الى ممثل لا يعتقد بكفاءته الفنية تركه يمثل كما يشاء، ويبخل عليه بملاحظة أو نصيحة واحدة... انه في الفن لا يعترف بالشيء الوسط ابداً، اما ان يكون الواحد فناناً تماماً، أو ليس من الفن في شيء.

وكانت هذه الطبيعة تكلفه ثمناً غالياً لا يتحمله الناس العاديون... هو الافلاس التام بالايام والشهور. فهو لم يكن يملك شيئاً على الاطلاق... وقد يرفض اخراج الرواية التي لا تلائمه ويرفض معها الأجر الكبير، ليخرج الى الشارع معدماً، مفلساً يصوم اليوم وبعض اليوم حتى يزور امه فيأكل عندها مجاناً، وقد تعطيه وهو خارج قرشين أو ثلاثة.

... اما عزيز فقد كان ممثلاً كوميدياً من الطراز الأول وكان يمتاز بصفة قل ان توجد إلاَّ في مثله من الاساتذة هي: انه اذا وقف على المسرح انصرف الى مساعدة الممثلين الذين يلعبون امامه مهما كانوا ناشئين. ذلك ان قدمه راسخة جداً على المسرح، فهو في غنى عن العناية بنفسه، في غنى عن محاولة الظهور على غيره...

ومع ذلك فقد كان عزيز يقول انه مخرج أولاً وان تلاميذه هؤلاء هم الممثلون... فاذا خرج مفلساً يحث عن طريقة يلفق بها مسرحاً يخرج عليه مسرحية ترضي نزعته الفنية من لون الفودفيل الاخلاقي... بعيداً عن أي تهريج أو سخف أو ابتذال[٣٤].

هذا هو رأي السيدة روز اليوسف الممثلة القديرة والصحفية النابهة في استاذها الذي تعهّد موهبتها الفنية بالصقل والتثقيف حتى غدت من أعظم الممثلات اللاتي ظهرن على المسرح المصري وخاصة في دورها في غادة الكاميليا الذي أظهرت فيه من البراعة والرقة والانوثة ما جعلها تبذ كل ممثلة مصرية في عصرها، وتسجل فيه نجاحاً يجعلها تسامق فيه الممثلات الاوروبيات اللاتي تألقن في هذا الدور كسارة برنار.

وعلى الرغم من ان حديثها عنه امتزجت فيه العاطفة الشخصية واعجاب التلميذ باستاذه، بالاحكام الموضوعية المجردة، الا ان استقراء حياة عزيز الفنية واقوال تلاميذه الأخر وزملائه والنقاد فيه يدل على انها لم تكن مبالغة في تقديرها له.

أشجار جذورها في مصر:

والرأي الثاني الذي أود ان استعين به في تقدير دور عزيز عيد في المسرح المصري، في الفترة الأولى من حياته الفنية قبل انضمامه الى فرقة رمسيس، هو رأي الناقد الموضوعي المثقف محمد تيمور، يقول تيمور:

عزيز عيد يحب التمثيل كما يحبه ابيض ورشدي ويغار عليه كما يغاران عليه ولكنه ينظر اليه من وجهة اخرى. فالتمثيل في نظر الجميع كالروضة التي تترنح معاطفها وتتناغى اطيارها، ولكن عزيز يرى اشجار تلك الروضة وازهارها وطيورها كلها غريبة عن اعين المصريين. ولهذا يود ممثلنا الكبير ان يقوم بيده وفأسه يـنسف هذه الازهار ويقلع هذه الأشجار ويشتت شمل هذه الاطيار ثم يزرع عوضاً عنها اشجاراً لا تنبت إلاَّ في قرية مصر ولا تزدهر بغير زهور مصر ولا يسكنها غير البلبل والكيروان وعصفور الجنة والقمري والحمام واليمام. فرشدي وابيض يمثلان الانواع العديدة من الروايات وسيان عندهم ان كان جوّ رواياتهم بلاد الهند والسند أو اليابان والصين أو فرنسا وانكلترا. أو كانت موضوعاتها عامة توافق ذوق المصري والاجنبي أو خصيصة بذوق المصري. ولكن عزيز يرى ان الروايات المصرية المصبوغة بصبغة البلاد والتي تدور حوادثها في مصر والتي يحلل فيها المؤلف النفوس المصرية مفقودة معدومة



احدى المسرحيات في بدايات فن المسرح المصري.

لا أثر لها في بلادنا. ولهذا يود ممثلنا الكبير من صميم قلبه ان يكون أول القائمين بهذه النهضة. فان انفرد بجوق برأسه ابتدأ بتمثيل الفودفيل ليمتلك به قلب جمهوره ثم يسير به في طريق الكوميدي المصرية. وان انضم لجوق من الأجواق الكبيرة اشترط على رئيسه ان يسمح له بتمثيل الروايات التي تروق في عينه ليتسنى له ان يمثل الفودفيل ثم الكوميدي المصرية. وكم من مرة جلست معه نتجاذب اطراف الحديث فكان يقول لي وهو يبتسم (لقد عاكستني الظروف فلم انجح ولكني سأعيد الكرة وأبدأ بالفودفيل الافرنسي حتى اذا شعرت بميل الجمهور اليه قدمت له رواية من نوع الفودفيل المصري ثم رواية بين الفودفيل والكوميدي. فاذا استحسن الجمهور عملي أخرجت له الكوميدي المصرية وبهذا اكون قد وصلت لتحقيق ذلك الأمل الكبير بل ذلك الخيال الغريب البعيد). فالناس جميعاً ترمي عزيز عيد بتلك التهمة الشنعاء تهمة اخراج الفودفيل الافرنسي المملوء بالالفاظ القبيحة والعبارات المخجلة ولكنهم لا يعلمون انه يود ان يتدرج بهم من الفودفيل الافرنسي الى الفودفيل المصري ومنه الى الكوميدي المصرية. ولعل هذا السبيل الذي يسلكه عزيز عيد هو السبب في خيبته وتدهوره. ولو رآه الجمهور وهو جالس يقول (اني رجل كبير الامل لا اخشى ان يقتلني ذلك الخيال الذي تراه عيني في كل ساعة واني على ثقة من خروجي من كل ذلك صفر اليدين لا املك ابيض ولا اسود ولكني اريد ان ترى عيناي قبل ان يغمض الموت اجفاني ذلك الخيال قد تحقق ولا يهمني بعد ذلك ان تراني الناس على فراش موتي فقيراً بائساً لا املك ما اسد به رمقي) ثم يتنهد ويقول: (ولكن ما حيلتي والجمهور لم يعرني سمعه ولم يكفف عني — فانا ضحية ذلك الجمهور الذي لا اريد الا خدمته خدمة خالصة من الطمع والانانية). أجل لو رآه الجمهور وهو يقول ذلك وعرف ان الرجل المسكين اصبح فريسة ذلك الهم الذي قرح قلبه لأقبل عليه وساعده على تحقيق أمله الكبير.

أربعة عيوب في عزيز :

فما هي عيوب عزيز عيد بل ما هي الاسباب التي تقف في سبيله تمنعه عن ان يصل الى غايته؟

لو نظرنا لعيوبه نظرة المدقق لعرفنا انه ذو عيوب أربعة : (الأولى) : عدم ارادته وينتج من ذلك قلة ثباته في اعماله وعدم صلاحه لان يكون مديراً. (والثاني) : جهله الطريق الذي يصل به لغايته. (الثالث) : تمثيله الادوار التي لا تتفق مع طبيعته. (والرابع) : ثقته بعد كل ذلك في ارادته وكفاءته للادارة وتمثيل الادوار التي تروق في عينه ووقوفه على السبيل الذي يتحقق به أمله.

(عيبه الأول) : أول ما نعيب على عزيز فقدانه ارادته وينتج عن ذلك كما قلنا عدم صلاحيته لان يكون مدير جوق وقلة ثباته في اعماله. فتجده احياناً يمثل في جوق أبيض ثم تراه انتقل الى جوق عكاشة ثم يغادر جوق عكاشة ويؤلف جوقاً يحمل اسمه ثم يحله بعد اشهر معدودة ثم يمكث مدة من الزمن لا تسمع عنه شيئاً ثم يعيد تأليف جوقة ثم يحله ثم يعود لأبيض ومنه الى عكاشة ومن عكاشة الى جوق يؤلفه وهكذا يدور عزيز حول الدائرة التي رسمتها له الايام حاملاً معه أمله الكبير الذي يكاد ان يضيق صدره عن احتماله. وتراه في كل جوق من الاجواق هو عزيز عيد الرئيس الفني يعلم الممثلين ويبتكر المناظر والمواقف. تراه غيوراً على عمله يجدّ ويعمل ويذهب ويجيء ويصرخ صرخاته المحبوبة في تلاميذه فهو على المسرح قوام كل مائل ومفزع كل ملهوف.

ولكنه مفقود الارادة والصبر لا يتسع صدره لتحمل تلك الصدمات الشديدة التي تحول بينه وبين أمله الكبير. ولهذا يغادر الجوق الذي يعمل فيه الى جوق آخر لا يكون نصيبه فيه خيراً من نصيبه في الجوق الأول. ولو عرف عزيز ان لا درع كالارادة ولا حصن كالصبر لمكث في الجوق الذي يعمل فيه يقاوم ويغالب الى ان يصل لأمنيته ويقع على مطلوبه. وينتج عن ذلك حسن ظنه بالناس واعتماده على كل من يلبس المودة والاخلاص. فاذا ما سأله مدير من مديري الأجواق ان ينضم اليه ليعملا سوياً على خدمة الفن وعلى تحقيق ذلك الامل الكبير تراه تد تزدد قليلاً ولكن المدير لا يلبث ان يطويه بحسن كلامه وكثرة وعوده فينضم عزيز اليه بلا قيد ولا شرط ويقف تحت لوائه الى ان يرى امله الكبير تعبث به الاهواء وتذريه رياح الاغراض فيغادر الجوق الى جوق آخر — بل ليس شيء في الوجود اسهل من اغراء عزيز عيد على ترك الجوق الذي يعمل فيه اذا اتيته من سبيل امله الكبير ولهذا نجرؤ ونقول ان عزيز اكثر الممثلين كفاءة وأقلهم صلاحية لان يكون مدير جوق.

(عيبه الثاني) : وثاني عيوب عزيز جهله الطريق الذي يصل به لغايته. يظن عزيز ان بتمثيله الفودفيل الافرنسي يملك أعنة الجمهور ويسير به في الطريق الذي رسمه لنفسه لتحقيق امله. ولكنه نسي ان هذا النوع من الروايات لا يوافق كثيراً الذوق المصري وقد اثبتت له الايام ذلك. فعلام يقدم لنا في كل مرة يشب فيها لتأليف جوق جديد (خلي بالك من اميلي. وعندك حاجة تبلغ عنها. يا ستي ما تمشيش كده عريانة) ولعل السبب الذي يدفع عزيز للتمسك بهذه الروايات هو ما يراه من اقبال الجمهور على الريحاني ولهذا لا يتحول عزيز عن البدء بالفودفيل ظناً منه ان كل شيء يضحك يكون مدعاة لاقبال الجمهور. ولكنه نسي ان الريحاني يقدم للجمهور شيئاً مصرياً يسهل على الجمهور فهمه بل مجموعة من الحان السوقة يهذبها المؤلف ويؤلف لها كلاماً مسرحياً يقدمه للجمهور في شكل جديد وما هي الا الحان (عصفوري يامه. ولا ملامة عليك يا عيوني) وهذا هو سر نجاح الريحاني. اما روايات عزيز فكلها افرنكية يمجها الذوق المصري ويا حبذا لو الهم الله عزيزاً ان يبدأ اعماله بروايات مضحكة مصرية بحتة (كدخول الحمام مش زي خروجه) حتى يظهر للجمهور ما يجري في بيوته وفي شوارع بلاده وأزقتها. فيقبل الجمهور عليه ويتسنى لعزيز حينذاك ان يسير به من الفودفيل


روز اليوسف.

المصري الى الكوميدي المصرية وعندها يكون قد حقق أمله الكبير.

(عيبه الثالث) : وثالث عيوب عزيز تمثيل الأدوار التي لا تليق به وقد تمسّك بهذا العيب الكبير من يوم تأليفه جوق الفودفيل . فقد كنا نرى عزيز قبل ذلك لا يمثل غير الأدوار التي توافق طبيعته وأمامنا أدوار (شمبرال في القضية المشهورة) ودور (باسبارتو في الطواف حول الأرض) ودور (اللص في نتيجة الرسائل) ودور (صاحب معامل الشوكولاته في العواطف الشريفة) دليل قاطع على صحة ما نقول . ولكنه تحوّل عن هذا الطريق من يوم تأليفه جوق الفودفيل وعذره في ذلك ان الدور المهم لا يصلح إلاّ لمدير الجوق وهذا خطأ فادح . اتخذ عزيز من ذلك العهد سنّة تمثيل الأدوار المهمة وهذا حتّم على نفسه تمثيـــــــل أدوار الفتى الأول (jeune premier) . ومن كان له وجه غير جميل كوجه عزيز وجسم ضئيل كجسمه وصوت بين الضعف والقوة كصوته خير له وأولى أن يبعد عن هذه الأدوار. ولكن عزيز غير ذلك ومن البلية أن يكون الرأي في يد من يملكه دون من يبصره. وان قارن عزيز بين دوره في (خلي بالك من اميلي) ودوره في (دخول الحمّام مش زي خروجه) أو بين دوره في (عندك حاجة تبلّغ عنها) وبين دوره في (القرية الحمراء) لَظَهرت له الحقيقة ناصعة كالشمس ولتمسّك بالأدوار التي تليق به.

(عيبه الرابع) : وعيبه الرابع . وهو في نظرنا أكبر عيوبه هو اعتقاده بعد كل ذلك في قوة إرادته . في كفاءته لأن يكون مديراً أو لأن يمثل كل دور مهم وفي اهتدائه إلى السبيل السوي الذي يصل به لتحقيق أمله . وينسب خيبته إلى صروف الدهر وتقلّبات الأيام.

رأي في روز اليوسف :

وقد كانت روزا اليوسف تلميذة عزيز وممثلته الأولى باعترافها واعتراف النقاد. ونشاطه في الفودفيل في هذه الفترة لا يمكن ان ينفصل عن نشاطها. ولذا لمن المفيد حقاً ان نقتبس أيضاً رأي محمد تيمور فيها. قال تيمور(٣٥) :

قليل جداً عدد ممثلاتنا القادرات وأقل منهنّ عدد اللواتي يمثلن من أجل الفن. وروزا اليوسف من بين الممثلات اللواتي جمعن بين القدرة والغرام بالفن. فهي من ممثلات الدرجة الأولى بمصر. بيد أن شهرتها الكبيرة كانت في طي الخفاء بل ولبثت كذلك عهداً طويلاً إلى أن وقع عليها نظر ممثلنا العبقري عزيز عيد ورأى فيها تلك القوة الكامنة في نفسها أو تلك القوة التي كاد أن يقضي عليها تعسُّف المديرين الجدّيين فأخذ بناصرها وأعلى شأنها وجعلها تمثل الأدوار التي توافق طبيعتها فنبغت في أدوار الفودفيل حتى لقّبها محررو الصحف (الفودفيلية الحسناء) . ولكن روزا اليوسف وان ظن فيها الجمهور انها لا تجيد غير أدوار الكوميدي والفودفيل فهي قادرة على تمثيل أدوار الكوميدي دراماتيك الدرام ولكنها تعجز عن تمثيل التراجيدي لأنها لم تخلق لهذه الأدوار ونظرة منا لجسمها الصغير وصوتها الناعم تثبت لنا صحة ما نقول.

ميزاتهـــا :

لروزا اليوسف اربع ميزات كبيرات لا نغالي لو قلنا اننا لم نجدها في غيرها من الممثلات. فأولى ميزاتها حبها الكبير للفن وتفانيها في خدمته فهي تعمل من اجل الفن ولا تخدم سواه. وثاني ميزاتها رشاقتها الكبيرة على المسرح. ولهذا يصح ان نقول عنها انها اكبر الممثلات الشرقيات اتقاناً للأدوار الأوروباوية. وثالث ميزاتها فهمها للادوار التي تمثلها ولهذا لا تخرج ادوارها على طريقة واحدة. ونظرة منا لدورها في (بائعة الخبز) ثم لدورها في (خلي بالك من اميلي) ثم لدورها في (القرية الحمراء) ثم لدورها في (دخول الحمام) تثبت لنا انها قادرة على فهم ادوارها واخراجها على المسرح كما يتطلب المؤلف أو المعرّب. لقد كانت روزا في (بائعة الخبز) فتاة افرنكية اضناها مرض السل وكانت في (خلي بالك من اميلي) تلك الفتاة الرشيقة اللعوب. وكانت في (القرية الحمراء) تلك القروية المصرية الساذجة. وفي (دخول الحمام) فتاة من ساكنات القاهرة التي يصح ان تطلق عليهن لفظة (شلق). وهنا يظهر للقارئ الكريم كيف تقلبت ممثلتنا القادرة في هذه الادوار وكيف وصلت لان تلبس لكل دور لبوسه. ورابع ميزاتها صوتها العذب الذي تتخلله الرعشة الناعمة وقد ظن بعض النقاد انها من ذوات الصوت الضعيف وكان الاجدر بهم ان يقولوا انها من ذوات الصوت الناعم الحنون. وياحبذا لو شاهدنا ممثلتنا القادرة تمثل دوراً ذا عواطف فياضة حتى تتفق نغمة صوتها مع رقة عواطفها وتكون قد بلغت بذلك شيئاً جديداً لم تسبقها اليه غير الآنسة ماري ابراهيم في دور (عزة) برواية (عزة بنت الخليفة).

عيوبـــــها :

أول عيب يؤخذ على ممثلتنا القادرة هو تفانيها في تمثيل الادوار الافرنكية تفانياً يحدوها على ان تكره تمثيل



بديع خيري .

الادوار البلدية المصرية وخير لروزا ان تمثل النوعين بعد ان ظهر لها وللجمهور أيضاً اتقانها في دوريها في (القرية الحمراء) و(دخول الحمام).

لماذا تأبى ممثلتنا تمثيل الادوار المصرية مع ان روحها اكثر اتصالاً بهذه الادوار من الادوار الافرنكية. ونحن لا نرجو الا ان تصلح روزا هذا العيب وما اصلاحه بالشيء العسير.

وثاني عيوبها انها لا تصلح لتمثيل التراجيدي وذلك لصغر جسمها وحنان صوتها الناعم ولقد وقفت روزا على هذا العيب ولهذا تراها تحجم عن تمثيل هذا النوع من الروايات ولا يغيب عن فكر القارئ اني لا أقصد إلاّ التراجيدي. اما الدرام والكوميدي دراماتيك فلروزا قسط كبير فيها والدليل اتقانها دورها في رواية (قبلة في الظلام) والرواية من نوع الجنيول . والجنيول عبارة عن الفظائع والصراخ والاندهاش والانفعالات التي تتطلبها الدرام والكوميدي دراماتيك احياناً.

مجهودها التمثيلي :

الطور الأول : احترفت روزا اليوسف التمثيل في شركة التمثيل العربي أيام تياترو عبد العزيز ولبثت تمثل في هذه الشركة الادوار الصغيرة دون ان يلتفت اليها من الممثلين من يهتم بإعلاء شأنها والوقوف على قوتها التمثيلية ثم انتقلت الشركة الى دار التمثيل العربي. بيد أن روزا انفصلت عنها ولم تعد للتمثيل إلاّ ايام كان جورج ابيض في الكازينو دي باري ولبثت عهداً طويلاً لا يعرف الجمهور عنها شيئاً الى ان ساقت الظروف اليها دور (الاميرالة) في رواية (عواطف البنين) وشاهدتها تمثل الدور وقد اتقنته اتقاناً كبيرا فقلت لنفسي : لم تعيش هذه الفتاة في الظلام. ظلام التمثيل. لا يسمع بها احد ولا تراها العيون إلاّ في الادوار الصغيرة التي لا تخرج عن دائرة (الكمبارس)؟

ثم اتفق جورج ابيض مع المرحوم الشيخ سلامه حجازي وكونا فرقة ابيض وحجازي وانضم اليه عزيز عيد ومثلوا في برنتانيا عهداً طويلاً والفرصة بعيدة عن روزا لاظهار براعتها ومواهبها. ووقع الخلاف بين عزيز عيد والشيخ انفصل على أثره وكون جوقه الجديد ومثل فيه روايات الفودفيل. ورأينا روزا تبذ الكثيرات من الممثلات وتمثل ادوار الرشاقة وكانت فيها آية من الابداع والاتقان.

الشطر الثاني :

هنا يحسن بنا ان نشكر عزيز افندي عيد لوقوفه على حقيقة روزا اليوسف وقوتها الكامنة فهو الذي علمها ودربها فوقفت على المسرح تمثل الادوار الجديدة بشكل جديد واتقان مدهش. لقد زفّ عزيز افندي عيد الى التمثيل عروساً جديدة كانت في عالم الخفاء فظهرت فجأة الى عالم النور تحمل معها بضاعته التمثيلية الخالية من العيوب.

مثلت روزا مع عزيز عيد في كل مرة جمع فيها جوقة للتمثيل . مثلت معه في برنتانيا في الشانزليزية ثم في دار التمثيل العربي في الرينسانس ثم في الكازينو ثم في الابيه دي روز ثم مع ابيض . ثم سافرت معه الى الاسكندرية وستمثل معه قريباً في دار التمثيل العربي. ابتدأت بتمثيل ادوار الفودفيل فأتقنت جميع ادوارها في رواية (عندك حاجة تبلغ عنها) و(خلي بالك من أميلي). و(ضربة مقرعة) اتقاناً كبيراً وظهرت فيها بمظهر لم تظهر به ممثلة اخرى ثم مثلت دور جوزيت في رواية (مدموازيل جوزيت امراتي) واخرجت للناس نوعاً جديداً . نوع الادوار الكوميدية التي تختلف اختلافاً كبيراً عن الروايات الفودفيلية. وكانت في الدور مثال العفة والطهارة والسذاجة وما هذا الدور الا من ادوارها الشهيرة. ثم مثلت دوراً قصيراً في رواية (القرية الحمراء) أثبتت به قدرتها الكبيرة في تمثيل الادوار المصرية التي لا تحب تمثيلها ثم بلغت الغاية القصوى بل الغاية التي ليس وراءها غاية في دورها برواية (دخول الحمام مش زي خروجه). ثم انضم عزيز

عيد لجوق ابيض ومثلت روزا في رواية كين دور (آن دامي) ولكنها كانت في دور (بيتسول) اكثر اتقاناً بل بلغت فيه اكبر غاية ثم مثلت في (الشعلة) دور (مدام فلت) فأدهشت الجمهور اذ ظهرت فيه بمظهر الممثلة القادرة التي لا تعجز عن تمثيل الدرام والكوميدي دراماتيك. لقد كانت روزا في الفصل الثاني من الرواية مثالاً للاتقان والابداع. فصفق لها الجمهور واعترف بقدرة الممثلة الكبيرة ووقف على قيمة مجهودها الفني ومجهود روزا كبير وعظيم.

ثم انفصل عزيز عن ابيض وسافر للاسكندرية ومثلت معه روزا ولم تفعل غير اعادة ادوارها القديمة وانحل هناك الجوق وعادت الى مصر وظلت بلا عمل الى ان الف عزيز افندي عيد جوقه الجديد ويبدأ بالتمثيل في دار التمثيل العربي قريباً.

هذا هو مجهود رزوا وعهد احترافها بالتمثيل قصير. ولكنها سبقت فيه الكثيرات من الممثلات وفي هذا الكفاية والمستقبل امامها كبير واسع الارجاء والروايات عديدة وروزا من الممثلات اللواتي تعشقن الفن ولا يعملن الا من اجل الفن فلننتظر قليلاً وسوف لا نمل من الانتظار ●

(انتهى)

الهوامش

١ - المقطم ٢ آب (اغسطس) ١٩١٧.
٢ - نفسه ١٠ آب (اغسطس) ١٩١٧.
٣ - نفسه ٢٣ آب (أغسطس) ١٩١٧.
٤ - نفسه ٢٩ آب (اغسطس) ١٩١٧.
٥ - نفسه ٤ أيلول (سبتمبر) ١٩١٧.
٦ - نفسه ٨ أيلول (سبتمبر) ١٩١٧.
٧ - نفسه ١١ أيلول (سبتمبر) ١٩١٧.
٨ - انظر ذكريات روز اليوسف ص ص ٢٨-٣٠.
٩ - المقطم ١٩ كانون الثاني (يناير) ١٩١٨.
١٠ - نفسه ٢٤ كانون الثاني (يناير) ١٩١٨.
١١ - نفسه ٥ شباط (فبراير) وذكريات روز اليوسف ص ص ٣٦-٣٧.
١٢ - نفسه ٧ شباط (فبراير) ١٩١٨.
١٣ - نفسه ١٤ شباط (فبراير) ١٩١٨.
١٤ - نفسه ٢١ تموز (يوليو) وذكريات روز اليوسف ص ص ٣١-٣٢.
١٥ - المقطم ١٧ تشرين الأول (أوكتوبر) ١٩١٨.
١٦ - انظر المقطم ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨، ١٠ كانون الثاني (يناير) ١٩١٩، وكتاب «المسرح المصري» لمحمد تيمور ص ١٠٤.
١٧ - المقطم ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨.
١٨ - انظر مذكرات الريحاني ص ص ١١٤-١١٥.
١٩ - انظر الوطن والاهرام ٢٦ شباط (فبراير) ١٩١٩. وقد استمر الاعلان عن المسرحية حتى ٨ آذار (مارس). وانظر ايضاً مذكرات الريحاني ص ١٩٩.
٢٠ - مذكرات الريحاني ص ١٢٠.
٢١ - الاهرام ٣ أيار (مايو) ١٩٢٠.
٢٢ - المسرح المصري لمحمد تيمور ص ٢٥٨.
٢٣ - الاهرام ١٥ حتى ١٨ أيار (مايو) ١٩٢٠.
٢٤ - مذكرات الريحاني ص ١٢٣.
٢٥ - الاهرام ١٠ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٠.
٢٦ - نفسه ١١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٠.
٢٧ - نفسه ١٣ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٢٠.
٢٨ - المقطم ١٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٢١.
٢٩ - نفسه.
٣٠ - انظر المقطم بين هذين التاريخين.
٣١ - المقطم بين ٢١ و ٢٤ تموز (يوليو) ١٩٢١.
٣٢ - المقطم ٤ آب (اغسطس) ١٩٢١.
٣٣ - المقطم بين ٢٨ آب (اغسطس) و ٨ تشرين الأول (أوكتوبر) ١٩٢١.
٣٤ - ذكريات روز اليوسف ص ١٦-١٧.
٣٥ - حياتنا التمثيلية ص ص ١٦٨-١٧٣.



الشيخ نسيب مكارم

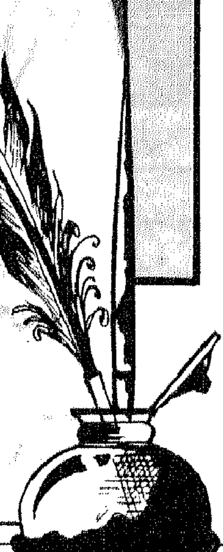
شَاعر الخَط وَاللّون



د. سامي مكارم



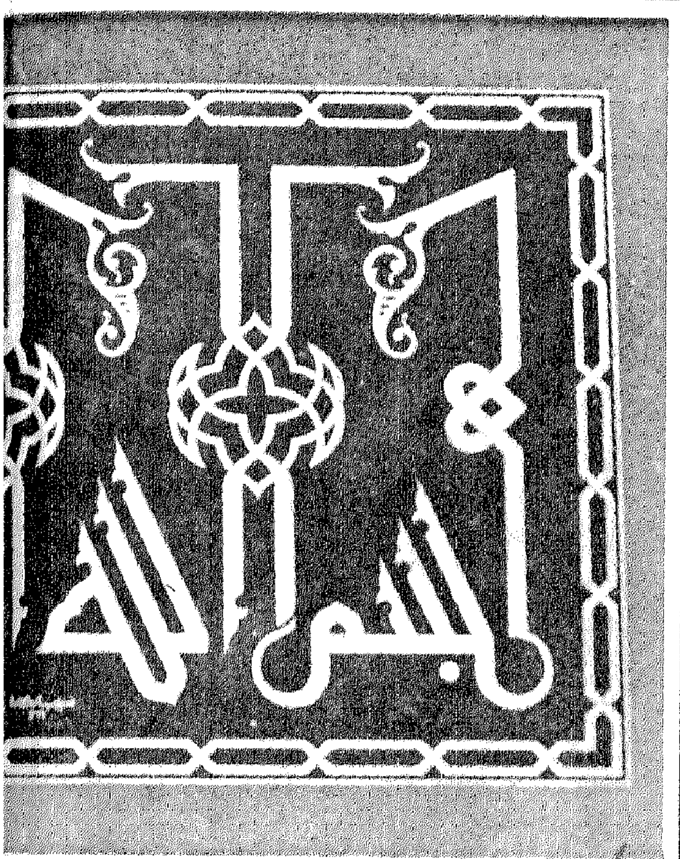
صورة رسمية بالأوسمة.



● جعل الشيخ نسيب مكارم من الخط تعبيراً عن حقيقته. ومظهراً لروحه المتدفقة بالجمال. المتطلعة الخير. الساعية إلى التحقق بالواحد الأحد. فالخط عنده امتداد لروحه المتحققة. وتعبير عن كينونته التي لا تقصد إلا إلى الجمال. والخط عنده لا يتعرف في جوهر حقيقته بأين. ولا بنسبية الحيّز ومصطلحات الحجم فظهوره بمظهر الصغر أم بمظهر الكبر عنده سواء فما هذان المظهران إلا آلة يتبدى بها الجمال من حيث النظرة الواهمة للانسان. وقد حجبته مفاهيم الزمان والمكان. وحدده هذا الجسد الحقل الذي تبدو خلاله الروح لتفعل في عالم الجسم. حسب طاقة هذا الحقل الكثيف. فترقى به إلى ما يستطيع أن يستوعبه من الحق ويستلهمه من الجمال. لا فرق إذاً. ان كان الخط كبيراً في حجمه أم متناهياً في صغره. كلا المظهرين ينم عن وحدة هذا الفن وحقيقة هذا الجمال. وكلاهما يبدي ليونة هيولى الابداع إذ يتشخص هذا الابداع في الحسّ ويتصور في المتى ويتجسد في الأين. ذلك ما حدا بالشيخ نسيب مكارم ان يكتب الكتابة الصغيرة الدقيقة وان يخط الجمل الجليلة الجسيمة.

قضى بعض شبابه ولبنان جزء من الدولة العثمانية. ورأى ما كان عليه الحكام من ظلم واستبداد وطغيان. فراعه ذلك وثار عليه. فلما قامت الحركات الاصلاحية هلل لها وكبّر. أُعلن الدستور العثماني. فظن. كما ظن غيره من الناس. ان فيه خلاصاً من الظلم ونجاةً من الاستعباد. فيأتي ببيضة من الرخام بحجم بيضة الدجاج. والبيضة رمز الحياة المتجددة. ويركزها على لولب يديرها بسهولة. ويركز اللولب على ظهر نسر من البرونز باسط جناحيه. والنسر ملك الطير. ويقيم النسر على اسطوانة عمودية من مادة تشبه الحجر المجزّع. توّج الشيخ البيضة بالطغراء السلطانية وأحاطها بهالة بيضاء. ثم كتب فذلكة أثبت فيها اسمه ودعاء للسلطان والدولة العثمانية والسبب الذي حدا به إلى صنع هذه الرائعة. ثم كتب الدستور العثماني باللغتين التركية والعربية. ثم اثبت تاريخ اعلان الدستور للمرة الأولى ثم تاريخ اعلانه للمرة الثانية. ثم كتب عبارة شرح فيها ما رمز إليه من حمل النسر للبيضة ودوران البيضة على نفسها. وتتلو هذه العبارة قصيدتان أولاهما في مدح الدستور وثانيهما في مدح الجيش[1]. ثم اثبت تاريخ كتابة هذا الأثر. وبعد ذلك رسم خريطة الدولة العثمانية واسماء أمهات المدن فيها. وبلغت الكلمات المكتوبة على تلك البيضة. عدا الطغراء والخريطة. نحو عشرة آلاف كلمة كتبت بسطر واحد لولبي الشكل. ويقول الشيخ نسيب ان المدة التي صرفها في كتابة هذا الأثر تقارب السنتين. أما الأقلام التي استعملها فنحو ألف قلم.

وثار العرب على الأتراك بقيادة الشريف حسين. ودخل الأمير فيصل بن الحسين دمشق. فيقدم الفنان العربي لفيصل حبة قمح كتب عليها ما يقارب مئة وعشر كلمات. فتأثر فيصل بهذه الرائعة أبلغ التأثر وطلب إلى

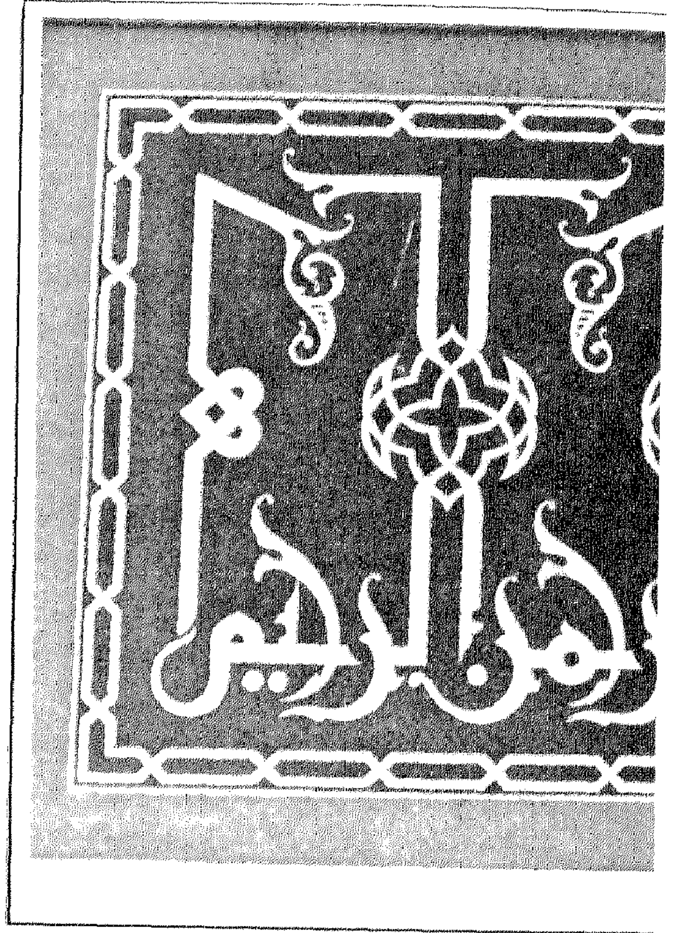


«بسم الله الرحمن الرحيم» لوحة بالكوفي.

الشيخ نسيب أن يكون خطاطه الفخري وخلع عليه ثوبا ملكياً كاملاً. كذلك رافق الشيخ نسيب أحداث العالم العربي فسجل هذه الأحداث بتحفه الفنية الدقيقة من سوريا إلى العراق إلى مصر إلى المملكة العربية السعودية إلى غير ذلك من بلاد العرب. ولم ينس لبنان بطبيعة الحال. فقد حفر الشيخ الفنان نشيده الوطني على قلب خاتم من ذهب مساحته ٧×٥٫٥ ملم وقد عرض هذا الخاتم في معرض نيويورك العالمي سنة ١٩٣٩. كذلك رسم على احد وجهي حبة أرزّ من رخام آثار بعلبك كما تبدو الآن

وعلى الوجه الثاني الهياكل قبل أن تتهدم. وكأنه أراد بذلك أن يُظهر عظمة الله في الإنسان الذي توصل ان يبي هذه الهياكل متناهية في الضخامة آناً. ومتناهيةً في الدقة والصغر آناً آخر. كذلك حفر على حبة أرزٍ من فضة خريطة لبنان بانهاره ومدنه وأنزل الحفر ذهباً نافراً. حتى ان حلقات الواو والصاد والطاء والميم في كلمات بيروت وصيداً وصور وطرابلس وفي توقيعه «مكارم» واضحة غير مطموسة.

وفي سنة ١٩٣٩ أقيم معرض نيويورك العالمي فارسل الشيخ نسيب إلى جناح لبنان في المعرض بعض آثاره الفنية. كما صنع خصيصاً للمعرض حبة أرزٍ من فضة حفر



عليها خريطة الولايات المتحدة الأميركية بأسماء مدنها الكبرى. ونزّل الحفر ذهباً نافراً. وقد قدّرت هذه الرائعة في المعرض بمئة وخمسين ألف دولار. ونال الشيخ نسيب على هذه الآثار التي عرضها في المعرض جائزة الشرف.

واحتلت النشاطات الحضارية الأخرى مكانها الواسع في قلبه أيضاً: المعرفة والسلام و مضيلة والدين والعزة والجهاد في سبيل الحق والصناعة والعلم والشعر والأدب. فغناها هذا الفنان بريشته المرهفة. حفر سورة الفاتحة وسورة الاخلاص وسورة الفلق وسورة الناس على حبات الأرزّ كما حفر على حبة أرزٍ أخرى خطاب أبي بكر الصديق يوم تولى الخلافة. ويؤخذ الفنان بالثورة الصناعية فيكتب على حبة أرز بعض الجمل المأثورة لهنري فورد ويرسم أولى ثلاث سيارات من صناعته. أما الشعر فقد دوّن منه كثيراً من القصائد على حبات الأرزّ لفكتور هيجو وشكسبير وطمسون وغيرهم من الشعراء العالميين. ولا ينسى الشيخ الفنان العلم والمعرفة فهو يمجدهما على حبة قمح أهداها لمتحف الجامعة الأميركية في بيروت (الكلية السورية الانجيلية آنذاك) وذلك سنة ١٩١٩، بصفة كون هذا الصرح معهداً للعلم والثقافة كان وما زال له الفضل الجم على العالم العربي[٢].

الشيخ مكارم وصوفية الفن

أما لوحات الشيخ نسيب الكبيرة فكانت لا تمتاز بإتقان أصول الحروف وحسب، وانما تمتاز كذلك بجمال التركيب وبما توحيه من حقائق تجريدية وما تعبّره من صور تتجاوز الخط إلى المعنى فالى ما هو فوق المعنى من بعد روحيٍ الهي كانت نتيجة لرؤى هذا الفنان ولجمال خطوطه وبديع تراكيبه وانتقاء ألوانه. فاللون عند الشيخ نسيب مكارم ظاهرة روحانية هي نتيجة لتفاعله مع الطبيعة التي كان يعشقها ومع الله الواحد الأحد الذي كان يحبه ويوحده. وهكذا أعطى هذا الفنان الخط العربي. بما أضفى عليه من صوفيةٍ ومن تعالٍ إلى الحقيقة الكونية. زخماً ورونقاً وسحراً جعل الخط العربي يواصل مسيرته الفنية. بعد ان حرم هذا الفن من كثير من مبدعيه على اثر إحلال الحرف اللاتيني في تركيا محل الحرف العربي. وقد اشتهر الفنانون الأتراك قبل هذا الحدث بابداعهم في الخط وبالغنى الفني الذي اسبغوه على هذا الفن الرئيسي في الاسلام. وهذا ما حدا بالخطاط المصري الكبير الأستاذ أحمد عبد القادر. استاذ الخط العربي في مدرسة تحسين الخطوط العربية في القاهرة عند زيارته مع وفدٍ من الخطاطين العرب الشيخ نسيباً في بيته في عيتات ان يقول له بعد ان قبّل يده اجلالاً واعجاباً: «لقد انتقلت استانبول إلى هنا».

معرض بعبدا خاتمة أعماله وحياته

في سنة ١٩٦٨ زاره الأب انطوان ضو والأب جورج رحمة الانطونيان. فاعجبا بفن الشيخ نسيب مكارم. ونظراً إلى ما أبدعته يداه من جمال. فرأيا ان بين الله وهذا الانسان علاقة وثيقة بدت فيما أبدعته ريشته من

جمال تمخض عن محبة خالصة تعدت كل أنانية إلى هذه الوحدانية الشاملة لكل شيء . فيقترحان اقامة معرض له في المعهد الانطوني في بعبدا . حيث تعرض لوحات خطّ فيها هذا الفنان آيات من القرآن الكريم وجملاً اختارها من الأحاديث الشريفة أو من الأقوال المأثورة.

غير ان الشيخ الفنان لم يكن يسعى لأي تقدير ولم يكن يحب أن يتعرض لأي إطراء . فذلك قد يقوّي فيه الأنا التي طالما سعى إلى اذلالها . وحسبه من فنه ذلك التجاوب بين لوحاته ونفسه التواقة إلى الجمال . فهو قد رغب في الانفراد بنفسه وفنه بعد ان زهد بما في أيدي الناس . ولكنه يرضى في الأخير بعد إلحاح . ويأخذ بالاستعداد لذلك المعرض أخذ الفنان الحق الذي أعطى جل سعيه إلى تحقيق الجمال في اسمى معانيه . ها هو قد أشرف على الثمانين من عمره . ولكن بريق عينيه ينبئ بما لديه من رؤى ومحبة وعزم يهون عنده كل صعب .

غير ان كبر السن والجهاد المتواصل والإرهاق والكتابة الدقيقة قد أوهنت أعصاب يده اليمنى . فهي ترتعش كلما حاول أن يمسك بالقلم . وقد زاد هذا الارتعاش في المدة الأخيرة وكاد لا يقوى على جرّ القلم . فكيف له ان يبدع وينفح معرضه هذا بروائع جديدة . انه لا يرضى أن يقتصر المعرض على نتاجه القديم . فالفنان الحق . بما لديه من رؤى وأخيلة وأفكار وعواطف وعقل وأحاسيس وبما يبدعه من خطوط وألوان . انما هو محبة خالصة دائبة السعي دائمة الحركة حتى النفس الأخير . وأخذ هذا الفنان الشيخ يحضّر لمعرضه العتيد . رأى ان يده تكون أكثر ارتياحاً واسترخاء في الفجر أو قبل بزوغ الفجر . فاذا هو ينهض أبكر من عادته ، ويمسك بالقلم ويأخذ بالعمل . وكأن الصلوات التي كان يقوم بها ، والابتهال الذي كان يتوجه به إلى الواحد في هذه الساعات الهادئة من الليل ، كانت تهدئ أعصاب يده الواهنة فتعطيها قوة ونشاطاً وتزيد عزيمته عزيمةً تذلل كل صعب من أجل ابداع الفن واستنزال الجمال . وكان الشيخ الفنان . إذا ما تعبت يده وزاد ارتعاشها يمسك بها بيده اليسرى تعينها على الكتابة وتؤيدها على جرّ القلم . وأخذت الخطوط تنساب من يدي الفنان الشيخ لتتألف في تراكيب عجيبةٍ تشير . بما فيها من تناسب الحروف وانسجامها . وتكامل الألوان وتناغمها . إلى الوحدة الحق التي تنصهر فيها الآحاد وتتحد في هوية كلية لا وجود ألا وهو تعبير عن أحديتها . ولا حقيقة ألا وهي مظهر من مظاهر حقيقتها .

ولكن ذراعه اليسرى أخذت تؤلمه . وأخذ الألم يزداد ويشتد يوماً عن يوم . ولكن الشيخ لم يهن له عزم . ولم تضعف له شكيمة . فهو دائب على الإبداع . مستمر على استثارة وتملّك الجمال . ولكن الألم شديد مبرّح . عاد لا يقوى على رفع يسراه تعين يمناه على جرّ القلم . ولكن الشيخ لا يلقي السلاح . فهو يحمل يسراه بيمناه حملاً . ويضعها برفق على المنضدة لتسند بدورها يمناه تهدئ من ارتعاشها وتعينها على مواصلة الإبداع وإفاضة الجمال .

يوم السبت في التاسع والعشرين من شهر نوار سنة ١٩٧١ افتتح وزير التربية الوطنية والفنون الجميلة . وكان آنذاك الدكتور نجيب أبي حيدر . ممثلاً رئيس الجمهورية معرض أعمال الشيخ نسيب مكارم في المعهد الأنطوني في بعبدا . وقد قدّر القيّمون على المعرض الحضور في ذلك اليوم بأكثر من ألف وخمس مئة زائر جاءوا ليشاهدوا هذه الأعمال التي تجسد الجمال القدسي . ولينظروا إلى هذا الرجل الذي أبدعت أنامله هذه الآيات من الفن . ولكن الشيخ الفنان لم تسمح له وطأة المرض . وقد ثقلت عليه . ان يرى المعرض الذي عمل على تحقيقه ليل نهار . وذهب ممثل رئيس الجمهورية بعد افتتاح المعرض في موكب رسمي إلى بيت الشيخ نسيب عند ابنه كاتب هذا المقال في بيروت حيث كان ينزل الشيخ الفنان قريباً من الأطباء . وهناك قلّده ممثل رئيس الجمهورية وسام الأرز من رتبة ضابط .

بعد ستة أيام من هذا التقدير قضى الشيخ نسيب مكارم نحبه . كان ذلك مساء الجمعة في ٤ حزيران سنة ١٩٧١ . وفي اليوم التالي . أي في يوم السبت الأول بعد افتتاح معرضه . وبينما كانت وفود الزائرين تؤم المعرض في بعبدا . أقيم له في بلدته عيتات مأتم حافل بالألوف من المعجبين بفنه المبدع وبخلقه الرفيع وبشخصه الأنيس يبكونه ويبكون فيه هذه البسمة المحببة . وهذه النظرة المتألقة بالروحانية . وهذه الأنامل التي أبدعت روائع الفن والجمال . وبقي المعرض مزاراً للألوف من المشاهدين المعجبين قرابة ستة أسابيع .

تقدير عربي وعالمي

وقف الشيخ نسيب حياته للفن والجمال . ووقفها قبل كل شيء لمحبة الله . لم يكن يطمح إلى جاه ولا إلى شهرة ولا إلى مال . ولكن الجاه والشهرة جاءاه صاغرين . فلقد تحدث في فنه وخلقه الخاص والعام . وزينت لوحاته الدور والقصور وقلدته الدول والمجامع العلمية والفنية أوسمتها وبراءاتها . وخلع عليه الملوك والأمراء الخلع . واطنبت فيه الصحف والمجلات والكتب . قلدته الدولة العثمانية الوسام



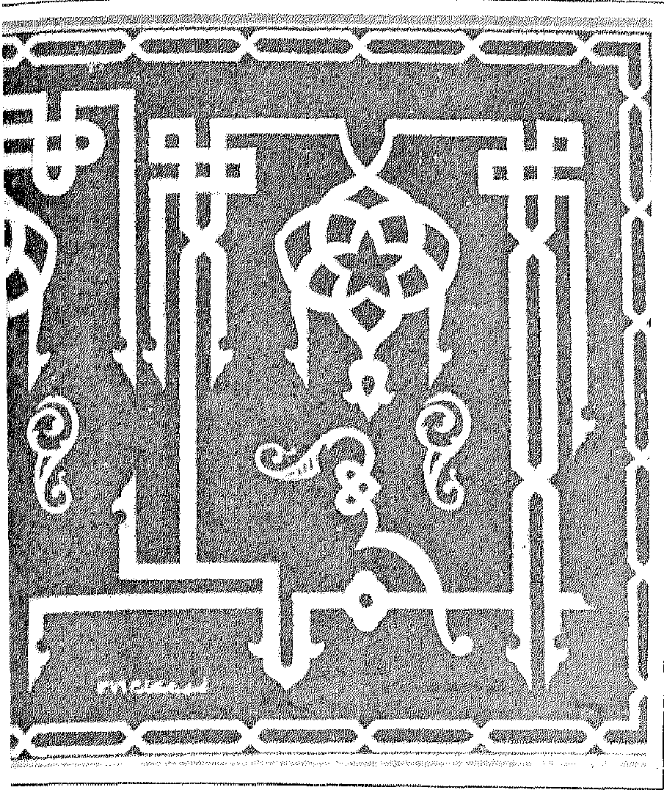
الشيخ نسيب يحمل سميه وحفيده في أواخر عمره.

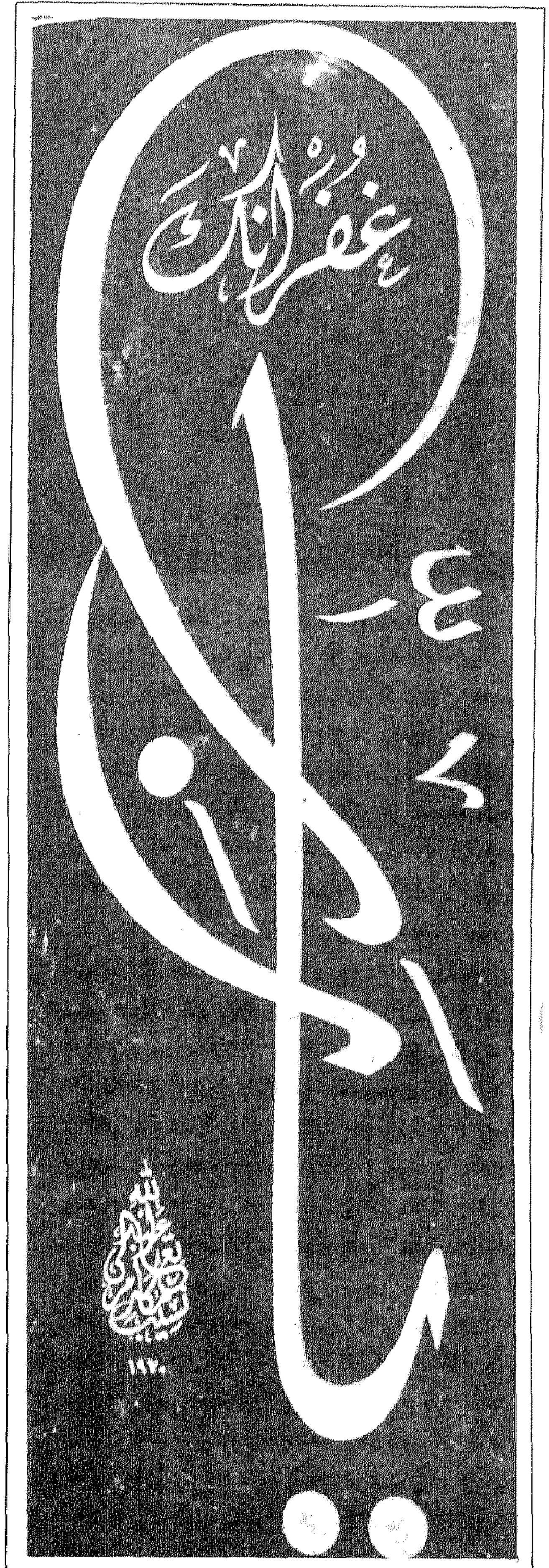
المجيدي. ودولة شرقي الأردن وسام الاستقلال العالي الشأن. وأمر له الملك فيصل بن الحسين عندما كان ملكاً على سوريا بوسام الفنون الجميلة. وقلدته فرنسا المدالية العسكرية الذهبية. ووسام المعارف والفنون الجميلة الفضي. ووسام المعارف والفنون الجميلة الذهبي. وقلّده لبنان وسام الاستحقاق الذهبي. ووسام الأرز من رتبة فارس. ووسام الأرز من رتبة ضابط. عدا المداليات والأوسمة والبراءات الأخرى. وقد أنافت على الخمسين. كذلك خلع عليه الشريف حسين عباءته المذهبة وكوفيته وعقاله وخلع عليه الأمير زيد بن الحسين خنجره. وقد عينه إلى ذلك المجمع العلمي الدولي عضواً فيه. وكذلك أكاديمية فيكتور هوغو. والأكاديمية اللاتينية. وجمعية النهضة الوطنية الفرنسية. والجمعية الوطنية الفرنسية للمدالية العسكرية. هذا وقد عينته الجمهورية اللبنانية خطاطاً فخرياً لها. وكذلك عينه الملك عبد الله ابن الحسين. والملك فيصل بن الحسين. والملك غازي الأول. والشيخ أحمد الجابر الصباح أمير دولة الكويت.

الشيخ نسيب: فن وانسانية

ولقد أصاب الشيخ نسيب في أعماله الفنية. إلى جانب الشهرة والجاه. قسطاً من المال أعانه على إعالة أسرته وعلى ابتياع قطعة من الأرض في عيتات بنى على بعضها بيتاً اغدق عليه كثيراً من ذوقه وفنه. وجعل من بعضها الآخر بستاناً اتخذه مستجماً له من عناء الكد والاجتهاد. أما ما تبقى من ماله فكان ينفقه في سبيل الله. كان إذا جاءه سائل يغدق عليه العطاء، وهو يجهش بالبكاء. وكان عندما يلفته أحد الناس إلى مبالغته في الاحسان يجيبه قائلاً: «إن الذي أوصلني إلى هنا لن يتخلّى عني.». لقد عاهد الله على محبته لم يتخلّ عن الله يوماً. ولم يتخلّ الله عنه يوماً. وكان دائماً يردد هذا الدعاء: «اللهم لا تجعلني غنياً فأنساك. ولا فقيراً فأتحير.».

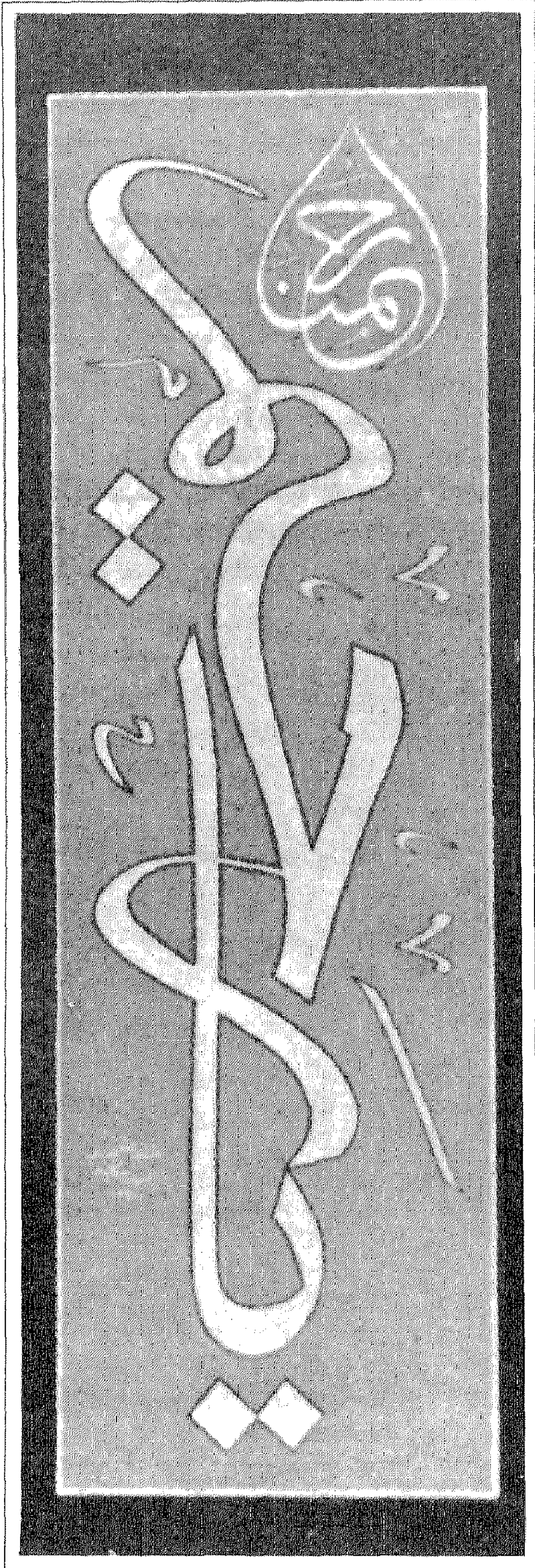
كان الخط عند الشيخ نسيب مكارم فناً متعالياً. يشير إلى الألوهة ويدل على الوحدانية. وكان الخط عنده تعبيراً صوفياً. فهو في تناسب أجزائه وتناغمها. وتجانس ألوانه وتمازجها. وتكامل حروفه وتوافقها. وفي زخم حركة خطوطه واستقرارها. وتعاليها وشموخها. واستداراتها وتكثّفها. انما يعبّر عن جلال الله وجماله. وجبروته ورأفته. وتعاليه واحاطته. وعزته ورحمته. واقتداره وحدبه. وهو. في توحيد حروفه على استقلالها. واجتماع خطوطه على افتراقها. انما يفصح عن وحدة هذا الوجود حيث يسعى الجزئي إلى الكلي. ويقصد الكثيف إلى اللطيف. وتتحد الآحاد بالواحد. ان التوجه. بما فيه من جهاد ضد النفس الامارة. ومن سعي لتحرير الذات من الأنانية. وبما يتطلبه من توبة وتألم ونَصَب. ومن اجتهاد في سبيل المعرفة. كل ذلك انما يحدث في المتوجه توتراً ومعاناة يظهران. عند هذا الفنان الصوفي. في تلك الخطوط المستقيمة المزواة التي لا ترتفع إلا لتنحدر ولا تستقيم إلا لتنحرف ولا تنطق إلا لتنعكس وتتكسر.

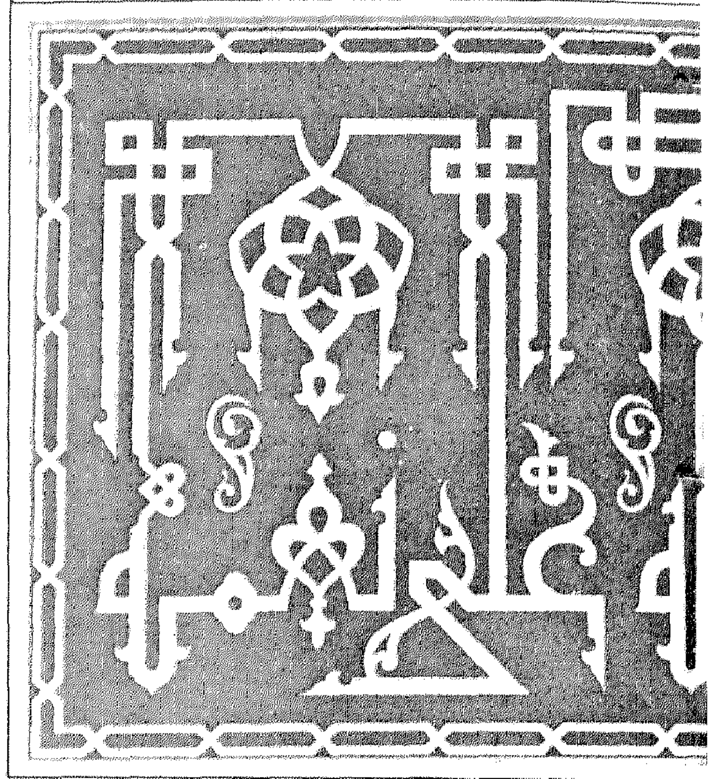






انها تصور تلك المعاناة التي يختبرها المتوجه في بدء توجّهه إلى الله . ولكنه ما ان يستغرق في المعرفة ، وما ان يتحرر من الأنا الصغرى ويقترب إلى الأنا الكبرى ، حتى تتبدّل حالته تلك ، فإذا هو مستقر بعد قلق .آمن بعد خوف ، قد حلت عليه السكينة وطغت على وجهه الطمأنينة وبدا على عينيه







الارتياح. وهكذا تتحول خطوط هذا الفنان المتوجه إلى استدارات مسترخيةٍ مطمئنة لا توتّر فيها ولا قلق، فتنساب في استداراتها انسياباً فيه كثير من السكينة والسلام والاطمئنان. هكذا يصور الشيخ نسيب في فنه الطريق التي يسلكها السالك في مسيرته نحو الواحد الأحد كما في لوحته

الكوفية «بسم الله الرحمن الرحيم».

ان هذا الكون مظهر من الله نور الأنوار الذي لا حد له ولا نهاية، بل هو الشامل لكل شيء والحاوي لكل حقيقة والقادر المهيمن الجبار الذي تجلى نوراً ورحمة، فكان الكون – والانسان أجلى مظاهره – يطل على الألوهة من خلال حقيقتين اثنتين هما النور المتمثل بالمعرفة، والرحمة المتمثلة بالمحبة. فاذا بلوحته «يا رب يا نور الأنوار رحمتك» وقد مثل الشيخ نسيب فيها احدية الله ولا نهايته بعلامة النهاية في عبارة «يا رب». وقد جعل هذه العلامة عمودية بدلاً من أن تكون، كما هو متفق عليه، أفقية، للدلالة على ان هذه اللانهاية الإلهية تختلف عن أية لا نهاية أخرى. أما حرف الراء في كلمة «رب» فقد جعله الفنان على صورة السيف دلالةً على قدرة الله وسلطانه. أما النقطتان في أسفل اللوحة فتدلان على الحقيقتين الكليتين النور والرحمة المتمثلتين في الانسان بالمعرفة والمحبة. وهكذا يتقرب الانسان إلى الله النور الأزلي والمحبة والغفران باثنين: عقله وقلبه. فاذا ذنوب هذا الأنسان التي هي نتيجة انانيته تتلاشى أمام عظمة حضرة الواحد الأحد، وتسقط من وجوده الكلي امام رحمته ورضوانه، كما هو متمثّل في لوحته. «يا غافر الذنوب» حيث نرى كلمة «الذنوب» أصغر حجماً وقد كتبت في الأسفل. وهكذا يتوجّه الانسان ويصل إلى طمأنينة ترتفع به إلى حقيقته الأزلية، فينعم في ملكوت الله الأحدي.

أليس الله محبة شعشانية؟ كما صور «الله» في لوحته «الله محبة». أليس الوجود كله مجلي لمحبة الله؟ تلك المحبة الإلهية التي يتمثلها الشيخ الفنان وكأن الله، من واسع حبه، تنزّل رحمةً تجلت دمعةً إلهية فكانت هذا الوجود وبدا الله ربّ العالمين، كما في لوحته «الحمد لله رب العالمين»؟ واذا ابواب رحمة الله تتجلى أمام من تقبل هذه المحبة، فلجأ إلى الله مستعيذاً من نفسه الأمّارة لتستقر آفاق توجهاته، وتتوازى قواه الانسانية وتتعادل، وتنصب على باب معرفته؛ واذا هو يتوجه إلى اسمه الأعظم، لتنفتح أمامه الأبواب، واذا هذا الماخر عباب يم الحقيقة يستحيل إلى سفينة ينفتح أمامها خير الباب لتنطلق منها إلى ما لا نهاية له ولا حد. لقد تمثل هذا في لوحة الفنان التي على شكل السفينة: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم اللهم يا مفتح الأبواب افتح لنا خير الباب.».

مني الشيخ نسيب مكارم في آخر حياته بمرض عضال، أصاب ذراعه اليسرى، كما سبق القول، وظهر في رأسه. وكاد هذا المرض أن يحرمه نظره لولا ان المنية عاجلته. وقبل أن يتوفى بخمسة أيام، على ما أذكر، نظر إلى لوحة من لوحاته الأخيرة، فلم يستطع أن يركّز نظره. فرأى الخط خطين. ولكنه أعجب بما رأى، فخاطبني وهو تحت وطأة المرض: «ما أجمل ما أرى! غداً إذا قيّض لي الشفاء ستكون لوحة كهذا الذي أراه.». ولكن الله لم يقيض له أن يشفى، فمات واللوحة في مخيلته لم تنته. مات كما يموت الفنان الحق ●

(انتهى)

الهوامش

١ – القصيدتان من نظم الشاعر أمين آل ناصر الدين. (راجع نسيب مكارم)، «ترجمة حياتي»، العرفان، ج ٣- المجلد ١١ (تشرين الثاني، ١٩٢٥) ص ٢٨٨ صيدا: مطبعة العرفان ١٩٢٥.

٢– وتتضمن حبة القمح هذه ما يأتي:

فريضة المدح في حبة القمح.

مقدمة إلى متحف الكلية السورية الانجيلية في بيروت. تنويهاً بمالها من الفضل في خدمة العلم.

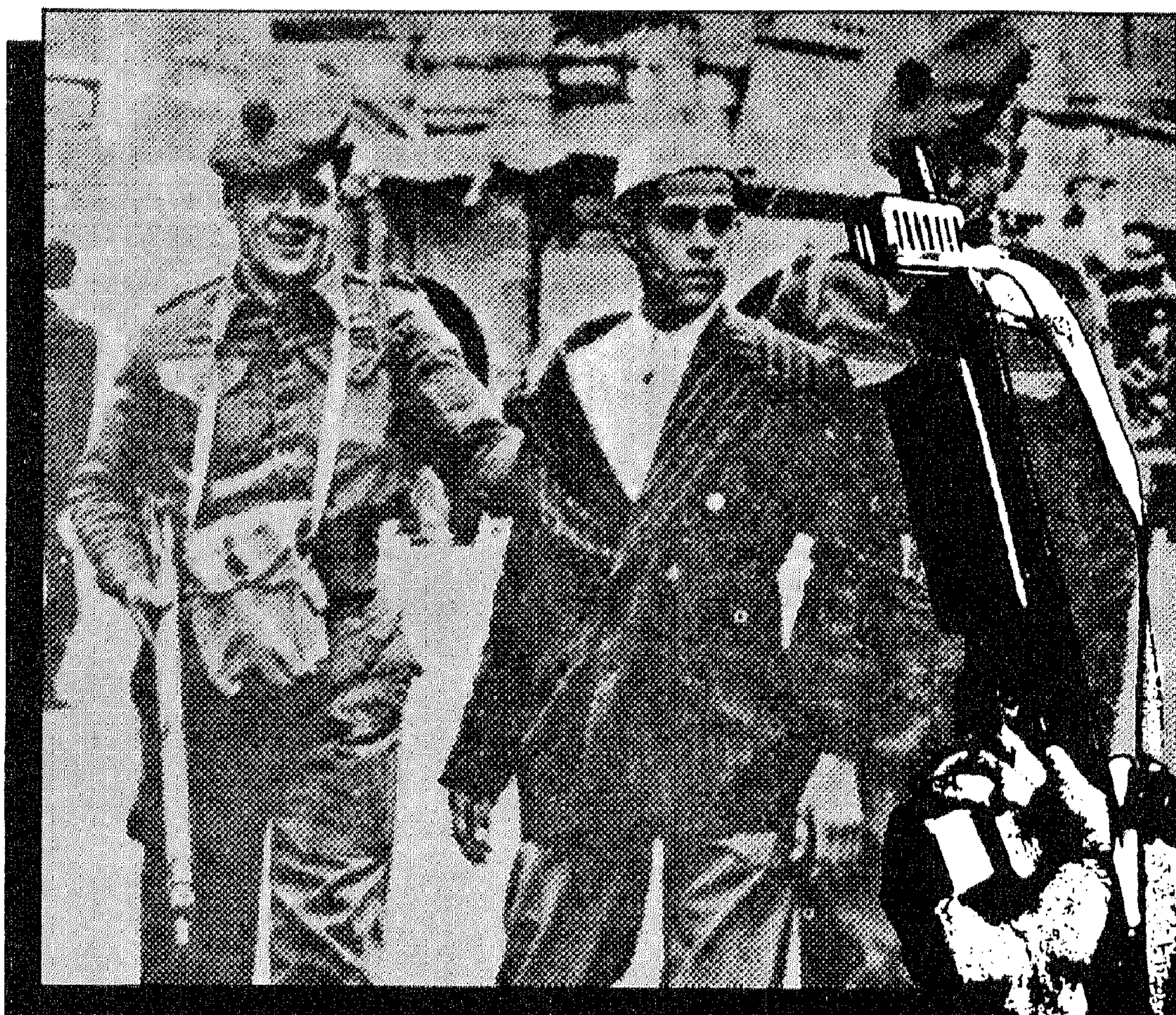
يا معهد العلم الصحيح تحية	من كل سوريّ لوردك ظامي
علمتنا معنى الحياة ولم تزل	تعطي بذور العلم والأقدام
وغرست في النشء الجديد خلائقاً	جاءت نتائجها بكل همام
واقت للآثار اسنى متحف	تنمو محاسنه مع الأيام
فاليك من خطي الدقيق هدية	صغرت اقدّمها مع الاعظام
هي لمحة سجلت فيها آية	من آي فضلك في ربوع الشام
لا زلت في هذي المواطن زاهراً	وعليك الف تحية وسلام

في ١ كانون الأول سنة ١٩١٩

نسيب سعيد مكّارم

لماذا اخفق الشعب الفلسطيني في وقف الهجمة الصهيونية ١٩٤٨ ؟

عبد القادر ياسين *



* عبد القادر ياسين: سكرتير تحرير «الكاتب الفلسطيني» دورية الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين. له كتب عديدة منها: «كفاح الشعب الفلسطيني حتى العام ١٩٤٨»، «الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٤٨ - ١٩٧٠»، «شبهات حول الثورة الفلسطينية». وله مقالات عديدة في كثير من المجلات الثقافية.

● تمخضت حرب ١٩٤٨ في فلسطين عن نكبة حقيقية للشعب العربي الفلسطيني ؛ اذ تحطم نظامه الاجتماعي ، وتمزق تكوينه الطبقي ، بعد أن تم للصهيونيين طرد أغلبية الشعب العربي الفلسطيني من بلاده ، في حين عاش من بقي منه عيشة ، يتفق كثير من الكتاب والباحثين ، على انها تضعهم في مصاف المواطنين من الدرجة الثالثة. وفقد الشعب العربي الفلسطيني أرضه ومصادر رزقه ومنازله ، وتبعثر في البلدان المجاورة والمهاجر البعيدة ، بحثاً عن لقمة العيش ، التي عزت ، واحتوت أغلبهم خيام مهترئة ، كدستهم فيها «وكالة غوث اللاجئين» ، حيث عاشوا حياة دون الحد الأدنى لمستوى البشر.

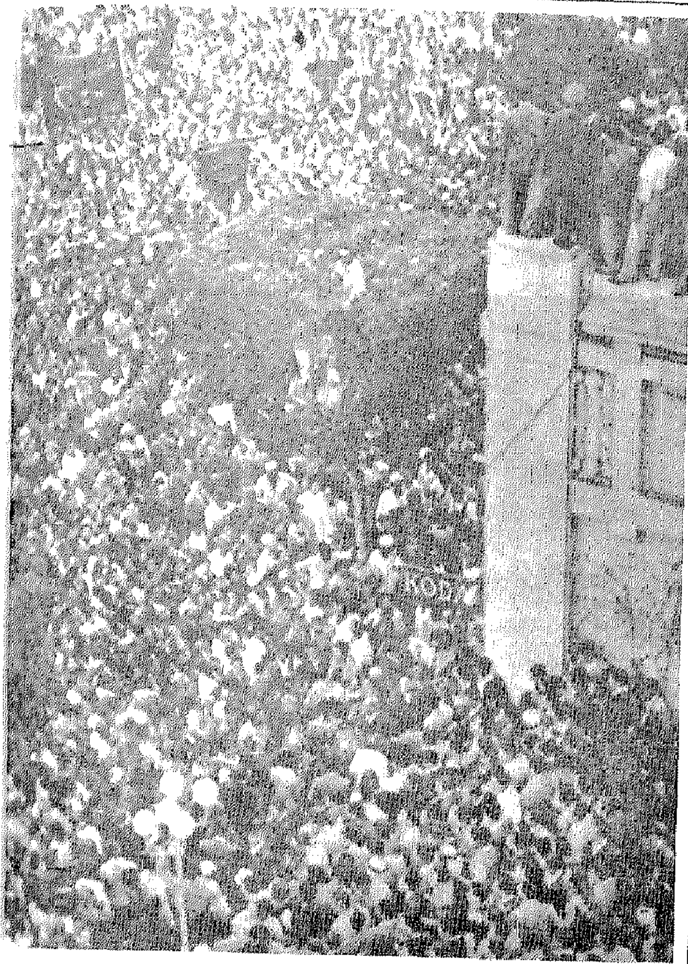
القصور :

ربما كان من المفيد الاشارة ، بداية ، إلى العوامل التي عجز الشعب العربي الفلسطيني معها عن وقف تقدم العصابات الصهيونية المسلحة ، في المدة التي سبقت اشتراك الجيوش العربية في القتال ، في الخامس عشر من أيار (مايو) ١٩٤٨. ويمكن حصر أهم تلك العوامل فيما يلي :

١ – ميل ميزان القوى العسكري لصالح الحركة الصهيونية ؛ من حيث حجم القوات ، ومستوى تدريبها ، والثقافة العسكرية التي حصلها قادتها ، ودرجة تسليحها. والشواهد والاستشهادات في هذا المجال عديدة. في مذكرات الجنرال غلوب اشار قائد الجيش الأردني من عام ١٩٣٩–١٩٥٦ ، إلى ان المناضلين الفلسطينيين كانت «تنقصهم الخبرة في الأعمال الحربية». وذكر ، في مجال إشارته إلى قلة خبرة هؤلاء المناضلين ، قصة شاهدها بعينه ، اثناء احتدام معركة القسطل ، في التاسع من نيسان (أبريل) ١٩٤٨ ، حين كان ماراً بشارع رام الله الرئيسي واذا بسائق سيارة ينادي بأعلى صوته : «إن رجال القسطل بحاجة إلى الذخيرة ، وإني على استعداد لدفع ثمن هذه الذخيرة نقداً». وسرعان ما أخذت الحمية أبناء المنطقة ، فتدافعوا نحو السائق وزودوه بما طلب.

وفي الوقت الذي كان المقاتل الصهيوني يمتلك السلاح الحديث والذخيرة الجيدة الوفيرة ، التي تصرفها له الوكالة اليهودية ، كان المقاتل العربي الفلسطيني يعاني الأمرين في مجال التسليح والذخيرة ؛ إذ كان يحصل ، من جيبه الخاص وبعد عناء كبير ، على سلاح قديم ، غالباً ما يتم الحصول عليه من صحراء مصر الغربية ، حيث تركت القوات الألمانية والأيطالية ، التي حاربت هناك في الحرب العالمية الثانية ، جزءاً من أسلحتها ، وهو السلاح الذي أتلفته الرمال ، واهترأ بفعل عوامل التعرية ، وجهل البدو في تلك الصحراء بأمر صيانته. كما كانت الذخيرة نادرة وباهظة التكاليف.

وفي القطاع اليهودي كان الأمر مختلفاً تماماً ، في



١٩٤٨/١٢/١٤ : القاهرة تغلي والشعب يدعو للجهاد.

كتاب أبيض صدر عام ١٩٤٦ ، وصفت حكومة الانتداب منظمة «الهاغناه» الصهيونية بأنها منظمة عسكرية غير مشروعة ، جيدة التسليح وتضم قوة تقدر بـ٦٠،٠٠٠ جندي عدا مجموعتين انفصلتا عنها هما : عصابتا «الأرغون» و «شتيرن» ، وكانت قوة الأولى تتراوح بين ٣،٠٠٠ و٥،٠٠٠ جندي في حين ضمت الثانية ما بين ٢٠٠ و ٣٠٠ رجل. وقد أصدر بن غوريون–مسؤول الدفاع في الوكالة اليهودية آنذاك–أمره إلى اثنين من مساعديه بالذهاب إلى أوروبا واحضار ١٠،٠٠٠ بندقية ، و ٤٥٠ مدفعا رشاشا ، وأن يبحثا عن طائرات ومدفعية ، ورصد لها اعتماداً قدره ٧٥٠،٠٠٠ دولار لهذا الغرض.

وكانت البالماخ (القوى الضاربة في الهاغناه) تضم نحو ٣,٠٠٠ مقاتل، وتمتلك نواة للقوة الجوية وأخرى للقوة البحرية. وكان بن غوريون قد جرد مخازن الأسلحة لديه. في نيسان (أبريل) ١٩٤٧، فوجد أنها تحتوي على: ١٠,٠٧٣ بندقية و ١,٩٠٠ مدفع نصف آلي. و ٤٤٤ مدفعا آليا خفيفاً، و ١٨٦ مدفعاً اتوماتيكياً متوسطاً. و ٦٧٢ مدفع هاون عيار ٢ بوصة. و ٩٦ مدفع هاون عيار ٣ بوصة.

أوضاع ذاتية متفاوتة

ويعترف مرجع اسرائيلي بأن قادة المناطق من عرب فلسطين (أمثال عبد القادر الحسيني. قائد منطقة القدس العسكري، وحسن سلامة. قائد منطقة اللد والرملة العسكري) لم تكن تنقصهم الحماسة، وان افتقروا للثقافة العسكرية. بمفهومها الاكاديمي. في حين عجز الضباط المحترفون السوريون والعراقيون. المنخرطون ضمن المتطوعين العرب للقتال في فلسطين، عجزوا عن تطبيق ما درسوه من تكتيكات على وحدات المتطوعين العرب. التي كانوا يقودونها؛ وذلك بسبب تخلف هذه الوحدات. كما لم يكن لدى عرب فلسطين قادة على مستوى الفصائل والسرايا. وكانت العمليات التي تخطط جيداً. تفشل بسبب عجز الوحدات الصغيرة العربية عن تنفيذ المهام القتالية الموكلة اليها.

هذا مقابل قوة أكبت الحركة الصهيونية على بنائها، وتسليحها، وتدريبها وفق أحدث الطرق. منذ العشرينات وهي القوة التي تعززت واكتسبت المزيد من الخبرات القتالية بعد اشتراكها في الحرب العالمية الثانية إلى جانب الحلفاء. فيما عرف «بالفيلق اليهودي».

ويجب أن نشير هنا إلى أن الاستعمار البريطاني كان، أثناء الانتداب. يصادر الأسلحة التي يعثر عليها لدى العرب الفلسطينيين. ويصدر على حائزيها أحكام الأعدام، في حين يغمض عينيه عن الأسلحة المتدفقة على الحركة الصهيونية. وعن مصانع الأسلحة التي تقيمها تلك الحركة في المستوطنات اليهودية. وعن التدريبات الواسعة التي كانت تقوم بها الهاغناه، وكان الاستعمار يتجاهل نمو نشاط التشكيلات العسكرية الصهيونية. وجاء في تصريح لكريتش جونز، وزير المستعمرات البريطاني أمام مجلس العموم البريطاني. «ان المحاكم العسكرية البريطانية أصدرت أحكاماً بالأعدام ضد ١٤٨ عربياً فلسطينياً، بتهمة حيازة أسلحة أو ذخائر».

٢ - المذابح البشعة التي نظمتها الحركة الصهيونية للآمنين العزل من السلاح من عرب فلسطين (مذبحة دير



تفتيش دقيق ولكن للعرب فقط! (القدس، باب العمود).

ياسين ١٩٤٨/٤/٩) ، والدور الساذج الذي لعبته أجهزة الأعلام العربية آنذاك ، حين نشرت ، بكل الوسائل الأعلامية وبشكل واسع ، أخبار هذه المذابح ، وأدت هذه المذابح ، وتلك السياسة الأعلامية العربية الساذجة إلى ترويع عرب فلسطين ، وإلى تدهور الحالة المعنوية لهم ، وهو أمر خدم - إلى حد بعيد - أهداف الحركة الصهيونية .

... ودور بريطانيا

٣ - موقف القوات العسكرية البريطانية المحابي للصهيونيين ، اذ شجعت هذه القوات عرب فلسطين على هجر ديارهم ، بعد أن أوهمتهم بأن جيوش الدول العربية ستعيدهم اليها . وعلى سبيل المثال ، طلب الكولونيل أندرسون ، القائد البريطاني لمدينة طبريا ، من السكان العرب الرحيل ، متذرعاً بعجزه عن حمايتهم ، ورغبته في منع مذبحة ينظمها لهم الصهيونيون ، على غرار مذبحة دير ياسين . ونشر رجال الانتداب الفزع بين عرب حيفا ، ونصحوهم بالفرار إلى الميناء ، وتطوع الانجليز لاجلاء ١٥,٠٠٠ شخص من ضواحي حيفا . وفي وقت لاحق اتهم المحامي الفلسطيني المعروف الياس كوسا ، حكومة الانتداب البريطاني بأنها هي «التي خلقت جو الفزع ...»فان البريطانيين هم الذي دبروا فكرة هرب العرب من البلاد ، وعملوا الكثير لتنفيذها ، ومنحت حكومة فلسطين موظفيها العرب رواتب ثلاثة شهور مقدماً ، وسهلت لهم السفر في إجازة للدول المجاورة ، وقامت الشركات البريطانية ، مثل شركة الصناعات الكيماوية الامبراطورية واخوان ستيل ، بنقل قسم من مكاتبها ومعظم موظفيها العرب ، دون داع إلى لبنان ، وبذلوا جهدهم في اقناع العرب بأن المنطق يحتم عليهم مغادرة البلاد ، وأن عليهم أن يفعلوا هذا ، على الأقل ، لدواعي الحذر . ويشير المحامي الحيفاوي ، كوسا ، إلى ما حدث في طبريا ، فيقول أن السلام كان يسود هناك ، ولكن السلطات البريطانية نقلت السكان العرب ، بالقوة ، إلى شرق الأردن مع ترك ديارهم وممتلكاتهم في البلاد ، وقد عرضت حكومة الانتداب على العرب في كل مكان من فلسطين أن تنقلهم مجاناً ، وزينت لهم الخروج من البلاد .

٤ - تفكك الجبهة الداخلية العربية الفلسطينية ، في مقابل جبهة موحدة في القطاع اليهودي من فلسطين ، ففي الجانب العربي كانت هناك ثلاث كتل رئيسية . الأولى ، وتضم «الهيئة العربية العليا» التي أقامتها الجامعة العربية عام ١٩٤٦ ، وضمت الأحزاب العربية الفلسطينية كافة ، عدا «عصبة التحرر الوطني» ، التنظيم الماركسي الفلسطيني ذا الخمسة آلاف عضو . ومن الجدير بالذكر أن نحو ١٣ ألفاً من عرب فلسطين أرسلوا بطاقات إلى الجامعة العربية ، طالبوها فيها بضرورة ضم العصبة للهيئة العربية ، إلا أن الجامعة العربية أدارت ظهرها لهذا المطلب ، عن عمد وسبق إصرار .

ومع ذلك لم تكن الهيئة العربية تمتلك الحد الأدنى من الانسجام ، أو وحدة الموقف ، ذلك أنها كانت تفتقر إلى التصور المشترك ، أو ما اصطلح على تسميته ببرنامج الحد الأدنى .

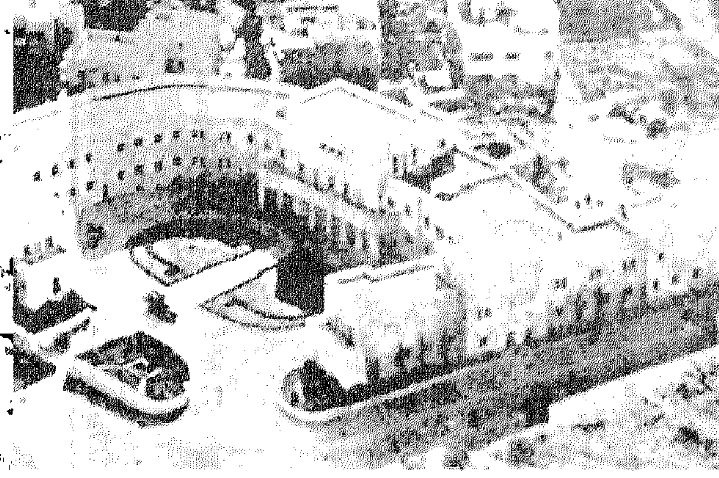
وقد نجحت حكومة العراق في شق الهيئة العربية ، حين زكت موسى العلمي ، وعززت مركزه في الجامعة العربية كمندوب لفلسطين فيها . وبرز العلمي كمناوىء صلب للحاج أمين الحسيني ، وكان خطر العلمي على الحركة الوطنية الفلسطينية يكمن في إعجابه بنمط الحياة الغربي ، وفي تعاطفه مع السياسة الاميركية ، وتوهمه بأن قليلا من الدعاية في أميركا وبريطانيا كفيل بحل القضية الفلسطينية ، وكان أن أنشأت له الجامعة العربية «المكاتب العربية» ، لبث الدعاية للقضية الفلسطينية في لندن وواشنطن . وبهذا يمكن اعتبار رجال هذه المكاتب بمثابة الكتلة الثالثة في أوساط عرب فلسطين ، بعد الهيئة العربية وعصبة التحرر . هذا ، مع الاشارة إلى التفاوت الكبير بين قوى الكتل الثلاث .

دون مستوى التحدي

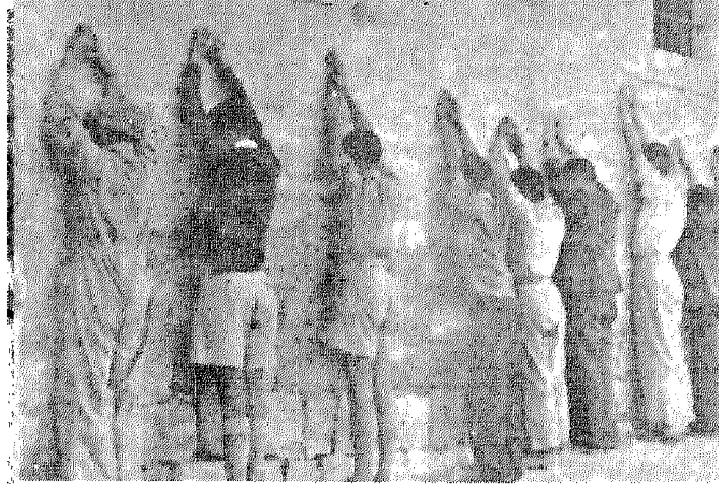
ومن الطبيعي أن مواجهة الخطر المزدوج في فلسطين ، الصهيوني والاستعماري ، كان فوق طاقة جهد حزب واحد أو كتلة واحدة . بل كان الأمر يتطلب تحالفاً مخلصاً ، صلباً ، وعريضاً ، يجمع كل القوى والطبقات الوطنية ، المعادية للاستعمار والصهيونية ، وصاحبة المصلحة الأكيدة في محاربتها وقهرهما .

وبديهي أن مثل هذا التحالف الوطني من شأنه تعزيز حركة الجماهير ، وهي الحركة التي تقرر كل شيء في النهاية . وقد أدى الفشل في إنجاز التحالف إلى العجز عن توسيع القاعدة السياسية والاجتماعية لحركة التحرر الوطني ، ذلك أن مثل هذا التحالف يتيح تحقيق وحدة عمل دائرة أكثر اتساعاً ، تناضل ضد العدو المشترك ، مما يمكن التحالف من لعب الدور الحاسم في الصراع .

الوكالة اليهودية في القدس قبل نسفها بيوم واحد في ١١ آذار ١٩٤٨

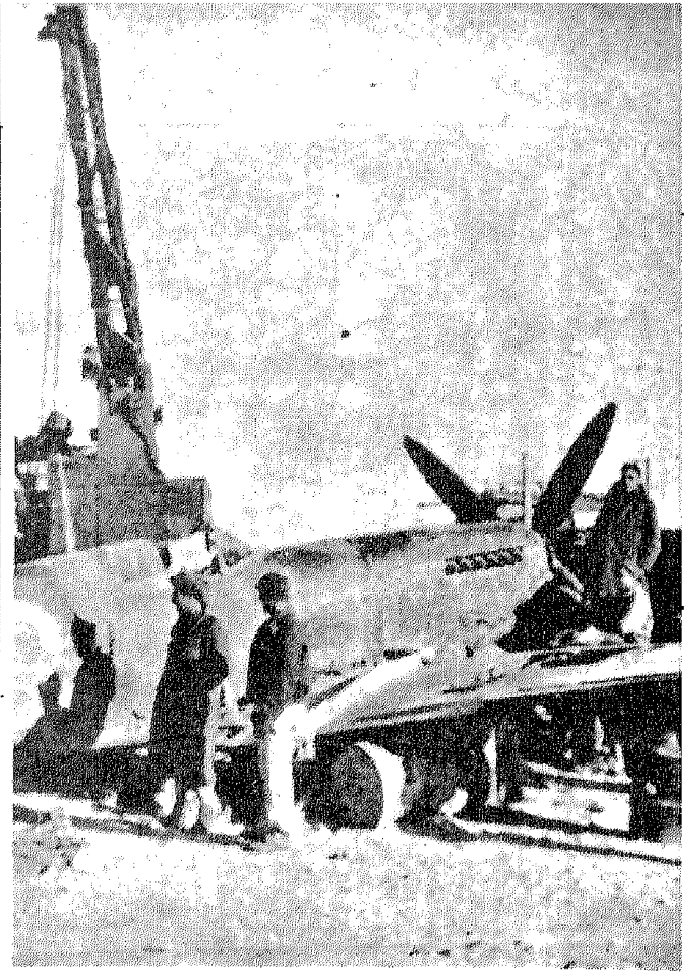


اسرى يهود قبض عليهم المناضلون العرب-٢٧ آذار (مارس) ١٩٤٨.

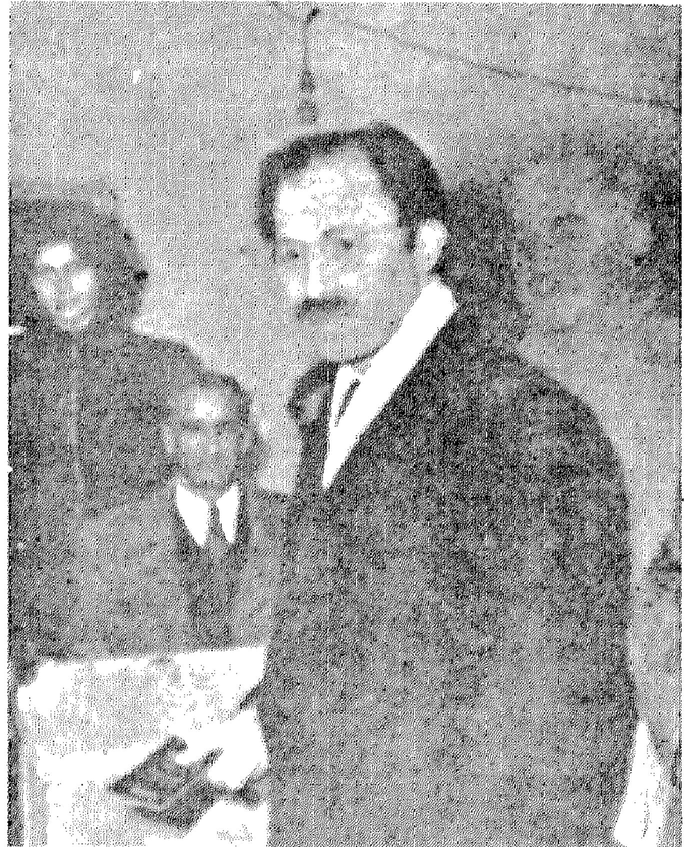


كانت مهمة الانتداب حماية اليهود (القدس القديمة).





طائرة مصرية اسقطها البريطانيون لحساب اليهود.



«بطل» مجزرة دير ياسين وقائد منظمة الارغون الارهابية... مناحم بيغن.



عبد المجيد حسن : قتل رئيس وزراء مصر النقراشي باشا لمهادنته اليهود ومنعه الفلسطينيين من شراء السلاح وسماحه بنقل اسلحة الالمان والانجليز من الصحراء الغربية إلى تل أبيب.

٥ — فقدان الوضوح الفكري ؛ إذ ظلت قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية تكتفي برفع شعارات عمومية عريضة ، قوامها : رفض الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، ووقف بيع الأراضي لليهود ، واقامة حكم وطني. وهذه الأمور لا يمكن ان تشكل برنامجاً سياسياً متكاملاً لحركة تحرر وطني ، تخوض كفاحاً معقداً وسط ظروف شائكة. هذا فضلاً عن أن هذه الشعارات لاتمت للاستراتيجية السياسية بصلة. فالبرنامج السياسي يتطلب تحديد طبيعة المرحلة ، والهدف الاستراتيجي ، والأساليب والتكتيكات الموصلة إلى هذا الهدف ، مع الاشارة إلى الأهداف المرحلية للحركة ، اضافة إلى تحديد دقيق لمعسكر الثورة ولمعسكر الأعداء. وبدون مثل هذا البرنامج لا يمكن أن يوجد الحزب كجهاز سياسي كامل ، قادر على التمسك بالخط عند أية انعطافة في الاحداث.

٦ — انهيار الاقتصاد العربي في فلسطين ؛ عقب تسريح موظفي الحكومة وعمالها ، وبعد توقف كثير من الأعمال العربية إثر تعرضها لقنابل القوات العسكرية الصهيونية.

ومع هذا كله ، فان مجموع ما فقده المقاتلون الفلسطينيون ، منذ صدور قرار التقسيم (٤٧/١١/٢٩) وحتى دخول الجيوش العربية (٤٨/٥/١٥) ، هو أقل بكثير مما تركته هذه الجيوش في أراضي فلسطين غنيمة للعصابات الصهيونية.

ولكن ، لماذا عجزت الدول العربية ، أيضاً ، عن التصدي للهجمة الصهيونية ، وهي الدول الأكثر عراقة ، والأقوى عسكرياً وسياسياً ، في كل المقاييس ؟ !.

هذا ما سيحاول مقالنا القادم الاجابة عنه ●

المراجع :

١ — جون باغوت غلوب : «جندي مع العرب» ترجمة عفيف حسني الصمدي ، دار النشر للجامعيين ، دون تاريخ ، بيروت.

٢ — سامي هداوي : «فلسطين تحت الانتداب ١٩٢٠–١٩٤٨». انظر «دراسات فلسطينية» ، مجلد رقم ١ ، ندوة فلسطين العالمية الثانية ، شباط (فبراير) ١٩٧١.

٣ — ييغال ألون : «من كلا جانبي التل». الترجمة العربية ، القاهرة. د ت.

٤ — محمد أمين الحسيني : حقائق عن قضية فلسطين ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٥٧.

٥ — الاتحاد (حيفا).

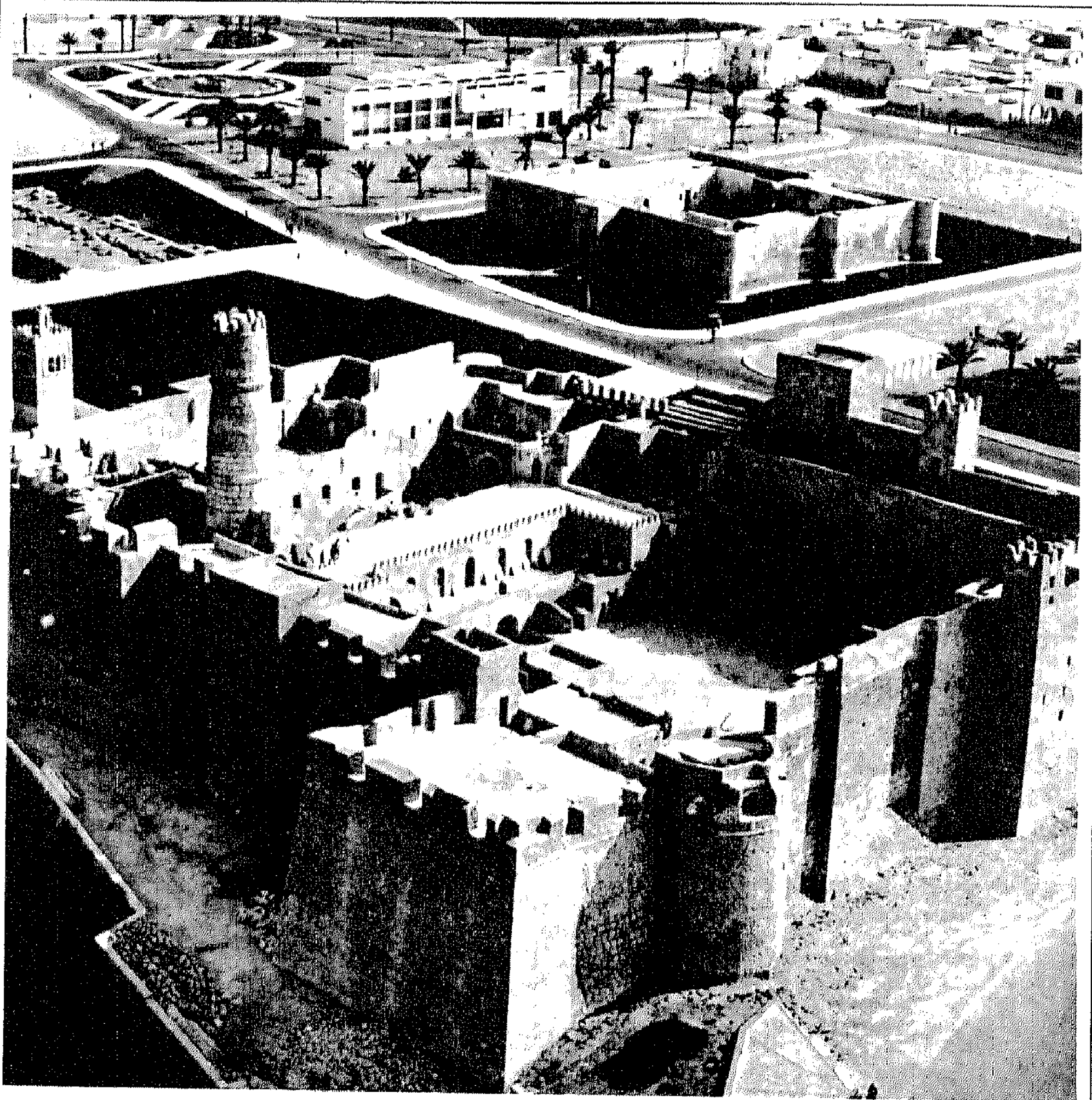
٦ — أهرون كوهين : إسرائيل والعالم العربي ، الطبعة العربية ، القاهرة ، د.ت.

من ملف الوطن العربي

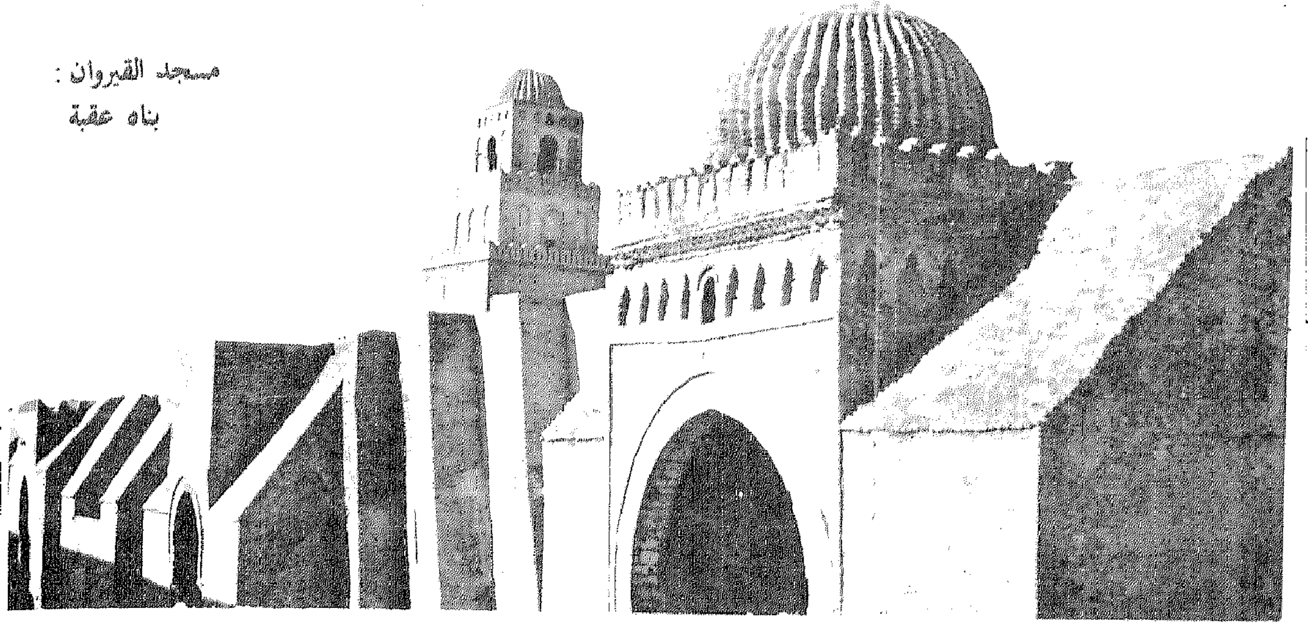
تونس

قسم الابحاث والدراسات

فتحها أكابر العرب وجعلوها حاضرتهم في المغرب



رباط المنستير من الجو.



مسجد القيروان :
بناه عقبة

● في العصور الحجرية إتجهت الحياة في ما نسميه اليوم المشرق العربي ، نحو الزراعة والاستقرار. وفي ما يسمى اليوم المغرب العربي ، اتجه الانسان في تلك الحقبات القديمة نحو حياة الرعي ، بفعل البيئة المغربية وطبيعتها الجغرافية.

ولذلك فان العصر الحجري الحديث (أي العصر الحجري الذي بدأ فيه الانسان ينتج أدوات وأسلحة حجرية دقيقة) قد تأخر في الظهور في المغرب ، بسبب من ارتباط العصر الحجري الحديث بالحياة الزراعية المستقرة.

وقد تأخر ظهور العصر الحجري الحديث في المغرب ألف سنة عن ظهوره في المشرق. وانتقل المشرق إلى عصر النحاس (أي عصر الأدوات والاسلحة والاواني النحاسية) في حوالي سنة ٣٥٠٠ قبل المسيح ، في حين لم ينتقل المغرب إلى ذلك العصر الا سنة ١٢٠٠ ق.م. وفي بعض المناطق امتد العصر الحجري الحديث في المغرب حتى الحقبة الرومانية.

وقد استدل العلماء على بداية عصر الزراعة والاستقرار ، بعثورهم على الأدوات الفخارية ، التي كان الانسان قد أخذ يصنعها ليخزن فيها طعامه وشرابه ، وهو أمر لم يصنعه أيام الرعي والصيد.

وتدل دراسة الاستاذ كاتون تومسون في المغرب العربي والصحراء ، على أن بداية عصر الجفاف شهدت نزوح الانسان من المناطق التي غزاها الجفاف نحو مناطق وجد فيها مصدراً لمأكله ومشربه ، ومنها تونس.

بداية تاريخ تونس

ينتمي سكان المغرب الأصليون ، البربر ، إلى مجموعات يغلب على لغتها الانتماء إلى عائلة اللغات الحامية المختلطة باللغات السامية. وهي شعوب ترجع اصلاً إلى منطقة عمان واليمن والصومال وتحركت غرباً مع مرور الزمن. ويرى بعض العلماء في هذه القرابة مع الشعوب السامية ، سبباً في سهولة تقبل البربر الهجرة الفينيقية إلى بلادهم ، ثم انخراطهم دون صعوبات نسبياً في حركة الفتح العربي في القرن السابع بعد الميلاد. وفي حين نظر أهل البلاد إلى الوجود اليوناني والروماني والبيزنطي (وفيما بعد الفرنسي) على أنه وجود اجنبي ، كانت النظرة إلى الفينيقيين والعرب (والى حد ما العثمانيين) نظرة مختلفة تماماً. فتونس تنتمي إلى الشرق وتطل على الغرب. ولقد كان انتماؤها هذا واطلالتها تلك من الملامح المستقرة في تاريخها الطويل.

وحين بدأ التاريخ في تونس ، بدأ منتمياً إلى الشرق ومطلاً على الغرب. إذ يعتبر المؤرخون أن قرطاجة التي كانت بداية عظيمة لتاريخ تونس ، هي ابنة لصور ، التي هي بدورها ابنة لصيدا على ما يعتقد.

وعلى الرغم من اختلاف العلماء حول مسألة ما إذا

كانت صور أسسها الصيدونيون في جزيرة قبالة الشاطئ بعد انتصار ملك عصقلان، على صيدون، وما اذا كان تاريخ تأسيسها يعود إلى سنة ١١٩٤ ق.م. فانه ليس من مجال للاختلاف حول ارتباط موقع صور (كجزيرة أولاً) باتجاهات سكانها البحرية. واتجاه الصوريين صوب البحر هو الذي جعلهم في حاجة إلى خشب الشاطئ الفينيقي والاقمشة المصرية، لصنع السفن واشرعتها. وهذه العلاقة الجدلية بين البيئة والاهتمامات الاقتصادية، كانت تمهيداً طبيعياً لفتح عيون ابناء صور على الآفاق الجديدة صوب الشمال الأفريقي. وإذا كان من غير المؤكد أن الهجرة إلى قرطاجة اقتصرت على الصوريين كعنصر بشري، فانه من المؤكد أن صور لعبت الدور الأساسي في هذه الهجرة.

هذا ما يقوله علم التاريخ.

تأسيس قرطاجة

أما ما يقوله «أدب» التاريخ، فهو أن هليسا أخت ملك صور بغماليون، تزوجت من خالها اشرباس، أحد كهنة ملقارت. فغضب بغماليون وقتل الكاهن. وهربت هليسا إلى قبرص مع الصوريين المعارضين، ومنها توجهت إلى قرطاجة في الساحل التونسي اليوم.

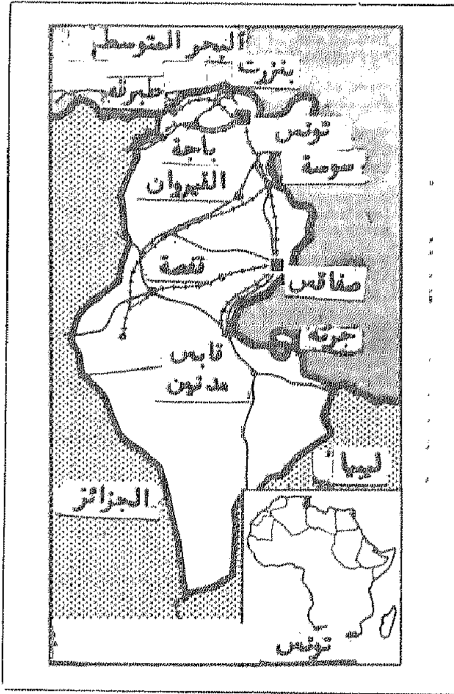
هذه هي رواية المؤرخين اليونانيين. أما المؤرخ اليهودي يوسفوس الذي عاش في القرن الأول بعد الميلاد، فقد أكد أن هليسا أسست قرطاجة في السنة السابعة لحكم بغماليون. وعلى الرغم من اتفاق المؤرخين غير القاطع على قبول سنة ٨١٤ ق.م. تاريخاً لتأسيس المدينة، فإن الحفريات الأثرية لم تعثر بعد في تونس على أي أثر فينيقي يسبق سنة ٧٥٠ ق.م. ويتعين اذن اعادة النظر في تاريخ تأسيس أوتيك، الذي اصطلح حتى الآن على القول انه جرى سنة ١١٠١ ق.م. وفقاً للمصادر الكلاسيكية اليونانية والرومانية.

حروب روما وقرطاجة

ومهما كانت حقيقة تاريخ تأسيس قرطاجة فانها ضمت في عهدها الأول قبائل وشعوباً عديدة عاشت في وئام مما دفع أهلها إلى استقطاب شعوب جديدة، وإلى تعمير بلاد متزايدة الاتساع. وهذا ما أخذ يثير حفيظة روما القديمة. ونظراً إلى تداخل مناطق نفوذ القوتين، خاصة في صقلية توترت العلاقات الرومانية القرطاجية. وكانت شرارة الحرب بين الدولتين الخلاف على مضيق مسينا الاستراتيجي بين ايطاليا وصقلية. فنشبت بينهما ثلاث حروب دامت ١١٨ عاماً (من ٢٦٤ إلى ٢٤١ ق.م. ومن ٢١٨ إلى ٢٠١ ق.م.
ومن ١٤٩ إلى ٢٤١ ق.م.).

وبرز في هذه الحروب التي عرفت «بالحروب البونيقية» (أو البونية، وفقاً لتحريف روماني لكلمة الفينيقية) قائد عسكري عظيم هو هنيبعل الذي استطاع أن يقود جيشه بجنوده وأفياله من شمالي أفريقيا إلى اسبانيا ففرنسا ليهدد روما نفسها. وانتهت الحروب البونيقية بتدمير قرطاجة تدميراً كاملاً بعدما حوصرت لمدة سنتين واحرقت سنة ١٤٦ ق.م.

وفي عهد الأمبراطور الروماني اغسطس



(٦٣ ق.م. - ١٤ م) أعيد احياء قرطاجة من تحت الرماد وأصبحت في فترة قصيرة عاصمة لأفريقيا الرومانية.

وتدور دورة التاريخ على روما ويثور عليها البربر وتدخل في دوامة الفوضى والخراب مما أدى إلى تقسيمها. فأصبحت عرضة للغزو الخارجي بدءاً من هجوم قبائل «الفاندال» الجرمانية - الشرقية في القرن الخامس م. ثم الروم البيزنطيين، حتى جاء الفتح العربي الذي أعطى تونس طابعها الحضاري الذي تتميز به اليوم.

فتح الأكابر

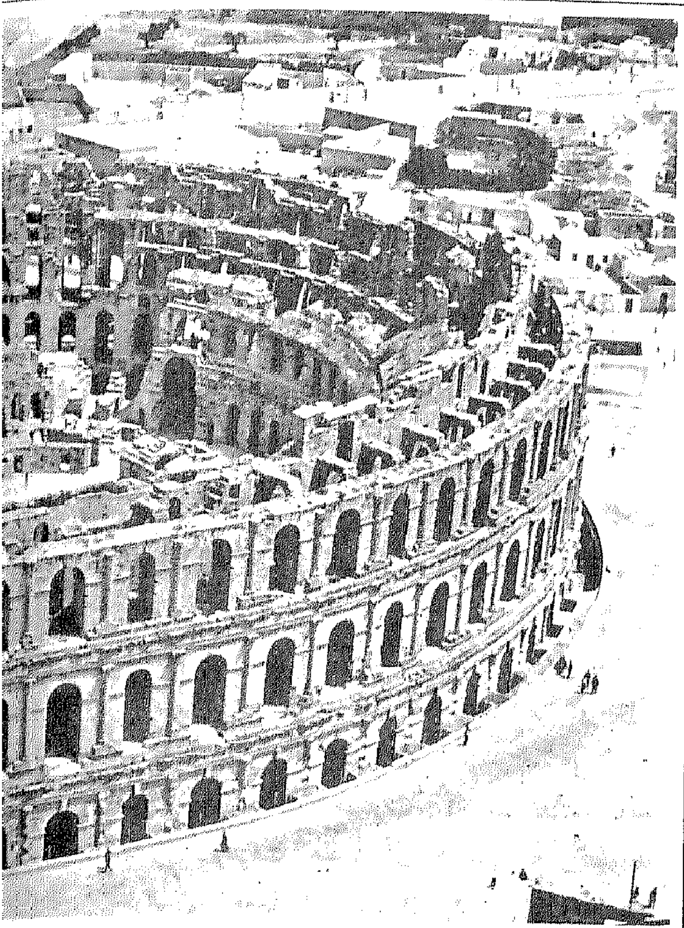
فتحت تونس نهائياً على يد عقبة بن نافع بن عبد قيس الفهري. وكان العرب قد تهيبوا أيام عمر بن الخطاب

مد فتوحهم إلى أفريقيا (هكذا كانت تونس تسمى)، خوفاً من عدم القدرة على تنظيم الفتح والاستمرار فيه. فلما قتل عمر وبويع عثمان، أرسل الخليفة أخاه من الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبي سرح والي مصر، على رأس حملة قوية اجتاز بها طرابلس، واستولى على سفن البيزنطيين هناك. ثم واصل سيره إلى أفريقيا والتقى الجيوش البيزنطية في سبيطلة (سنة ٢٧هـ – ٦٤٧م)، إلى الجنوب الغربي من القيروان التي لم تكن قد شيدت بعد. وفي سبيطلة انتصر العرب انتصاراً حاسماً، ومات القائد البيزنطي غريغوريوس (جرجير كما يسميه العرب) على يد عبد الله ابن الزبير، الذي كان صاحب الفضل في هذا الانتصار. لكن ابن أبي سرح اضطر إلى الانسحاب ليقاتل النوبيين في جنوب مصر. ويلاحظ أن حشداً من أكابر العرب حارب في هذه المعركة، منهم مروان بن الحكم (الخليفة لاحقاً)، وابن الزبير، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن أبي بكر. ويمكن لتونس أن تفخر بأن فتحها تم على أيدي هؤلاء، ولو أنها ستنتظر سنة خمسين هجرية (٦٧٠م) ليفتحها عقبة بن نافع، ابن خالة عمرو ابن العاص نهائياً، ويبني فيها مصراً جعله حاضرة المغرب العربي كله، هو القيروان.

ويقول البلاذري: إن عقبة غزا أفريقية في خمسة آلاف مسلم، فافتتحها واختط قيروانها «وكان موضع غيضة ذات طرفاء وشجر لا يرام من السباع والحيات والعقارب القتالة. وكان ابن نافع رجلاً صالحاً مستجاب الدعوة، فدعا ربه، فأذهب ذلك كله، حتى ان كانت السباع لتحمل أولادها هاربةً بها». وأراد عقبة تمصير القيروان ففكر «في موضع المسجد منه، فأري في منامه كأن رجلاً أذن في الموضع الذي جعل فيه مئذنته، فلما أصبح بنى المنابر في موقف الرجل ثم بنى المسجد».

وهكذا اصبحت تونس عربية، بل مستقر الجناح الغربي للأمبراطورية العربية.

ولكن ما بين العهد العربي والعصر الراهن عانت تونس ما عانته بقية دول الاسلام من فترات توزع الكلمة وتفكك الجبهة الداخلية: فأسس ابراهيم بن الأغلب دولة الأغالبة (١٠٤هـ – ٨٠٠م.) التي دامت حتى العام ٢٩٦هـ – ٩٠٩م. ثم أسس عبيد الله المهدي دولة الفاطميين بدءاً من العام ٢٩٦هـ – ٩٠٩م. وخلفهم الصنهاجيون الذين اعلنوا استقلالهم سنة ٤٣٩هـ – ١٠٤٧م. مما دفع الخليفة الفاطمي في مصر إلى إرسال جيشه لمعاقبتهم على تمردهم (٤٤٢، ٤٤٣هـ.



الكابيتول في طبوربو ماجوس.

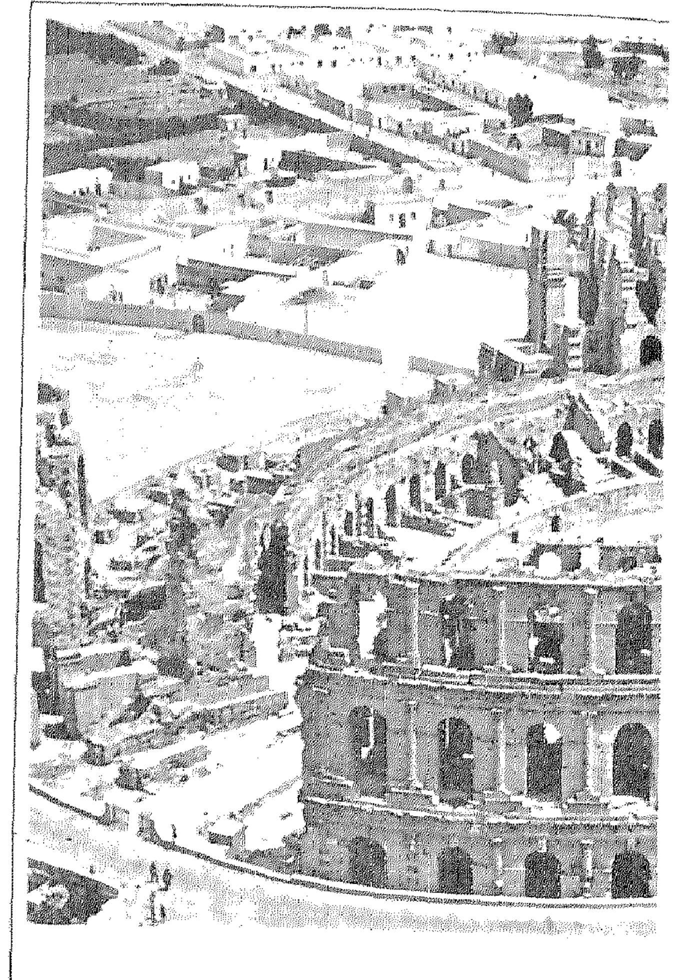
أو (١٠٥٠م – ١٠٥٢م.)، بعد انقضاء دولة الصنهاجيين.

امتدت دولة الموحدين من المغرب إلى تونس منذ العام ٥٥٥هـ. (١١٦٠م) وأصبحت عاصمة لها. ثم أعقب عهد الموحدين في تونس الأمراء الحفصيون الذين توالوا على الحكم في البلاد منذ العام ٦٠٣هـ (١٢٠٧م). وحتى دخول الاسبان في العام ٩٤١هـ (١٥٣٥م).

العصر العثماني

ولم يدم حكم المستعمرين الاسبان طويلاً خصوصاً وأن الدولة العثمانية كانت في أوج قوتها تتوسع بلا منازع جدي. وتحولت تونس إلى ولاية عثمانية منذ دخول سنان باشا البلاد العام ٩٨١هـ (١٥٧٤م).

ومر عهد الحكم العثماني التركي في تونس بمراحل متعددة: من عهد انقسام النفوذ بين «الباشا» و«الداي» و«الباي» ثم عهد استيلاء «الداي» على سلطة الباشا وازاحته ثم عهد استيلاء «الباي» على سلطة «الداي» و«الباشا» وازالتها للانفراد بالسلطة.



ومهدت الخلافات العثمانية هذه إلى قيام الدولة المرادية المملوكية ثم الدولة الحسينية المملوكية التي دام حكم أمرائها (من ١١١٧ إلى ١٣٧٦هـ). أي (من ١٧٠٥م إلى ١٩٥٧م). تاريخ إعلان أول جمهورية مستقلة في البلاد.

عبد الرحمن بن خلدون

ولا يمكن طي صفحة تاريخ تونس دون أن نأتي على ذكر ابن خلدون.

وإذا كانت تونس تعتبر ابن خلدون واحداً من ابنائها الخالدين، فان هذا العقل العربي الجبار، يعتبر نموذجاً للانسان الذي تتجسد فيه وحدة الوطن العربي. فعائلته على الأرجح يمانية حضرمية، على ما يقوله علي عبد الواحد وافي في كتابه عبد الرحمن بن خلدون (مكتبة مصر، القاهرة). وجده الأول خالد بن عثمان لا بد وأنه انتقل إلى الأندلس «في القرن الثالث للميلاد». وينقل ابن خلدون عن ابن حزم في «جمهرة انساب العرب» أن هذا الجد «خالد» أعطى اسمه للأسرة الخلدونية. وكان العرب في الأندلس قد اختلطت بلغتهم بعض الكلمات والاستخدامات اللغوية الاسبانية والقوطية. ومنها أن يزاد على آخر الاسم حرفا الواو والنون للدلالة على التعظيم، فيقال مثلاً لزيد: زيدون (أي زيد الكبير). ومن هنا جاءت أسماء حفصون وخلدون وحمدون وغيرها. ويبدو أن أحد أجداد ابن خلدون اشترك في ثورة في اشبيلية، حيث كانت تقيم الأسرة. وحارب الخلدونيون مع المرابطين في معركة الزلاقة (٤٧٩هـ - ١٠٨٦م) التي هزم فيها الفونس السادس. وارتبطوا بالحفصيين وانتقلوا معهم إلى تونس. وقد تنقل ابن خلدون كثيراً فكان من أكابر المقربين من عدد من الحكام في تونس والجزائر والمغرب والأندلس، في حقبة مضطربة. وتولى الحجابة والوزارة أكثر من مرة، في الجزائر والمغرب. وختم حياته في القاهرة التي أقام فيها ربع قرن، فأصلح القضاء وتفرغ للدراسة والتأليف.

ولعل هذه الوحدة العربية المتجسدة في شخص ابن خلدون، صفة تنطبق كذلك على تونس نفسها التي كانت حاضرتها القيروان عاصمة عربية من كبريات الحواضر.

معلومات جغرافية واحصائية

ان موقع تونس الجغرافي والاستراتيجي جعلها مطمع الغزاة وقبلة الفاتحين إذ يمكن العبور منها براً من المشرق إلى الأطلسي. وشواطئها الممتدة على طول ١٣٠٠كلم لا يفصلها عن القارة الأوروبية إلا ممر عرضه حوالي ١٤٠ كلم.

إنها اصغر بلاد شمال أفريقيا المغربية مساحة وأقلها جبالاً وأكثرها تنوعاً من حيث سطح ارضها واختلاف جوها ومناخها. والفرق بين شمالها وجنوبها هو الفرق بين جو أوروبا وجو الصحراء وهي بالتالي متنوعة في طبيعة الأرض من السهول التي في مستوى البحر إلى قمم الجبال العالية.

عدد سكان تونس ٦ ملايين نسمة (١٩٧٦) وتشير التقديرات الموثوق بها أن هذا الرقم سيرتفع إلى ١٩ مليوناً في العام ٢٠٠٠ (احصاءات البنك الدولي - ١٩٧٨).

أهم الآثار التاريخية:

- يجمع علماء الآثار اليوم على أن أهم الآثار التاريخية في تونس هي التي تعود إلى العهود التالية:
- العهدان الفينيقي والروماني.
- العهدان العربي والعثماني.



سبيطلة : شهدت أول انتصار عربي في تونس.

وتتعايش آثار هذين العهدين في قرطاجة واوتيك وأودنة وسوسة والجم ودقة وبلاريجيا.

في قرطاجة مثلاً نجد المحرقة (او الطوفيت) التي كان الفينيقيون يضحون فيها بطفلهم الأول للاله بعل، كما نجد الحمامات الرومانية التي بنيت في القرن الثاني.م. في عهد الأمبراطور أنطونيوس وهذه الحمامات هي من أوسع الحمامات التي كانت توجد في الأمبراطورية الرومانية. وفي دقة نجد الضريح الفينيقي الشهير المشيّد في القرن الثاني ق.م. كما نجد أوسع المواقع الأثرية الرومانية وأسلمها من الخراب في تونس.

كما نجد بعض الآثار الفينيقية الأخرى في كركوان والكاف. ويذكر أن كركوان هي المدينة الفينيقية الوحيدة التي وصلت الينا من غير خراب كبير. أما الآثار الرومانية القديمة فأبرزها :

● الفسيفساء الرائعة الموجودة في الجم وسبيطلة خصوصاً. والمعروف أن تونس تملك أغنى مجموعة من الفسيفساء الرومانية في العالم وهي تمثل لوحات حية تزخر بمشاهد الحياة اليومية للرومانيين القدماء ومشاهد الأساطير الرومانية الشهيرة.

● آثار أبنية «الكابيتول» في أكثر من مدينة وموقع كما في دقة وطوربو ماجوس وسبيطلة. ولا شك في أن «كابيتول» طوربو ماجوس هو من أفضل المعالم المماثلة في الدول الأفريقية التي شهدت الغزو الروماني القديم.

● الآثار الواسعة للساحات العامة والمسارح والحمامات.

في الجم يوجد مسرح يعود إلى بداية القرن الثالث م. وهو من اوسع وأفخم المسارح المماثلة في الأمبراطورية الرومانية. وفي دقة توجد ساحة «الغوروم» ثم «ساحة ناعورة الرياح» ومسرح دقة الأثري الشهير. وفي مكثر يوجد ميدان الرياضة البدنية التابع للحمامات الكبرى مع قوس نصر الأمبراطور تراجان.

إضافة إلى ذلك تنتشر سلسلة من المتاحف التونسية التي تحوي آثاراً من العهدين الفينيقي والروماني :

● المتحف القومي بباردو.

● المتاحف المتخصصة عن آثار قرطاجة.

● ومتاحف سوسة والجم وصفاقس واوتيك والنفيضة ومكثر.

الآثار العربية الاسلامية :

إن الآثار العربية – الاسلامية في تونس هي شاهد على الأهمية التاريخية الحاسمة للفتح الاسلامي بالنسبة إلى حياة

الشعب التونسي وحضارته.

فقلعة (أورباط) «المنستير» التي شيدها في أواخر القرن الثامن م. حرثمة بن أعين تمثل مع قلعة سوسة أقدم وأهم المنشآت العسكرية العربية في عموم أفريقيا الشمالية. وكانت قلعة المنستير تستعمل كقاعدة لفرق من المرابطين المجاهدين النساك الذين قاموا بدور حاسم في الدفاع عن السواحل وحراستها وفي خوض المعارك البحرية. كما توجد في المنستير صومعة «الجامع الكبير» التي يرجع عهد بنائها إلى القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري).

وفي تونس العاصمة هناك بيت الصلاة بجامع «الزيتونة» أو «الجامع الأعظم» الذي بنى الجزء الأكبر منه الأمير الأغلبي ابراهيم بن أحمد بين ٢٤٢ – ٢٤٩هـ أو ٨٥٦ – ٨٦٣م . وفي سوسة هناك الجامع الكبير وهو شيد في الفترة نفسها تقريباً مع جامع الزيتونة، اي في حدود العام ٨٥٠م (٢٣٥ – ٢٣٦هـ).

وفي القيروان يعتبر الجامع الأكبر آية معمارية لا مثيل لها في المغرب العربي بأكمله باستثناء الأندلس وفي القرن ١١ م. (الخامس الهجري) بنيت مئذنة رائعة للجامع وهي تظهر في وضوح روعة الفن المعماري الذي يعبر عن حضارة في أوج ازدهارها وتوسعها.

ولا بد من ذكر منبر جامع القيروان بنقوشه البديعة. وهو يعطي فكرة عن الاتقان الفريد الذي بلغه النحاتون المسلمون على الخشب في ذلك العصر.

أما متحف القيروان فيقع قبالة جامع عقبة بن نافع ويحتوي على مجموعة غنية من مخطوطات القرآن الكريم المكتوبة على الرقوق وكتب اسلامية يرجع تاريخها إلى القرن ٩ م (٣هـ). وزجاجيات وخزفيات متنوعة.

ومن الجوامع المالكية الأخرى التي بنيت في العهد العربي نشير إلى جامع المهدية الذي يرجع عهده إلى القرن ١٠ م (٤هـ) أيام الفاطميين. وهو أعيد بناؤه حديثاً استناداً إلى الفن المعماري القديم وببعض الأدوات والمواد الأولية التي تعود إلى القرن نفسه.

وهناك جامع ابن زمعة البلوي (أو جامع الحلاق) الذي بني في القرن ١٧ م. (١١هـ) على الطراز الأندلسي.

الآثار العثمانية التركية.

ان اللمسات العثمانية على الآثار العربية – الاسلامية ما زالت ظاهرة في وضوح حتى يومنا هذا مما يفنّد رأي من يحاول أن ينفي عن الحضارة العثمانية التركية تحقيق انجازات مهمة في مجال الفن والعلوم.

وأهم الآثار العثمانية – التركية في تونس ضريح حموده باشا المرادي الذي شيد في اواسط القرن ١٧م. (١٦٥٥م – ١٠٦٥هـ). وهو يعتبر من أكثر المباني تمثيلاً للتأثير التركي.

أما مئذنة جامع حموده باشا المشهورة بمنارتها المثمنة التي هي للجوامع الحنفية. وتتميز بالتالي عن المنارات أو الصوامع المالكية المربعة شكلاً.

وأهم الجوامع الحنفية التركية الأخرى «جامع اليوسفي» او «جامع القصبة» و«جامع صاحب الطابع» الذي يرجع عهده إلى القرن ١٩م (١٣هـ).

كما أن هناك ميضاة السلطان الحفصي أبو عمر عثمان التي بنيت في أواسط القرن ١٥م (٩هـ).

ولا بد من ذكر المدرسة المرادية في قابس التي بنيت في مطلع القرن ١٧م (١١هـ) وهي تعتبر أثراً فنياً مغموراً عن فن ذلك العصر.

المصادر والمراجع:

– الناضوري، رشيد: «محاضرات في تاريخ المدن الفينيقية». جامعة بيروت العربية. بيروت – ١٩٧٦.

– عثمان، سهيل ودرويش، محمد: «من مقدمة ابن خلدون». مجموعة «المختار من التراث العربي». نشر وزارة الثقافة والارشاد القومي. دمشق – ١٩٧٨.

الامام أبو الحسن البلاذري: «فتوح البلدان». تحقيق رضوان محمد رضوان. دار الكتب العلمية. بيروت – ١٩٧٨.

العبادي، أحمد مختار: «في تاريخ المغرب والأندلس». دار النهضة العربية. بيروت ١٩٧٨.

غربال، شفيق: «تونس الخضراء». دار المعارف. القاهرة – ١٩٤٣.

– عبد الهادي، راضي وجابر. عبد المحسن والنمري. طاهر: «الوطن العربي في أفريقيا». دار العلم عمان – (بلا تاريخ).

– فراديي، جورج: «الفسيفساء في تونس». دار سيراس للنشر. تونس – ١٩٧٦.



ميمونة

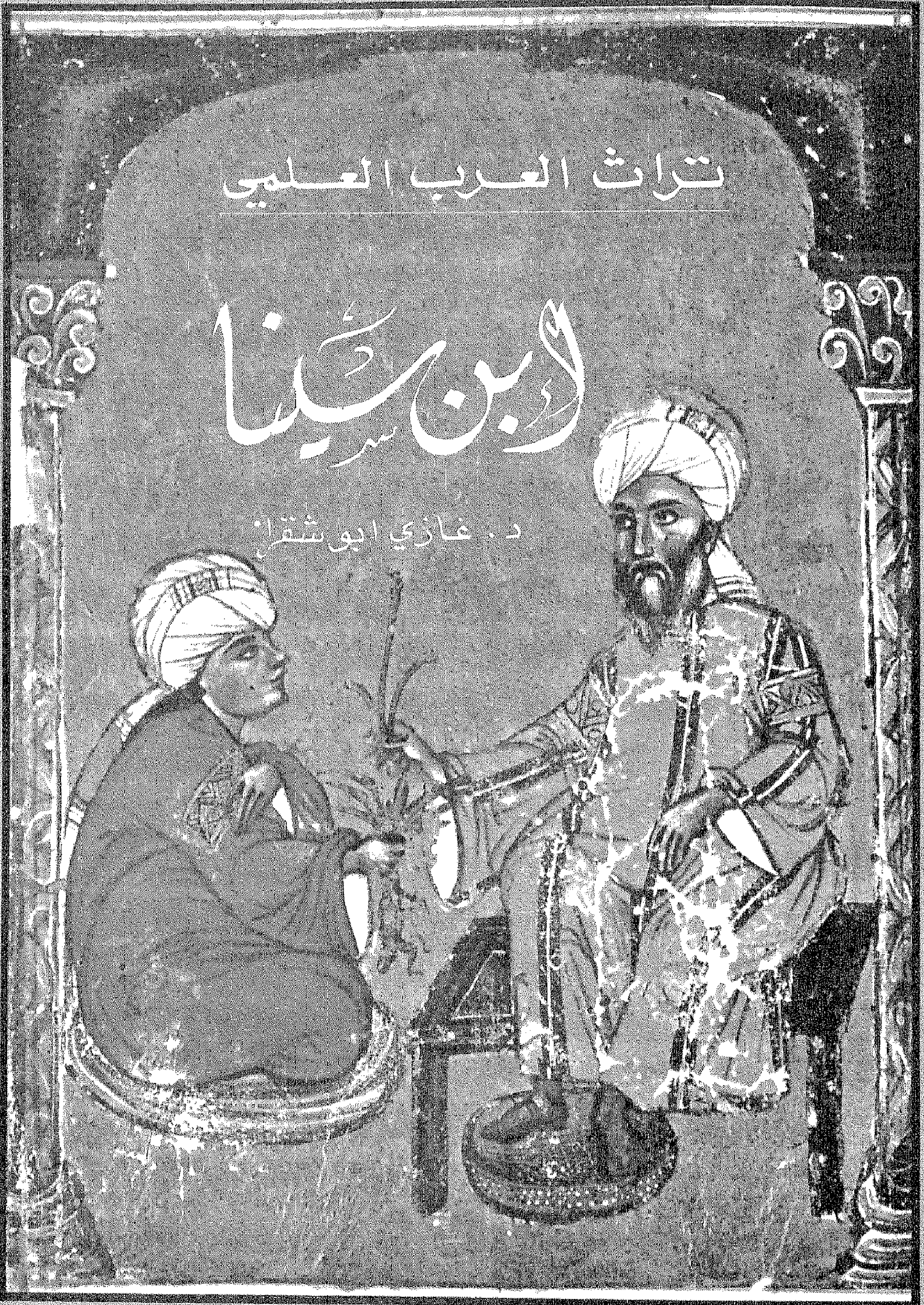
• هي برّة بنت الحارث بن حزن الهلالية من أكرم سيدات مكة وإحدى أخوات أربع قال عنهن الرسول «الأخوات المؤمنات».

• كان لها أخت اسمها أم الفضل رأت أبا لهب يضرب خادماً من خدم العباس لأنه أسلم وأوقعه أبو لهب على الأرض وبرك عليه وضغط على عنقه بيديه يريد خنقه، فضربته أم الفضل بعمود من الحديد شج رأسه وهي تصيح فيه: «استضعفته يا جبان حينما غاب عنه سيده!» وقد مات أبو لهب عدو الله والرسول بعد هذه الضربة بسبعة أيام.

• أسلمت برة وأعجبت بالرسول ووهبت نفسها له كما هو وارد في (سيرة ابن هشام) وبعض الروايات تقول إن العباس زوج شقيقتها أم الفضل علم بإعجابها العميق بالرسول فحمل الرسالة إليه وكان صداقها أربعمائة درهم.

• زفت إلى الرسول في ناحية (سرف) قرب التنعيم وقد أبدل اسمها إلى (ميمونة) تيمناً بالمناسبة السعيدة التي دخل فيها أم القرى لأول مرة بعد سبع سنين.

• ماتت بعد منتصف القرن الأول للهجرة، أوصت قبل وفاتها بأن تدفن في ناحية (سرف) وفي نفس المكان الذي زفّت فيه إلى الرسول. فنفذت وصيتها وكانت الوحيدة بين زوجات الرسول التي لم تدفن في البقيع وقالت عنها عائشة: «لقد كانت والله من أتقانا لله وأوصلنا للرحم».



(*) د. غازي أبو شقرا، استاذ في كلية التربية، الجامعة اللبنانية. دكتور في علم البيئة والعلوم الطبيعية. باحث في التراث العلمي العربي.

● قبل الإحاطة الشاملة والموضوعيّة الرامية إلى دراسة التاريخ التطوريّ للعلوم البيولوجية والطبيّة، لا بُدّ لنا من الافصاح عن الدوافع التي حدتنا الى اختيار موضوع هذا البحث المتعلق باسهام العلماء العرب المتقدمين في دراسة الدم – هذا السائل الحيويّ المؤمن لدفق الحياة فينا – واكتشاف الدورة الدمويّة الرئوية أو الدورة الدموية الصغرى، كما إصطلح على تسميتها في المصنفات العلمية والكتب المدرسيّة المبسّطة، وتصدر وتقدم هذا الاكتشاف بقرون عدة، العالم البيولوجي هارفي « والمدرسة الايطالية » كما يذهب بعض الباحثين غير المدققين والذين ارجعوا فضل هذا الاكتشاف للمدرسة المذكورة بعد أن غمط حق ابن النفيس الطبيب العربي الذائع الصيت، وبعد أن القيت السجف المعتمة على التراث الضخم الذي تركه نابغة عصره ابن سينا والازاهير المفعمة بالطيب، طيب النشر، الذي أسهم بتبرعمها وتفتقها ابن طفيل والرازي وغيرهما من العلماء الأعلام.

هذه الدراسة هي اذن لاماطة اللثام، وتمزيق هذه السجف المصطنعة توخياً لابراز الحقائق العلميّة دون تعصب ودون شوفينيّة.

ولا نُخفي بادئ بدء، تردّدنا وربما احجامنا عن الخوض في هذا الخضم المتلاطم الأمواج لوعورة المسالك التي تقودنا لاكتشاف هذه الكنوز وهذه الذخائر النفيسة ومحاولة طمس معالمها باصطناع الترسبات والأتربة الفكرية فوقها عن قصد أو غير قصد لمحو هذه المعالم، بهدف فصم الحلقات التواصلية لتطور الفكر البشري وتفكيكها. واذابة الاضافات البنيوية أو لُبنات صرح الفكر الواحد الموحد بقطع النظر عن الحدود والسدود الطبيعية والمصطنعة في آنٍ واحد.

إن هذا التردد الاحجامي جزئياً لم يوهن من مضاء عزيمتنا للتبحر في البحث والاستقصاء بالرغم من تثبيط هذه العزيمة خاصة بعد توجّهنا الى نفر طيب وخير من الأطباء القدامى توسلاً لارشادنا وتزويدنا ببعض المراجع الضرورية لأعمدة وهيكلية كلّ بحث موضوعي.

وكانت اجابات بعضهم تنحصر متمحورة بالنزوع الى التصريح بأنه يوجد النذر القليل، وهذا القليل هو دون فائدة تذكر إذا ما قيس بالمعلومات الآنية العصرية.

هذا الشيء لم يدفعنا الى التنقيب عن مواضيع أخرى تنعت أحياناً بعبارات فضفاضة، براقة، مبرقعة تقول: « هذا الموضوع أعم وأشمل » وذلك « اعمق » كأن العمق يكتشف قبل الغوص، وكأن النظرية تدرك قبل شق النفس وتقديم الاطروحات المثبتة الدامغة، وبصورة استنسابية تقديرية غير تمحيصية.

كل هذه العقبات شحذت من عزيمتنا فأذكت عندنا الفعل الاراديّ للبحث توخياً لتسليط الانوار الكاشفة على تراث أسهم المتخرصون على عفاء بعض معالمه، وذلك بغية ابراز هذه الصفحات المجيدة المطوية والقاتمة الداكنة بفعل التراكم الزمني ومحاولات التعتيم، والمنسية أحياناً في تاريخ العلوم البيولوجية والطبية.

التقدم نسبي :

إن المفهوم المعاصر السائد للعلوم البيولوجية والطبية لم يكن معروفاً لدى المتقدمين من أسلافنا ويعود ذلك لسبب جوهري: تخلف هذه العلوم نسبياً خاصة في حقول علم التشريح وعلم الحياة (البيولوجيا) ووظائف الأعضاء (الفزيولوجيا) لقصور الوسائل في تلك الأزمنة عن الادراك الواعي والمنظم للحقائق العلمية والترابط بين بعض هذه الحقائق وبعضها الآخر.

وكان لاكتشاف المجهر (الميكروسكوب) من قبل الفيزيائي (ليفينهوك) التأثير الكبير والعميم الفائدة في تقدم الأبحاث في العلوم الطبيعية والطبية، إذ ارتكزت هذه الأبحاث على المشاهدة والاختبار الحسيين بفضل منجزات العالم البيولوجي الفرنسي كلود برنار.

لذلك نستطيع القول بأنه لم يكن للعرب في القرن العاشر الميلادي الى القرن الثالث عشر، ولم يكن لغيرهم من الشعوب في الوقت ذاته، علماء بيولوجيون وباحثون علميون حسب المفهوم العصري للأبحاث العلمية نظراً لعدم توفر وسائل البحث العلمي التي تعتبر، كجميع الوسائل امتداداً للعقل البشري كاليدين تماماً. بل كانت الحال السائدة في تلك الأزمنة هي الجمع أو التكامل بالمفهوم العصري لهذه اللفظة بين مختلف العلوم والفنون بحيث يبرز دور العالم العلامة: (Erudition). فالطبيب هو في الوقت نفسه، فيلسوف، وعالم ديني، وقاضٍ متشرع، وعالم فلك، ورياضيّ وفيزيائي وموسيقي احياناً. وما اسماء الاعلام امثال الفارابي، وابن سينا إلاّ الدليل القاطع على ما ترمي اليه.

فكتاب « القانون » في الطب لابن سينا كان المنهل في العلوم الطبية في ذلك الزمان وتمّ تداوله في معاهد الطب في فرنسا وايطاليا قرابة ستة قرون متتالية. لكننا إذا



«رسالة دعوة الاطباء»، للمختار بن الحسن بن بطلان : واحد من مؤلفات طبية لا تحصى وضعها العرب (١٢٧٣م).

ما تناولنا هذا المصنف الضخم بالتحليل لوجدنا انه لم يكن من ديدنه الطب فقط، بل كان يرمي للاحاطة بموضوعين جد متباعدين أو مختلفين بالمفهوم العصري للفصل والتجزئة بين أبواب المعرفة الواحدة. فأحدهما يبحث في الطب (القانون) وثانيهما في الفلسفة الماورائية أو الماتفيزيقية (الشفاء).

أضواء وسط ظلمات :

ومن غريب الأمور وسخرية القدر تجاهل العلماء الغربيين لذلك المنهل العذب الذي عبّ منه اسلافهم، المعين المحيي، لعدة قرون خلت.

كما انهم لم يدركوا امكانية وتوافقية اللغة العربية الأصلية الموغلة في علو الشأو ورفعة المنزلة، ولرقة التعبير وأمانته في آن واحد، وطواعيتها في نقل العلوم المختلفة، والطب أحد فروعها، وحسن أدائها بل والتناغم الدائم بين الصور الذهنية وتألقها وتوهجها في الحروف والكلمات التي تسطر والمقالات التي تدبج وتنشر.

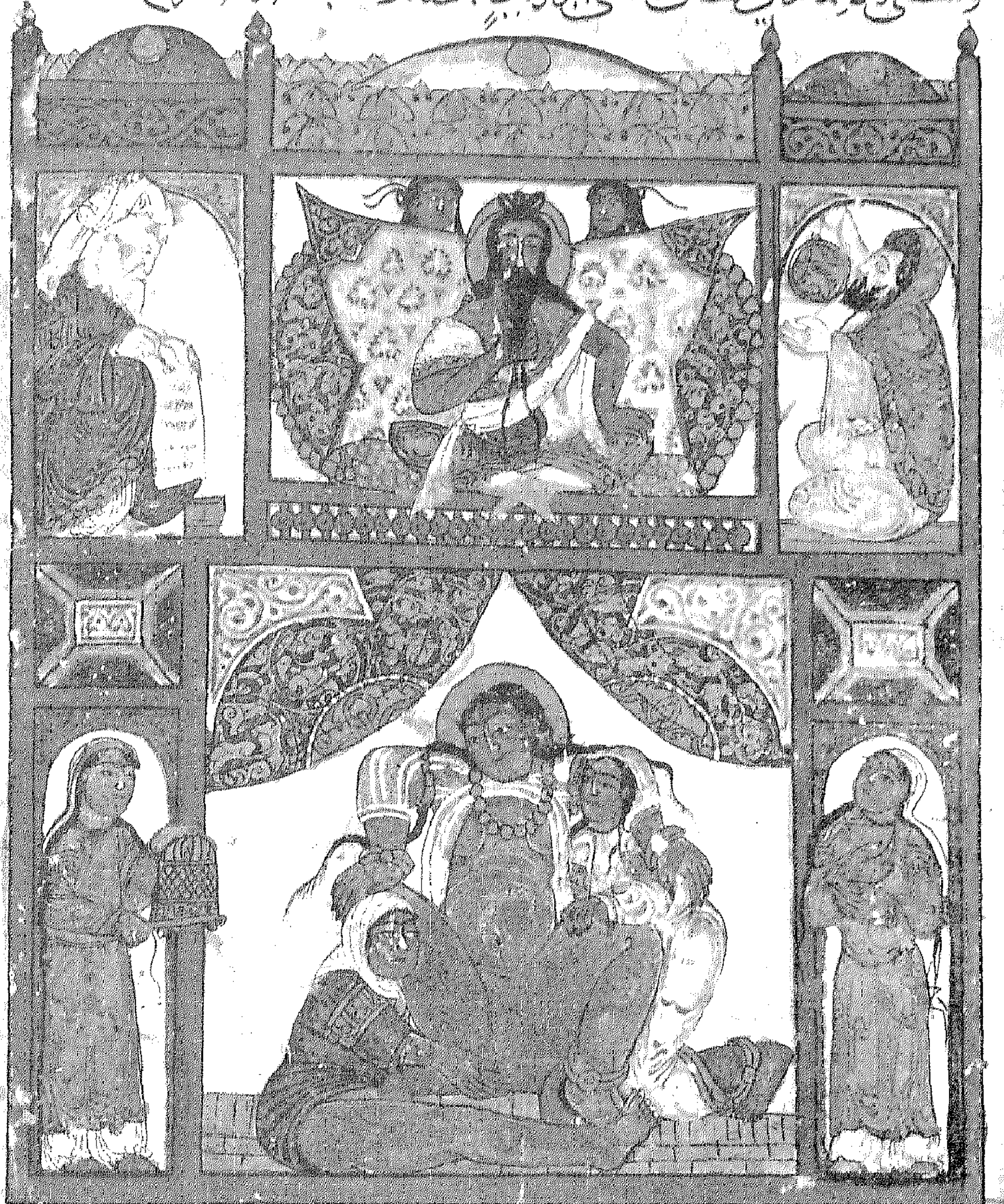
إن هؤلاء العلماء ربما تناسوا انه في الوقت الذي تألقت فيه وشعت اسماء امثال : الكندي، والرازي، وابن سينا وابو القسيس، وابن طفيل وابن النفيس الذين اتحفوا الطب باكتشافاتهم ومنها اكتشافات الدورة الدموية الرئوية، كانت القارة الأوروبية قابعة في غياهب الظلمات، ولم تسع الى أن تشق لها دروباً في تلك الليالي الحالكة.

إنهم، ولا شك، لم يستطيعوا الاكتناه بأنه في الوقت الذي كانت تدبج فيه مئات الآلاف من المخطوطات العلمية وتنشر، في بغداد ودمشق، في القاهرة وقرطبة بلغةٍ فتية متحرّرة من ربقة أي استبداد أو تعسف آسر، في تلك الحقبة، لم تكن اللغة الفرنسية الحية بالمفهوم العصري قد تحررت من اللاتينية ولم تكن تشع مع غيرها من اللغات الأوروبية كالانكليزية، والالمانية والاسبانية... كما تشع اليوم.

● يمكننا الآن بعد هذا التمهيد أن نبرز الخطوط العريضة أو محاور البحث، والتي تُشكل بمجموعها موضوع هذه الدراسة.

وسنستعرض تباعاً الأبواب التالي بيانها :

أولاً : عرض تاريخي مقتضب للعلوم الطبية عند العرب ودور الترجمات للمصنفات العلمية اليونانية في تقدم هذه العلوم، وكان للنسطوريين علو المنزلة في هذا المقام.



ساعة الولادة : رسم يحيى بن محمود الواسطي (سنة ١٢٣٧م).

ثانياً : ابن سينا ودراسة الدم. والنبض. والأوعية الدموية وسريان الدم فيها.

ثالثاً : ابن طفيل ودراسة الدم التي تبرزها رسالة «حي بن يقظان».

رابعاً : علاء الدين ابن النفيس واكتشاف الدورة الدموية الرئوية مع تحليل لدراسته النقدية لكتاب القانون في الطب لأبن سينا.

العرض التاريخي لتطور الدراسات في العلوم الطبية :

يعتبر اكتشاف الدورة الدموية من المنجزات الفائقة الأهمية في تاريخ العلوم الطبية والبيولوجية.

وقد حفلت الكتب الباحثة في تاريخ العلوم باسماء لامعة نذكر منها اسم البريطاني «هارفي» (Harvey)

والفرنسي ميشال سيرفيه (M. Servet) وريالدو كولومبو وسيزالبان من المدرسة الايطالية في القرن السادس عشر الميلادي.

إنّ الشهرة الذائعة الصيت للعالم البريطاني هارفي تُرجع اليه الفضل في هذا المضمار، ليس في المصنفات الطبية والبيولوجية فحسب بل في الكتب المدرسية التي تبحث في علم وظائف الجسم البشري للصفوف المتوسطة والثانوية.

لكنّ توهج اسم هارفي ما لبث أن خفت، دون ان يؤثر ذلك في علو منزلته في دراسة الدم وكل ما يصاحبها من التجارب الفذة التي قادها والنتائج العميمة الفائدة التي توصل اليها.

وكان لاكتشاف بعض المخطوطات العلمية المدبجة باللغة العربية تأثير في قلب المفاهيم السائدة رأساً على عقب.

وتؤكد هذه المخطوطات داحضة جميع الاطروحات التي سبقتها، على الدور الفذ والرائد الذي قام به الطبيب العربي ابن النفيس الذي اكتشف الدورة الدموية الرئوية أو الدورة الدموية الصغرى، قبل المدرسة الايطالية بثلاثة قرون، أي في القرن الثالث عشر الميلادي. وكان الفضل في الكشف عن هذه الوثائق الدامغة للطبيب المصري محي الدين التطاوي الذي عثر في مدينة برلين عام ١٩٢٤ على مخطوطة ذات أهمية كبيرة فسحت له المجال لنيل درجة الدكتوراه في العلوم الطبية بعد ان شكلت موضوع رسالته الجامعية.

وفي الوقت ذاته عثر الالماني «ماكس ما يرهوف» على وثائق أخرى تتعلق بالموضوع نفسه في تعليل دوران الدم بحيث يمكننا التأكد من ان الطبيب العربي علاء الدين ابن النفيس قد توصل بأبحاثه الى اكتشاف الدورة الدموية الرئوية، وكما سنثبت ذلك بالأدلة والقرائن الدامغة فيما بعد. وقد عاش هذا العالم الكبير في القاهرة ودمشق في القرن الثالث عشر الميلادي أي منذ ما يقارب السبعمائة سنة.

وقد أبرز المؤرخ الكبير «لكلرك» دور العلماء العرب في الطب في ابحاثه الأولية خاصة قبل أن يكون علماً منظماً له قواعده واصوله، وكان للصدفة حيناً ولدقة المشاهدة أحياناً دور في توصل هؤلاء العلماء لاكتشافات كبيرة الأهمية وعميمة الفائدة في العلوم الطبية في الأزمنة الوسيطة.

وفي الوقت نفسه تطرق لكلرك الى تبيان الأثر الكبير لمدرسة «جنديسابور» الطبية في بلاد الفرس وتناول بالبحث الطبيب المشهور الحارث بن خلدة.

وكان لانهيار الامبراطورية الرومانية الغربية الاسهام المباشر في توقف التطور في ميادين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية على حد سواء في العالم الغربي.

بينما برز دور مدرسة الاسكندرية بفضل ترجمة أو نقل الروائع اليونانية التي كان لها التأثير البالغ الأهمية في تطور العلوم البيولوجية والطبية التي اصبحت تستند معتمدة مبادئ التحليل العلمي، والنقد والاختبار.

ومن جانب آخر برز دور مدرسة النسطوريين في القرن الخامس الميلادي وهي المدينة التي أسهمت بشكل بارق وهاج وعميق في تطوير العلوم على يد نصاري الشرق الذين نقلوا من اليونانية الى السريانية الدرر الفريدة لعلماء الاغريق القدامى. وكان لمسيحيي الشرق الفضل الكبير في الاشعاع العلمي في سوريا والعراق ولبنان.

وأدى التطاحن الديني بين البيزنطيين والنسطوريين الى هجرة هؤلاء نحو بلاد الفرس حيث أسسوا عُمد مدرسة جنديسابور الطبية السالفة الذكر، فشعت منها العلوم الطبية وكانت القبس والمنارة في آن في الوقت الذي كانت اوروبا قابعة في غياهب الجهل والجهالة نظراً لعدم قدرتها في ذلك الزمان على أن تشق لها طريقاً تحت الشمس في ميادين التجارب والعلوم لأنها كانت مفتتة وكانت شعوبها عاجزة عن اللحاق بموكب العلم بسبب البدائية من جهة والتطاحنات والحروب القبلية من جهة أخرى.

ولم تعتمد مدرسة جنديسابور الطبية اللغة السريانية أو الفارسية كما يتبادر الى الذهن للوهلة الأولى، بل على النقيض كانت اللغة العربية هي اللغة المعتمدة في التدريس الجامعي والعالي.

يمكننا أن نستخلص بانه لم يكن للعرب قبل الاسلام مدنيّة مشرقة وحضارة مشعة.

وتسنى لبعض طلاب العلم من اليمن والحجاز السفر الى مدرسة جنديسابور كي ينهلوا من معينها العلوم الطبية حيث حصل التماس والتمازج الثقافيان بين العرب والفرس، هذا التمازج الذي أينع وأعطى ثماره الأولى في بغداد فيما بعد.

العلم مؤسسة رابحة:

وبرز بعد الاسلام الدور الكبير للخلفاء المسلمين الذين احسنوا وفادة الفلاسفة وعلماء الطب الى دورهم

وقصورهم أو اسندوا اليهم مهمة تنشئة المؤمنين في حداثتهم . كما أناطوا بهم مهمة تثقيف صغارهم . وترك لهؤلاء الاساتذة حرية معتقداتهم الدينية والمذهبية التي لم تمس. وبذلك برزت روح الاسلام السمحاء التي اندغمت متأصلة بروح المسيحية السمحاء المنفتحة، فتحققت التعددية في الوحدة أو الثنائية في الوحدانية، للمرة الأولى في التاريخ . نتيجة لهذا الحوار ومحصلة لذلك التناغم .

وكانت بغداد قبلة انظار العلماء ومحجهم فوفدوا اليها من كل حدب وصوب وقطنوا في بلاطها الملكي .

ونذكر في هذا المجال الخليفة الذائع الصيت هارون الرشيد الذي أوكل اليهم شؤون تربية واعداد ابنه المأمون الذي أصبح فيما بعد، بعد ارتقائه سدة الخلافة، الدعامة الركائزية للعلوم والفلسفة والفنون.

وكان هاجس هذا الخليفة المستنير أن يعب من معين العلم في اصوله وان يستقصي المعرفة من جذورها. فلم يكتف بالترجمات المنقولة الى السريانية والفارسية. لذلك أوفد المبعوثين الى اليونان والى الهند، لتزويده بالكتب والمصنفات الضخمة أو إستخراج نماذج عنها.

كما شجع هذا الخليفة الرائد مكاتب الترجمات والتأليف وأملى على الامبراطور اليوناني ميشال الثالث بعد انتصاره عليه، في شروط الهدنة بعد الحرب، رغبته في الحصول على عدد كبير من المؤلفات العلمية ذات المقام الرفيع .

وبعد ذلك تيسر للعرب في القرن الحادي عشر تكوين فلاسفتهم، وفلكييهم، ومهندسيهم، ومعمارييهم، واطبائهم...

فأزهر الطب مبشراً بيانع الثمر في بغداد بعد نقل مؤلفات أبي الطب، أو واضع المدماك الأول في صرح العلوم الطبية، أبقراط الى اللغة العربية الى جانب مؤلفات ديسكوريد وغاليان وأورباز وبول داجين والكسندر دي ترال .

وبرز من الأطباء العرب الكندي، والرازي، والفارابي . وابن سينا... وتجدر الاشارة الى دور أحمد بن طولون في مصر الذي شيد داراً للاستشفاء أو مارستاناً كما كانت تعرف بالفارسية لا يزال يحمل اسمه الى يومنا هذا؛ الى جانب الاشعاع العلمي في عهد المعز لدين الله الخليفة الفاطمي ودور دار الحكمة والجامعة الأزهرية. وكانت مدينة القاهرة المعزية «أو مدينة المعز لدين الله» قبلة الأنظار في ذلك الزمان .

وبرز في الأندلس وفي مدينة قرطبة بالذات، الاسبانية اليوم، العلماء الاعلام في عهدي عبد الرحمن الثالث وابنه الحكم الثاني .

وتجدر الاشارة في هذا المجال . الى الدور الضخم في اشعاع العلوم من اسبانيا في ذلك الزمان. ويعترف بذلك جميع مؤرخي وعلماء أوروبا في يومنا هذا . اذ كانت القارة الأوروبية بمجموعها غافلة وقابعة في عصر الظلمات وغير قادرة على «مواكبة الشمس» إلاّ فيما بعد، وبعد ثورتها الصناعية بالذات . هذه الثورة التي دفعت بها في مواكب التقدم والتي تكتوي اليوم بنــارهــا التي أوقـدها الانسان لتقدمه فأصبح يحترق تدريجياً بلهيبها المتأجج . وبعد تحول المجتمعات البشرية الى مجتمعات استهلاك . وبعد أن استشرى سرطان التلوث الطبيعي والنفسي في مجتمعات اليوم مما حدا العالم البيئي الاميركي باري كـومنر. لأن يصرخ بأعلى صوته : «بأن قبائل البوشمان في افريقيا الوسطى، وهم يسعون مئات الأميال للتزود ببعض جرعات من الماء لأغراضهم المعيشية في الصحاري الجافة هم أرقى –على بدائيتهم– من المجتمعات الاميركية والأوروبية على تقدمها المدني، وهي مجتمعات اصبحت فريسة للتلوث الذي أصبح سمة العصر المميزة».

كانت القارة الأوروبية تغط بسبات عميق ورجعية فكرية أو امية حضارية اذا صح التعبير الى أن قدم من الاندلس الى مدينة ساليرنو في ايطاليا والى مدينة مونبيلييه في فرنسا، نفر من الأطباء الاعلام، مزودين بالذخائر العلمية النفيسة وبالروائع في العلوم الطبية فتأسست معاهد الطب وابتدأت تشع بدورها بعد أن تعدت الطاقة المسيرة والدافعة لمعاهد الطب في الشرق وفي الاندلس وبعد تفسخ وانحطاط الأمم الشرقية والتهافت على شهوة الحكم أو شهوة التحكم، فنامت شعوبها وطال نومها وابتدأت الآن تستفيق بعد هذه الغفوة، ممزقة السجف المعتمة ومعيدة انتصارها على ذاتها، بعد أن كانت فريسة لشهوات ذاتها طيلة هذا «السبات الشتوي» على صعيد الفكر.

الحضارة... بالدور:

وكانت ظواهر انحلال المجتمع المتخم والماجن في آن بدء انحسار منحنى التطور التصعدي، نحو «الانسفال» أو الانحدار والتكثف بعد التسامي.

ونستعيد هنا وفي هذا المقام بالذات ذكر الفيلسوف مونتسكيو الذي سطر وللمرة الأولى ربما هذا المنحنى البياني

لتطور الفكر وبالتالي تطور الشعوب صعوداً فركوداً فهبوطاً أو انسفالية أو السعي الدائب الحثيث الى تحت.

ومن الاسباب المشجعة والفاعلة في آن معاً لهذا الانحدار والتقهقر عند أسلافنا العرب، الحروب الصليبية وما تجره وتخلفه الحروب من وبال ونكال الى جانب تأثيراتها النفسية في سلوك الشعوب وتصرفاتها، والغزو المغوليّ على يد هولاكو وجنكيزخان الذي خرب البلاد العربية وطمس معالم حضارتها وغطى بعض هذه المعالم بأتربة متراكمة من الجهل والتخلف الحضاري.

وكان لسقوط الأندلس والحضارة الاندلسية الانسانية وما رافقها من علوم وفنون أدبية وموسيقية خالدة الأثر الكبير في عفاء هذه المعالم الانسانية الحضارية فكانت «ثالثة الأثافي» فانفرطت حبات العقد.

وكان الدور البارز لبعض العلماء الغربيين في المحافظة على التراث الضخم الذي تركه أسلافنا رغم غوائل الدهر وعذابهم ومعاناتهم سعياً وراء المعرفة الواحدة التي تتناقل الشعوب حمل انصبائها وبنودها، كلٌ بدوره وبذلك تتحقق الاضافات البنيوية في صرح الفكر الواحد الموحد والمعرفة الانسانية الشاملة والتي هي ليست وقفاً على شعب من الشعوب.

ونذكر من هؤلاء العلماء الغربيين في القرن الثاني عشر الميلادي جربير وقسطنطين الافريقي وأسقف طليطلة الذين نقلوا من العربية الى اللاتينية بعض المصنفات العربية في العلوم الطبية والبيولوجية.

ومنهم أيضاً مثل روبير دي تاتين وجيرار دي كريمون الذي نقل وحده ما يزيد عن السبعين كتاباً علمياً وفلسفياً ومنها كتاب القانون في الطب لابن سينا وهو أكثرها أهمية وجدارة.

وشجع بعض الحكام في الشرق أمثال شارل دانجو وفريدريك الثالث البحث الاستقصائي والترجمات وبرزت بعض الاسماء مثل اتيان الانطاكي. وفيليب الطرابلسي. اللذين ترجما الروائع العربية الى اللغة اللاتينية فأصبحت لغة العلوم المتداولة في ذلك الزمان. ونحافظ حتى يومنا هذا وفي المصطلحات العلمية على التسمية اللاتينية للمفردات العلمية في علم الحياة (علم النبات وعلم الحيوان خاصة، والعلوم الأخرى) نشداناً للتواصلية في حبال الفكر الواحد للحؤول دون انقطاعها وتيسيراً للتفاهم والتداول بين العلماء ذوي اللغات المتعددة.

لكن العلماء الغربيين فعلوا كالعرب الذين تقدموهم فأوغلوا في البحث والتنقيب في اليونانية المنهل الأول للمنقبين كافة بالاضافة الى نقلهم الى اللغة اللاتينية التراث العلمي الذي ورثوه عن أسلافهم العرب الذين شكلوا الجسر المتين بين الثقافة اليونانية الموغلة في القدم. والثقافة الغربية العصرية.

التعريف بابن سينا ومكتشفاته:

هو الحسن بن عبد الله بن علي بن سينا المكنى بابي عليّ والملقب بالشيخ الرئيس. درس الطب على يد عيسى بن يحيى فنبغ وأصبح مرجع الأطباء وهو في السادسة عشرة من سنيه. وكان للأختبار تأثير طيب في مقدرته الطبية قال: «ثمانية عشر شهراً ما نمت فيها ليلة واحدة بطولها، استعين على عجزي بالابتهال الى الله فيهديني وعلى استلامي الى النعاس بقدحٍ من الشراب يوقظني، ومتى أغمض الكرى أجفانيَ تكشفت لي المشاكل العويصة عن حلول لم تكن اليقظة لتهديني الى مثلها».

تحليل كتاب القانون المتعلق بدراسة الدم[1] :

نجد خمسة فصول تبحث في الشرايين ومصدرها وشكلها وعددها. ومن الامور الغريبة بل والمنطقية بلغة علم التشريح ذكر ابن سينا للوريد الشرياني والشريان الوريدي كأنه كان على بينة بدقائق علم التشريح المعاصر. فكانت تسميته المزدوجة تلك تأخذ في عين الاعتبار معاً طبيعة الغلاف للوعاء الدموي وصنف أو طبيعة الدم الذي يسري في تلك الأوعية.

وفيما يتعلق بالشريان الوريدي المعروف اليوم باسم الشريان الرئوي فان ابن سينا يؤكد على انبثاقه أو تولده في جدار القلب ثم ذهابه الى الرئتين حيث يتشعب منقسماً الى وعاءين اثنين. كل الى رئة ليخالط الدم الذي يحوي العناصر البالغة الشفافية (أي أوكسجين الهواء بالمفهوم العصري) في الرئتين حيث يتم تبادل الغازات التي لم تكن معروفة في ذلك الزمان. ويقول بالحرف الواحد: «استنشاق النسيم» في الرئتين.

فطبيعة غلاف هذا الشريان بالمفهوم العصري هي عضلية ملساء مطاطة لكن الدم الذي يسلك فيه هو دم وريدي أي دم مشبع بغاز ثاني أوكسيد الكربون. ففاقت تسمية ابن سينا له دقة وأمانة علمية التسمية العصرية

وتصح تسمية الأوردة الشريانية على الأوردة الرئوية الاربعة التي تنقل الدم المشبع بغاز الاوكسجين من الرئتين

الى الاذين الأيسر من القلب فطبيعة غلافها غير مطاطة. لكن الدم الذي تنقله هو دم شرياني قان وليس قاتما كالدم الذي ينقله الشريان الوريدي أو الشريان الرئوي.

أليس ذلك من العجب العجاب قبل توصل الأبحاث العلمية لغازات التنفس من جهة (الأوكسجين وثاني أوكسيد الكربون) وقبل الالمام الكافي والتبحر في علم تشريح الأنسجة.

ثم يخصص ابن سينا فصلاً لدراسة الشريان الأبهر أو الأورط وهذه الأسماء اطلقها عليه أرسطو من قبله وتقارب تماماً مفهومنا العصري لطبيعة هذا الشريان الحيوي الدافع للدم القاني المشبع بالاوكسجين الى خلايا الجسم جميعها مؤمناً لها هذا الغذاء الغازي الضروري لعملياتها الاستقلابية أو التحويلية.

ويتكلم طبيبنا الفيلسوف ونابغة عصره ابن سينا عن «انحناء هذا الشريان» أو تقوسه كأننا أمام عالم تشريح معاصر ثم يذكر الشرايين الصغيرة المتفرعة من هذا الشريان الضخم والتي تنقل الدم الى مختلف انحاء الجسم البشري.

دراسة الأوردة الدمويّة[٢] :

يطلق ابن سينا على هذه الأوعية اسم «العروق الساكنة» ويخمن بانها تتولد من الكبد ويبدع في هذا المجال عندما يتكلم عن «الوريد الباب الكبدي» كما يعرف في كل اللغات العالمية اليوم.

ولا يقتصر دور ابن سينا على تسمية هذا الوريد فقط بل يتوغل لمعرفة اصوله وطبيعة الدم الذي يسري فيه. فيذكر أن اصول هذا الوريد الكبدي تكمن متأصلة في الأعضاء البطنية الأخرى كالطحال والمعدة والأمعاء فيقول: «هذا الوريد يجلب الغذاء الى الكبد ويخلق في الأمعاء والطحال...».

وهذه مفاهيم عصرية لدور نقل الأغذية السكرية والبروتينية (الأحماض الأمينية) مع الماء والأملاح بعد عملية الامتصاص في الجدار المعوي من الأمعاء الدقيق الى الكبد الذي أبرز دوره «كمختبر» يحصل فيه التركيز والتحويل العالم البيولوجي الذائع الصيت كلود برنار بعد اجراء سلسلة من التجارب الخارقة ومنها تجربة الكبد المغسول لاثبات دور هذه الغدة الحيوي في انتاج سكر الغلوكوز أو سكر العنب. بعد أن خزن السكر الغلوكوزي محولاً إياه إلى غلوكوجين.

لكنّ وصف ابن سينا للوريد الأجوف السفلي فيه الكثير من الغموض وعدم الدقة لأنه يعتبر أن هذا «الوريد ينبت من الكبد» كما يقول بحيث يبتعد عن المفهوم العصري الذي يؤكد على انبثاق هذا الوريد الأجوف من الوريدين الفخذيين.

لكنّ ذلك لا يدل على جهل ابن سينا لدور وطبيعة هذا الوريد تماماً نظراً للقصور في وسائل التشريح. ولعل وجود الأوعية الوريدية تحت الكبدية والتي تنبثق من الكبد وتصب كما نعلم في الوريد الأجوف السفلي. جعل هذا العالم الفذ يصر على انبثاق الوريد الاجوف السفلي من الكبد نفسه.

تشريح القلب[٣] :

يقول ابن سينا وبوضوح كليّ:

«هو لحم قوي فيه أصناف من الألياف قوية شديدة. وهو منبت الشرايين من الجانب الأيسر».

أليس في هذا العرض المبسط الواضح. «روح العصر» عن العضلة القلبية وأليافها. و«منبت» الشرايين في الجانب الأيسر منها خاصة الشريان الأبهر أو الأورطي؟! لكن طسنا البارز يخمن وجود اتصال بين الجويفين الأيمن والأيسر كما يحصل في بعض العاهات القلبية. وهذا مبدأ غير صحيح اطلاقاً. متوارث عن السلف الطيب الذكر ونقصد غاليان وارسطو على وجه التحديد وسنبين في سياق البحث الدحض الموضوعي على يد ابن سينا كما سيأتي بيانه فيما بعد.

أمراض القلب :

لا شك في ان المعلومات الواردة في هذا المجال تنقصها الدقة لتعسر سبل البحث العلمي وطرق القياس غير المتوفرة آنذاك. ويبدو بعض هذه المعلومات مستهجناً وغير ذي فائدة إذا ما قيس بالمعلومات العصرية. لكننا سنذكر بعضها دلالة على مدى الالمام الكافي في ذلك الوقت. ويكفي ابن سينا كما يكفي من سبقوه اعتزازاً أنهم تطرقوا لدراسة هذه المواضيع بوسائلهم البدائية وذلك بغية إستشفاف انماط التطور في مفاهيم علم الحياة أو البيولوجيا.

ويذكر ابن سينا عدة اساليب للكشف عن عاهات القلب أو امراض العضلة القلبية منها:

النبض: ويُستخدم اليوم من قبل الاطباء الاخصائيين كوسيلة أولى وكلنا يعلم أهمية «جس عرق الساعد» كما هو متعارف عليه عند عامة الناس.

الشهيق والزفير : هنالك علاقة وثيقة بين وهن عضلة القلب وتعسر التنفس أو عدم انضباطيته.

القوة البدنية والوهن الناتج عن «تراكم السنين» أو التقدم في السن وكلنا يعلم امكانية تعرض المسنين لأمراض القلب بنسبة تفوق كثيراً امكانية تعرض الأحداث لهذه الأمراض اللهم إلاّ في بعض العاهات الوراثية أو التكوينية.

شكل الصدر : وكلنا يرى كيف يتكور الصدر ويبرز عند الرياضيين ودور التربية البدنية في الجمال الجسماني.

ويخص ابن سينا بعض الفصول لدراسة امراض القلب منها :

- فصل في علامات أمراض القلب : الضعف والانحلال أو القوة.
- فصل في الاسباب الموترة للقلب : الانفعالات النفسية.
- فصل في الموت فجأة.

وكلها فصول ذات قيمة في تشخيص العاهات القلبية واساسية في سبل العلاج.

النزيف الدمويّ(٤) :

سنعرض ما تطرق اليه ابن سينا في هذا المجال تاركين التعليقات للقارئ المستنير.

«النزيف الشرياني : فتح في فوهة أحد الشرايين فيعسر التحامه وفي الشرايين الصغار يحتبس من تلقاء نفسه».

هل يختلف المفهوم العصري لتشخيص السبب المادي للنزيف الشرياني عن هذه الكلمات بشيء رئيسي ؟.

النبـــض(٥) :

لندع ابن سينا نفسه يفصح عن مفهومه :

«كل نبضة مركبة من انبساط وانقباض يمكننا الوقوف عليها بجس عرق الساعد».

ثم يذكر عدة صنوف للنبض فيذكر :

- النبض الموجي.
- النبض النملي.
- النبض الدوريّ.
- النبض التواتري.

ثم يتطرق الى «نبض الفصول» أي فصول السنة ويؤكد أن النبض يكون طبيعياً معتدلاً في فصل الربيع. تواترياً وسريعاً في الصيف. وبطيئاً في الشتاء.

فيقول :

«يكون النبض في الربيع معتدلاً. وفي الصيف سريعاً متواتراً. وفي الشتاء بطيئاً». ويختلف النبض باختلاف الجنسين. فهو أقل تسارعاً عند الذكر وأشد توتراً عند الأنثى (مبدأ عصري).

في النبض الذي توجبه المتناولات(٦) :

يزداد تواتر النبض بعد إدخال الأطعمة في القناة الهضمية (مبدأ عصري).

النبض والتمارين الرياضية :

يشتد النبض ويزداد توتره عند ممارسة التمارين الرياضية، وكلنا يلاحظ ازدياد خفقان القلب بعد العدو أو الركض.

ثم يتناول تأثير النوم والاستحمام في نبضات القلب فيؤكد انه اثناء النوم يتباطأ النبض ويشتد اثناء اليقظة. ويسهم الماء البارد في خفض نبضات القلب بينما يزيد الماء الحار الشديد السخونة من تسارعه.

ويتناول ابن سينا أخيراً علاقة النبض بالأورام والحميات فيقول :

«الورم إما أن يغير النبض بنوعه. وإما أن يغيره بوقته، وإما أن يغيره بمقداره. وإما أن يغيره بالنسبة للعضو الذي هو فيه».

ومن الملاحظ هنا التقارب في الاسلوب العلمي بين ابن سينا وخليفته النابغة كلود برنار الفرنسي ●

الهوامش

(١) القانون في الطب، دار الكتب الوطنية. لبنان. ص ص ٢٩-٣٢.
(٢) المرجع نفسه ص ٤٠٣.
(٣) المرجع نفسه ص ٤١١.
(٤) المرجع نفسه ص ٩٥٠.
(٥) المرجع نفسه ص ص ١٦١. ٣٣٢.
(٦) القانون في الطب، ص ٦٦ (طبعة روما. القرن السابع عشر).

حول الحلقة الدّراسية في الجامعة الأميركية في بيروت ٢٩ - ٣١ ايّار (مايو) ١٩٧٩

خالد عايد(*)

الحياة الثقافية والسياسية في الشرق العربي ما بين ١٨٩٠ و ١٩٣٩

(*) خالد عايد: طالب دراسات عليا في الجامعة الاميركية في بيروت.

● نظمت دائرة التاريخ ومركز الدراسات العربية ودراسات الشرق الأوسط في الجامعة الأميركية في بيروت حلقة دراسية موضوعها «الحياة الثقافية والسياسية في الشرق العربي في الفترة ما بين ١٨٩٠ و١٩٣٩». وقد بدأت هذه الحلقة في التاسع والعشرين من أيار (مايو) الماضي واستمرت حتى الواحد والثلاثين منه، واشترك فيها عدد من الأساتذة الجامعيين في الجامعة وفي الخارج.

فكرة تنظيم حلقة دراسية تتناول المسائل المختلفة المتعلقة بالتاريخ الفكري والسياسي للشرق العربي كانت موضع بحث في دائرة التاريخ في الجامعة الأميركية في بيروت منذ مدة. هُنالك أبعاد اقتصادية واجتماعية لم تكشف بعد. كما ان هنالك مفكرين عديدين لم يعطوا الاهتمام الكافي لسبب أو لآخر. أما اختيار الفترة من ١٨٩٠ إلى ١٩٣٩ فيعود إلى أنها تشتمل على حقلين من حقول البحث: أواخر العهد العثماني، والانتداب الأجنبي (الفرنسي والبريطاني).

ثلاث خصائص ميزت إعداد الحلقة الدراسية وتنفيذها، هي - كما قال البروفسور مروان بحيري الذي لعب دوراً بارزاً في الاجراءات التحضيرية للحلقة -:

أولاً: ان المشاركين في تقديم الأبحاث هم أنفسهم الذين كانوا يناقشونها، وطوال ثلاثة أيام، الأمر الذي أعطى «مفعولاً تراكمياً» من اليوم الأول وحتى الآخر.

ثانياً: اعطاء الأولوية في الحضور لطلاب الدراسات العليا في قسم التاريخ والآثار ودراسات الشرق الأوسط والحقول الأخرى المتعلقة بها، وذلك على اعتبار أن الحلقة الدراسية جزء لا يتجزأ من البرنامج الأكاديمي في تلك الحقول.

ثالثاً: اجراء حوار ليس فقط بين أساتذة التاريخ في الجامعة الأميركية وزملائهم في الجامعات الأخرى، بل وأيضاً بين التاريخ وغيره من العلوم الاجتماعية كالعلوم السياسية والأدب العربي وعلم الاجتماع والانتربولوجيا والدراسات الدينية.

الأبحاث المقدمة:

توزعت الأبحاث الستة عشر التي قدمت في الحلقة الدراسية على خمس دورات. وفيما عدا اثنين من هذه الأبحاث عرضا موضوعات عامة، فإنه كلا منها تناول «الأبعاد غير المكشوفة» في فكر واحد من المفكرين العرب الذين عاصروا الفترة موضع البحث.

الدورة الأولى افتتحها البروفسور كمال الصليبي، رئيس دائرة التاريخ والآثار في الجامعة الأميركية، بالترحيب بالمشاركين في الحلقة. وقد أكد الصليبي في كلمته على الحاجة إلى كتابة أولية للتاريخ السياسي الحديث للشرق العربي، طالما أنه ما زال هنالك مفكرون غير معروفين يستحقون المزيد من الاهتمام، وذلك دون الاستهتار بما كتب حتى الآن في مجال تاريخ الفكر العربي الحديث.

البروفسور روجر أوين (كلية سانت انطوني، اكسفورد) تحدث عن «القومية الاقتصادية والبرجوازية الوطنية» في مصر. تناول أوين نشأة البرجوازية المصرية في إطار علاقة الاقتصاد المصري بالرأسمالية الغربية، كما تناول الأفكار القومية التي طورتها هذه البرجوازية. وقال ان تركيز هذه الطبقة على القومية انما يعود إلى سببين رئيسيين هما: تحسين موقعها ضمن إطار العلاقة مع الرأسمال الغربي ومنع تطوير أية ايديولوجية تلحق الضرر بمصالحها الإقتصادية. وأضاف أنها نجحت في الأمرين حتى بداية ثورة ٢٣ تموز ١٩٥٢. فأبقت الدولة في خدمتها بدلاً من أن تخضع لها. وخلص أوين إلى الاستنتاج ان الأفكار القومية التي نشأت في مصر كانت تعكس نقاط قوة البرجوازية المصرية ونقاط ضعفها وتشوشها في آن معاً. فهذه الطبقة، وان اهتمت بتطوير الصناعة المحلية كصناعة النسيج والكيميائيات وغيرها، إلا أنها لم تعتبر أنه من الواجب أن يكون الرأسمال مصرياً وكانت مستعدة للاتكال على الأجنبي.

أما البروفسور دومينيك شوفالييه (جامعة باريس، السوربون) فقد تحدث عن «الشرق الأدنى قبل ١٩١٤: تاريخ وأفكار سياسية». عن الشرق العربي قبل التوسع الأوروبي قال شوفالييه انه كان مجتمعاً يتصف بالانغلاق والتراتب. وأضاف انه انطلاقاً من الخصائص الأصلية والتغييرات الحاصلة يصبح من الأهمية بمكان معرفة مدى تأثير اقتباس النماذج الفكرية الغربية من جهة وتأثير الدفاع عن النماذج الفكرية المحلية والمحافظة عليها من جهة ثانية، على المفكرين في الشرق الأدنى في الفترة موضع الدراسة. (مثلاً، مفهوم بولس نجيم عن الحدود الطبيعية للبنان، وهو مفهوم مقتبس عن مفاهيم فرنسية، لا معنى لها ضمن إطار الامبراطورية العثمانية). وتوصل شوفالييه إلى الاستنتاج بأن الغرب لم يحصل من مفكري الشرق العربي إلا على صورته هو، وانه إذا كان هذا الشرق يريد التحديث فعليه الرجوع إلى ذاته وتحقيق ذاته مع المطالبة بالانضمام إلى العالم الحديث.

البروفسور يوسف ايبش (دائرة العلوم السياسية والادارة العامة، الجامعة الأميركية في بيروت) تحدث عن «نظرة شكيب ارسلان إلى التقدم» قائلاً إنه بالامكان تجزئة نظرته هذه إلى ثلاث دوائر متداخلة. فقد كان إرسلان قائداً شوفياً درزياً من جهة، وعربياً قومياً من جهة ثانية وعثمانياَ مسلماً من جهة ثالثة. وفي حين لم يكن ثمة من تناقض بين هذه الدوائر، فان الواحدة منها تصبح مهمة وفقاً للحافز الدي توفره الأحداث المحددة. وحول المشكلة الأساسية عند إرسلان، قال ايبش إنها لم تكن تدور حول وجود الله أو عدمه أو حول ازلية الكون، وانما حول أسباب تأخر الاسلام في حين يتقدم آخرون. ان السبب الرئيسي في هذا التأخر، كما يرى إرسلان، يقوم في أن الناس ابتعدوا عن الأصول الدينية، عن القرآن. وهكذا جاءت دعوته إلى العودة إلى تلك الأصول واغلاق الباب في وجوه الدجالين. ان أهمية ارسلان حسب ما ذهب إليه ايبش، هي انه أعطى جواباً من الداخل عن المشاكل التي واجهتها الأمة بعد تعرضها للتوسع الغربي.

الدورة الثانية

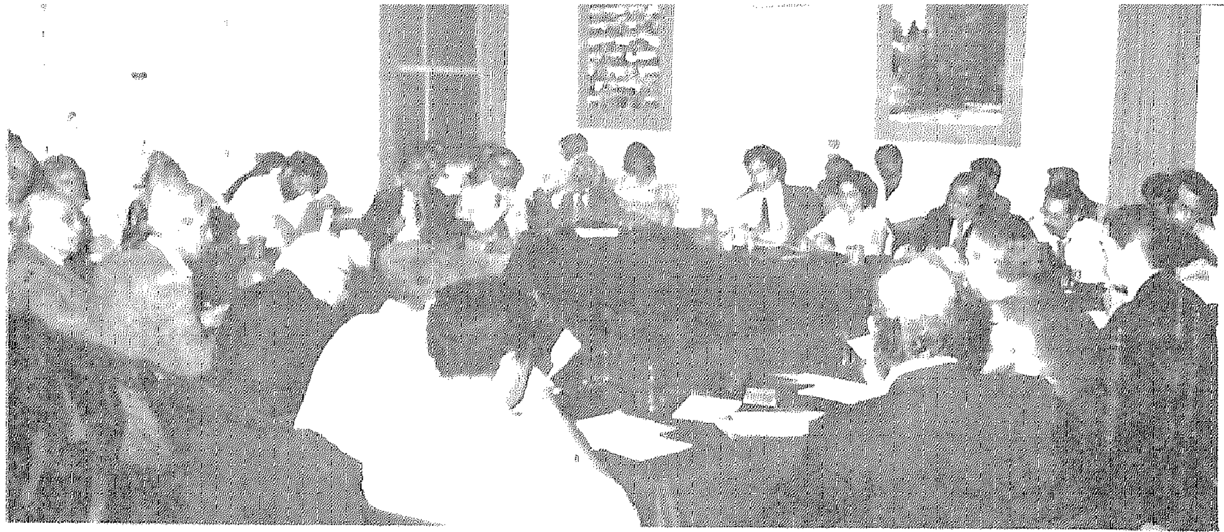
في الدورة الثانية من الحلقة الدراسية تحدث كل من البروفسور هشام نشابة (دائرة التاريخ في الجامعة الأميركية في بيروت) والبروفسور طريف خالدي (دائرة التاريخ في الجامعة الأميركية في بيروت) والبروفسور سمير صيقلي (دائرة التاريخ في الجامعة الأميركية في بيروت) والبروفسور عباس كليدار (مركز الدراسات الشرقية والافريقية – لندن).

هشام نشابة تحدث عن حياة الشيخ عبد القادر قباني ومجلته «ثمرات الفنون» ذات التوجه الاسلامي. قال نشابة انه في حين انصرف مفكرون آخرون كالافغاني وإرسلان وعبده إلى العمل السياسي، فإن الشيخ قباني كان يؤكد على ضرورة تجسيد الأفكار في مؤسسات، إذا ما أريد لتلك الأفكار أن تكون فاعلة. وأكثر من ذلك، كان القباني يرى أن تكون هذه المؤسسات اجتماعية وتربوية، خلافاً لغيره ممن كانوا يرون أن تكون سياسية. كما أكد على أهمية تعليم المرأة. وانطلاقاً من هذا كله، كان الاسهام الكبير الذي قدمه الشيخ قباني في تأسيس ورعاية جمعية المقاصد الاسلامية. ولا عجب أن تكون أول مدرسة تابعة للجمعية هي ابتدائية للبنات.

أما طريف خالدي فقد دار بحثه حول «الشيخ أحمد عارف الزين ومجلة العرفان»، التي صدرت في جبل عامل (١٩٠٩ – ١٩٣٩). تحدث خالدي عن دائرتين: داخلية تتعلق «بالصورة الذاتية» للمجلة، وخارجية تتعلق بالبنية الاجتماعية في الجبل. عن الأولى، قال خالدي ان المجلة ذات الخط الديني العام، غير الايديولوجي، اشتملت على البعد الرئيسي المتمثل في ان جبل عامل كان عربياً مسلماً منذ البداية. وقال ان المجلة تعكس ثورة رجال الدين الشباب الغاضبين ضد مؤسسة العلماء (١٩١٩). وقد بلغت هذه الثورة حد مهاجمة مبدأ الاجتهاد الشيعي وخلع العمامة، وكذلك مهاجمة السيطرة الأجنبية. وضمن إطار الدائرة الثانية، عرض خالدي كيف انه بالامكان، استناداً إلى العرفان، تقسيم مجتمع جبل عامل إلى أربع طبقات هي الزعماء والعلماء والوجهاء وعامة الفلاحين، وان المفتاح لفهم التغير الاجتماعي يكمن في ضريبة الاراضي وعمليات مسحها. وخلص خالدي إلى الاستنتاج الى المجلة، شأنها في ذلك شأن طبقة العلماء التي كان ينتمي إليها رئيس التحرير، قد اتخذت موقفاً مترفعاً من السياسة اليومية، وان لم يكن من القضايا النظرية والسياسية.

سمير صيقلي تناول في البحث الذي قدمه «محمد كرد علي والمقتبس»، ورأى ان المجلة تعكس المجتمع العربي على نحو أكثر مباشرة من غيرها. وقد تناول صيقلي نظرة محمد كرد علي إلى ثلاث مدن بوصفها رموزاً تمثل موقفه من التغيير والاستعمار الغربي. فباريس هي مدينة النظام والترتيب، عاصمة معظم الخافقين، رمز التقدم والمدنية، وباختصار رمز «الحديث». انها عند كرد علي ما يتمنى ان تكون المدن العربية. أما اسطنبول، فهي لا تمثل «القديم» وحسب، بل وما هو سيء في هذا القديم. انها تفتقر إلى التعليم والحرية السياسية. واللغة التركية لا هي لغة دين ولا لغة علم ولا لغة حضارة. أما القاهرة، في منتصف الطريق بين باريس واسطنبول، فهي تمثل الزواج الموفق بين الحديث والقديم. فيها التقى كرد علي محمد عبده وغيره وتتلمذ على يديه. ومنها يمكن أن نشهد ولادة حضارة عربية – غربية جديدة. وكذلك فإن محمد كرد علي، كما يظهر على صفحات المقتبس، يعي أشكال التوسع الغربي، الايطالي في ليبيا والفرنسي في الجزائر والصهيوني في فلسطين وفوق ذلك، فهو يدعو العرب المنبثين من شواطىء بحر الظلمات الى شواطىء المحيط الهندي إلى التركيز على التعليم. وهو يعطي لرابطة اللغة أهمية خاصة: فعظمة الغرب، كما يعتقد، تكمن في التعليم أولاً ومن ثم في التقدم الاقتصادي.

أما موضوع البحث الرابع والأخير من الدورة الثانية



مشهد عام للحلقة الدراسية.

والذي قدمه عباس كليدار فهو «الشيخ علي يوسف: صحافي سياسي وقومي مسلم». في هذا البحث تحدث كليدار عن أهمية الصحافة، في مصر خاصة، وكيف لعبت دور الأحزاب السياسية في تشكيل الرأي العام. وكان من بين صحف الفترة موضع الدراسة مجلة «المؤيد» التي أصدرها الشيخ علي يوسف، ذو المنبت الاجتماعي المتواضع، وأول صحافي تضطهده السلطة لنشره معلومات حكومية. على صفحات «المؤيد»، دعا الشيخ يوسف إلى التضامن الاسلامي، وليس إلى دولة اسلامية واحدة. كما دعا إلى الحد من سلطة اللورد كرومر ومن تدخل المستشارين البريطانيين في ادارة شؤون البلاد. ودافع عن حرية الصحافة. ولكن الفكرة الرئيسية التي كانت تتكرر باستمرار في المجلة هي الاصلاح: بدءاً بنظام الري مروراً بالنظام التعليمي وانتهاء بوضع المرأة. ان سيرة حياة الشيخ علي يوسف ومجلته المؤيد مثال واضح على دور الصحافة في أواخر القرن التاسع عشر كمنبر سياسي لمواجهة السيطرة الغربية والدعوة إلى النهضة الاسلامية.

الدورة الثالثة

الدورة الثالثة من الحلقة الدراسية، استهلها البروفسور ستيفن وايلد (جامعة فريدريش فيلهلم، بون) بالبحث الذي قدمه حول نجيب عازوري وكتابه القومية العربية المنشور سنة ١٩٠٥. ان الحكم التركي، كما يرى عازوري، حكم بربري ويفتقر إلى الفعالية. والعرب الذين كانوا من الأتراك، ومن الأتراك فقط، يكرهون هذا الحكم. وتبنى عازوري الدعوة إلى القومية العربية، تلك الدعوة الهادفة إلى إقامة دولة عربية واحدة تمتد من دجلة والفرات وحتى السويس (أي الهلال الخصيب زائداً شبه الجزيرة العربية). ليس هذا فحسب، بل اشتهر عازوري بموقفه الصلب تجاه المطامع الصهيونية في فلسطين. ولكن الجدير بالذكر، حسبما يرى وايلد، ان دعوة القومية العربية التي تبناها عازوري انما كانت تأتي ضمن اطار المصالح الاستعمارية في المنطقة، وانها كانت بالأساس دعوة للفرنسيين لكي يحلوا محل الأتراك. ويستنتج وايلد أن نجيب عازوري الذي درس في باريس وهرب إليها سنة ١٩٠٤ بعدما حكمت عليه السلطات العثمانية بالموت، كان يوجه كتابه للاستهلاك الأوروبي بصورة رئيسية.

بعد وايلد، جاء دور البروفسور رشيد الخالدي (دائرة العلوم السياسية والادارة العامة في الجامعة الأميركية في بيروت) وبحثه الذي يدور حول «عبد الغني العريسي والمفيد: الصحافة والقومية العربية قبل ١٩١٤». الاطار العام لبحث الخالدي، كما يظهر من العنوان، وهو دور الصحافة في حركة القومية العربية في الفترة السابقة للحرب العالمية الأولى. بعد أن عرض الخالدي لحياة العريسي، تناول بالتحليل أهمية صحيفة «المفيد». فهي صحيفة ولاية بيروت التي تشمل معظم الشاطئ السوري، من يافا حتى اللاذقية. وهي صحيفة القومية العربية، صحيفة كاملة لها مراسلون في أنحاء متفرقة من الولاية — كما يظهر من الاعلانات المنشورة فيها. وكان عشرة ممن أعدمهم جمال باشا سنة ١٩١٦ يكتبون فيها بانتظام (رفيق العظم، عبد الحميد الزهراوي، شكري العسلي وغيرهم). أما أهم أفكار «المفيد» فتتعلق بالقومية العربية والاسلام ومواجهة السيطرة الأجنبية. كانت الصحيفة ترى بضرورة احترام الاسلام. وان لا تناقض بين القومية والاسلام. وكانت تدعو إلى قومية عربية تجمع العرب — المسلمين وغير المسلمين — ضمن اطار الامبراطورية العثمانية. كما اتخذت خط العداء للتتريك والاستعمار الأوروبي والصهيونية (ولكن دون العداء لليهود).

أما البروفسور وليد قزيهة (الجامعة الأميركية في القاهرة) فقد قدم بحثاً بعنوان «قراءة أخرى في مفهوم القومية العربية عند ساطع الحصري». يرى قزيهة انه يجب

وضع هذا المفهوم ضمن اطار الظروف الاجتماعية والسياسية التي مر بها الشرق العربي في الفترة ما بين الحربين العالميتين. لقد كان هذا المفهوم نتاجاً للجهود التي بذلها مفكر عربي في معضلة آراء مصالح طبقة اجتماعية محددة في المجتمع العربي (طبقة الأعيان) خلال فترة زمنية معينة. أما بحث مفهوم القومية العربية خارج مثل هذا السياق التاريخي فليس من شأنه - كما يرى قزيهة - تشويه معناه فحسب بل أيضاً تغييب اسهام الحصري في التاريخ الفكري الحديث للشرق العربي (وهو أمر تعكسه الاتهامات الموجهة إلى الحصري - بأنه أخذ معظم أفكاره عن المفكرين الأوروبيين الذين عاشوا في القرنين التاسع عشر والعشرين. أو بأن أفكاره قد عفا عليها الزمن).

البروفسور مروان بحيري (دائرة التاريخ في الجامعة الأميركية في بيروت) تحدث عن «بولس نجيم ومثال لبنان الكبير ١٩٠٨ - ١٩١٩». تناول بحيري في بحثه هذا حياة نجيم وتفسيره للتاريخ اللبناني ومقارنة مفهومه عن لبنان الكبير بغيره من المفاهيم. فبعد عرض سريع لسيرة حياة «جوبلان» بوصفه عضواً في النخبة المثقفة. انتقل بحيري إلى دراسة أهم جوانب نظرة نجيم إلى التاريخ اللبناني بوصفها عاملاً محدداً لرؤيته السياسية وبرنامجه السياسي. دعا نجيم إلى لبنان الكبير ذي الحدود الطبيعية الذي يشتمل على طرابلس وعكار والبقاع ومرجعيون والحولة وصيدا وبيروت. ويرى نجيم ان لبنان الكبير هذا. الديمقراطي. بمذاهبه المتعددة. وبالاصلاحات المتمثلة في اخضاع العقارات الدينية للضرائب كغيرهما وفي المصادرة مع التعويض...الخ. ان لبنان هذا هو القابل للحياة اقتصادياً - على عكس لبنان الصغير الذي كانت تدعو إليه مفاهيم أخرى.

الدورة الرابعة

الدورة الرابعة تحدث فيها كل من البروفسور وداد قاضي (دائرة اللغة العربية في الجامعة الأميركية في بيروت) والبروفسور أرنولد هوتنغر (صحيفة نويه تسورخر تسايتونغ) والبروفسور خلدون الحصري.

«الشرق والغرب في مؤلف علم الدين لعلي مبارك كان موضوع وداد قاضي». «علم الدين» قصة خيالية اصدرها مبارك سنة ١٨٨٢ في الاسكندرية. بطلها شيخ أزهري مصري تحمل القصة اسمه. يلتقي في القاهرة مستشرقاً انجليزياً يسعى لتحقيق معجم «لسان العرب» ونشره. ويتفق علم الدين مع المستشرق على مساعدته في العربية والسفر معه إلى أوروبا وتنتهي رحلته لاحقاً في باريس. يعتبر الكتاب. كما ترى قاضي. واحداً من المؤلفات التي تصور اعادة اكتشاف العرب للغرب. بل وتضع الشرق في وضع تقابل عنيف مع الغرب. ينتقد علي مبارك في كتابه خضوع الشرق لتقليد ديني يقيد انطلاقه ويجعله مكتفياً بما لديه من العلوم الدينية واللغوية. في حين ان التقدم لا يكون إلاّ ماديّاً. فعلى الشرق. إذن. إذا أراد التقدم ان يخرج من قيده ويتعلم لغات الغرب وعلومه - شرط الابقاء على انتمائه الديني وقيمه الأخلاقية.

... ومحاولة إعادة اكتساف الغرب للعرب. كانت موضوع بحث ارنولد هوتنغر الذي يحمل عنوان «أمين الريحاني: نظرة ذاتية لعربي حديث» وذلك انطلاقاً من مقدمة كتاب الريحاني ملوك العرب. أوضح هوتنغر ان الريحاني الذي عاش في أميركا قد تمرد ضدها اذ انه تمثل له المادية. وهكذا غادرها وعاد ليكتشف البلدان العربية. لقد أراد الريحاني الانتماء إلى هذه البلدان في حين كان آخرون من معاصريه العرب يحاولون اكتشاف أميركا (والغرب) ويدعون إلى الحداثة على طريقتها. كما حلل هوتنغر ردة الفعل الريحانية لأجيال لحقته ولطبيعة نضالها القومي.

أما خلدون الحصري فقد تناول بالبحث «يونس السبعاوي (١٩١٠ - ١٩٤٢): آراؤه الاجتماعية والسياسية». بعد ان عرض الحصري حياة السبعاوي وكيف وصل إلى قمة النفوذ السياسي في عراق ما بين الحربين العالميتين. تناول آراء السبعاوي السياسية والاجتماعية. كان المجتمع العراقي يمر بطور من التغيرت عبر احتكاكه بالحضارة الغربية. وقد استطاع السبعاوي تقديم صورة صادقة وحية للقلق الذي كان يعتري جيل الشباب بسبب هذه التغيرات. وقد أخذ السبعاوي بالخيار التقدمي الثوري للتحرر من السيطرة الغربية ومن شوائب الأوضاع الداخلية في المجتمعات العربية. وخلص الحصري إلى القول بأن حياة السبعاوي وكفاحه السياسي يجعلان منه دون شك مثلاً ممتازاً عن جيله.

الدورة الخامسة

الدورة الخامسة والأخيرة من الحلقة الدراسية شارك فيها اثنان هما البروفسور محمود زايد والبروفسور جيرالد أوبرماير. فيما غاب عنها اثنان هما البروفسور دافيد واينز (جامعة لانكستر) الذي كان يفترض أن يقدم بحثاً بعنوان «علي عبد الرازق والدولة الاسلامية» والبروفسور محمد

يوسف نجم (دائرة اللغة العربية في الجامعة الأميركية في بيروت) وبحثه حول «احمد لطفي السيد ومدرسة الجريدة».

محمود زايد (دائرة التاريخ في الجامعة الأميركية في بيروت) قدم بحثاً حول «محمد حسين هيكل والاشتراكية الاسلامية». بدأه بعرض لسيرة حياة هيكل مركزاً فيها على خلفيتها الاجتماعية والفكرية والسياسية. تبنى هيكل دعوة إلى العدالة: تقليص الهوة بين الأغنياء والفقراء - وليس انهاء اللامساواة. الاشتراكية في نظره مزج بين الفردية والمصلحة العامة تكفل الحق في التعبير عن الرأي وفي ملكية الأرض وفي تشكيل عائلة. وتقوم أداتها في الزكاة والصدقة. وقد عاد هيكل إلى التاريخ الاسلامي ونظر في مدى تطبيق العدالة على مر عصوره. وتوصل زايد إلى الاستنتاج بأن اشتراكية محمد حسين هيكل هي العدالة الاجتماعية في الاسلام.

أما أوبرماير (دائرة علم الاجتماع في الجامعة الأميركية في بيروت) فقد تحدث حول «جريدة الايمان والامام - مؤشرات نشوء الأيديولوجيا والدولة في اليمن». تحدث أوبرماير عن أهمية الأئمة عامة بوصفهم منتجي ايديولوجيات. كما تعرض للرموز والمفاهيم السائدة في اليمن (امامة. قبيلة. فوضى. هاشمي. قحطاني. منكر. دولة. السيد... الخ) ثم قدم عرضاً لحياة الامام يحيى (١٨٧٠ - ١٩٤٨) وجهاده ضد الأتراك والانكليز. عن فكره السياسي. قال أوبرماير انه كتب عدداً من الرسائل وأصدر جريدة «الايمان» التي كانت توزع نحو ١٥٠٠ نسخة. على صفحات هذه الجريدة. اعتبر الامام ان العصر الذهبي هو عصر محمد وان اليمن استطاعت تجنب الانحطاط بسبب الأئمة والسادة المتحدرين من سلالة النبي وان حكام السلطان في اليمن فاسدون يفرضون الضرائب ويعتبرون اتباع المذهب المهدوي خوارج. وعنده ان الغرب (خاصة بريطانيا) يقف ضد الاسلام - كما يظهر من تطورات الوضع في فلسطين. كما الحّ الامام على ضرورة العمران في بناء الدولة.

محاورات عامة

بالاضافة إلى الأبحاث المقدمة. تخلل الحلقة الدراسية ولحقها حوار بين المشاركين كان في جزء كبير منه يتعلق بقضايا ذات طابع عام. فقد جرى تناول المسائل المرتبطة بطريقة البحث التاريخي: ضرورة الكشف عن مصادر تاريخية جديدة. لا تتوقف عند حد الكتب بل وتتعداها إلى الصحف. والصحف بدورها أدت إلى الحديث حول «الأقلام المأجورة» ومدى تأثير كون بعض الصحف يتلقى مساعدات مالية من جهة أو أخرى في صدقها وصحة الأخذ بها كمصدر تاريخي ثم ان هنالك مسألة تقسيم التاريخ إلى فترات متميزة - وهي مشكلة يزيد من تعقيدها كون الجغرافيا السياسية للشرق العربي ما تزال بحاجة إلى الاكتشاف. وثمة أيضاً مشكلة النزوع إلى خلق أبطال أو عمالقة من رموز تاريخية غير معروفة. لدونما سبب سوى رغبة الباحث في تبرير بحثه.

جانب آخر من هذه القضايا العامة يتعلق بالمفاهيم المستعملة في البحث. كان هنالك التشديد على ضرورة الا يصار إلى فسخ المفاهيم الغربية وفرضها على تحليل تاريخ الشرق العربي. وانما بلورة مفاهيم جديدة أكثر انطباقاً على هذا التاريخ. (الا نستطيع القول. استطراداً. ان الأمر ذاته ينطبق على اللغة التي تكتب بها الابحاث؟ أليس من المنطقي اذا كان يقصد بالأبحاث مخاطبة الانسان العربي ان تكتب باللغة العربية؟) كان هنالك أيضاً الدعوة إلى ادخال مفهوم خط الجريدة. فيما انتقد البعض غياب مفهوم الامبريالية من البحوث المقدمة. وطولب بإعداد حلقة دراسية جديدة تتناول العلاقات الاجتماعية - الاقتصادية بين العرب والغرب في العصر الذي يمكن تسميته «بالعصر الأوروبي».

مهما يكن من أمر. كانت هذه الحلقة الدراسية خطوة في الاتجاه الصحيح. فهل تتبعها خطوات؟



«انك تقرأ كتب التاريخ لتستفيد من أعمال الناس. وما وقع لهم. وما صدر منهم. وما كان من نتائج أعمالهم وتقرأ سير العظماء لتتشبه بهم. وتدرك موضوع عظمتهم. وتقرأ الطبيعة والكيمياء لتستفيد من استكشاف من قبلك لقوانين الطبيعة. فالحياة كلها تجارب واستفادة من التجارب.

أحمد أمين

شيشرون

٢



الياسا بازنا ، أو شيشرون ، ولد في بريستينا (يوغوسلافيا) وعاش نشأة غير مستقرة. ولكن في عام ١٩٣٢ ، وكان في الثامنة والعشرين من العمر ، انفتحت له أبواب المجد : خادم في أنقرة.

أشهر جاسوس في الحرب العالمية الثانية

الان ديكو

ترجمة "تاريخ العرب والعالم"

ملخص الحلقة الأولى :

● ١٩٤٣ : الحرب مستعرّة في أوروبا،واسطمبول هي الأرض الحيادية التي يلتقي فيها الجواسيس من كل جنسية . الملحق الالماني موتسيش يهتدي إلى رجل بسيط يلقبه شيشرون ويحصل منه على نبع لا ينضب من الاسرار الانجليزية التي لا تقدر بقيمة . ويدفع له ١٥ ألف جنيه استرليني عن كل فيلم وثائق . وتثير قضية شيشرون خلافاً بين رئيس شعبة الاستخبارات الالمانية الذي يرى الوثائق بالغة الأهمية ، وبين فون ريبنتروب وزير الخارجية الذي يرى فيها فخاً بريطانياً . وتنتهي الحلقة الأولى وموتسيش في برلين بانتظار السماح له بالعودة إلى تركيا .

لم يستطع موتسيش العودة إلى أنقرة إلا في ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) وعادت اللقاءات بينه وبين شيشرون . وعن كل لفافة ، كان «الخادم البريطاني» يتسلم مبلغ خمسة عشر ألف جنيه . والمعلومات الجديدة لم تكن تقل أهمية عن الأولى . وهكذا تمت معرفة الشيفرة البريطانية من قبل الاستخبارات الالمانية ، إنها معلومات ذات قيمة فائقة .

مرت الأشهر وتغير شيشرون . وبالفعل فقد كنا نعتقد بأننا نتعامل مع شخص مختلف . إذ كان يرتدي ثياباً أنيقة ، من أجود الأجواخ الانكليزية ، كما كان يلبس الحلي ويحبها كثيراً .

في هذه الأثناء ، وخلال شهر كانون الثاني (يناير) ، لاحظ الانكليز أن تسرباً قد حصل في أنقرة . وقد جاء لهذا الغرض عملاء من لندن ، لوضع أجهزة انذار في السفارة . وكان يمكن اعتقاله لو كان أقل تعقلاً .

في هذه الأثناء كان موتسيش قد أعطاه أكثر من مئتي ألف جنيه . وهذه الثروة كانت تسمح له بأن يعيش في رخاء «حتى آخر أيامه» .

إلا ان شيشرون لم يتوقف . فبمهارته الفائقة ، نجح في اختراق أجهزة الانذار واستمر في عمله .

شتاء ١٩٤٣ - ١٩٤٤ وربيع ١٩٤٤ ، ظهرت كلمتان جديدتان في الوثائق :

عملية أوفرلورد . كل وثائق شيشرون كانت تعلن عن ذلك ، عملية أوفرلورد كانت قريبة .

ماذا كانت حقيقة هذا الأمر؟

لا شك في أنها عملية ذات أهمية كبيرة ترتدي الطابع العسكري . لقد قلقت برلين ، وأمضى موتسيش ليالي لدراسة الوثائق . وأخيراً ، وبمقارنة عدة نصوص

فهم الموضوع :

عملية أوفرلورد لم تكن سوى الأسم السري لانزال الحلفاء في أوروبا .

أنذر موتسيش برلين فوراً وذلك في شهر آذار (مارس) ١٩٤٤ . ثلاثة أشهر قبل الإنزال . صدفة غريبة أظهرت للألمان متى يتم الإنزال .

وعاد جواب مختصر من برلين :

«معقول ، لكن الاحتمال ضعيف» .

إن المعلومات التي أعطاها شيشرون وهي الأكثر روعة قد قوبلت بازدراء لدى الآخرين .

في ٦ نيسان (ابريل) ١٩٤٤ ، اختفت سكرتيرة موتسيش . لقد كانت تجهل تفاصيل عملية شيشرون ، إلا أنها تعرف الأساس . لقد انتقلت سكرتيرة موتسيش إلى جانب الأميركان .

وكانت نهاية مغامرة لا تصدق بالنسبة لشيشرون . إنه الخطر القاتل .

لذلك أسرع إلى عند موتسيش نفسه .

– إن سكرتيرتك عند الأميركان .

ثم سأل بشكل هستيري :

– ماذا تعرف عني؟

– إنها تعرف إسم الشيفرة التي تخصك ... وربما أكثر من ذلك ...

كان موتسيش يراقبه . لقد كان ساهماً وفي عينيه خوف ، بينما هو يقول :

– يجب أن أذهب الآن .

«إن قلقاً عميقاً أصاب وجهه» ، كتب موتسيش في ما بعد ، «لقد لاحظت انه يقضم أظافره من جديد . انه الآن رجل منهك ، ليس أمامه أي مخرج . كما يمكن قراءة

الخوف في عينيه الداكنتين».

— «إلى اللقاء، سيدي، قال مخاطباً موتسيش، إلى اللقاء».

لقد انتهت عملية شيشرون. لقد اختفى الممثل الرئيسي. ماذا حلّ به؟

إحدى عشرة سنة مرّت قبل ان أجد الياسا بازنا أو شيشرون.

اعترافات جاسوس

— إنني من مواليد يوغوسلافيا.

حصلت على هذا الاعتراف الأول في سيارة التاكسي. انها سيارة «ديسوتو» تسير وسط الازدحام في استانبول. يجلس بجانبي شخص عريض المنكبين، مبتسم وذو ثياب فاخرة: إنه الياسا بازنا. على المقعد الجلدي وبلغة فرنسية مترددة اعترف شيشرون لأول مرة قائلاً: لقد ولدت في يوغوسلافيا...

ولد شيشرون في بريستينا في ١٨ تموز (يوليو) ١٩٠٤. والده حافظ يسار كان استاذاً للدين الاسلامي. انتقلت العائلة من بريستينا إلى سالونيك، ثم إلى استانبول. كان ذلك أثناء الحرب العالمية الأولى. يقول بازنا «أن فرقاً أجنبية احتلت تركيا. وقد اشتغلت كعامل مساعد في وحدة النقل الفرنسية، كان ذلك كل ما يستطيعون فعله لي».

ثم عمل كسائق لدى كابتن انكليزي. وذات يوم «استعار» دراجة ضابط فرنسي ومن سوء حظه انه صدمها وحوّلها إلى حطام. التي به في السجن ثم استطاع الهرب. وتم العثور عليه ثم عاود الهرب من جديد. ونرى في ملفه العبارة التالية: «انتباه: بازنا مجرم خطير ومحتال...». يقع من جديد في أيدي الشرطة الفرنسية وتجرمه المحكمة فيسجن مدة ثلاث سنوات. ثم ينقل إلى مرسيليا لاتمام مدة العقوبة.

وهناك يقول بازنا إنه ألمّ بمعرفة اللغة الفرنسية ونال من أجل ذلك تهنئة من السيد هيو، السفير البريطاني في استانبول.

كانت تلك السنوات غير مشرقة بالنسبة إليه. كان يشاهد أمام أبواب الفنادق وقرب علب الليل عارضاً «خدماته». على الأقل هذا ما صرح به أحد أصدقائه وهو سائق يدعى كوستا.

وبممارسة تلك المهنة، استطاع الياسا أن يقيم له بعض العلاقات، خصوصاً مع سائقي السلك الدبلوماسي.



لودفيك هـ. موتسيش الملحق التجاري والضابط المكلف بالتعامل مع شيشرون.

هؤلاء السائقون كانوا من الشخصيات اللامعة والمهمة بحكم عملهم وتنقلهم بسيارات الليموزين العائدة لأسيادهم. وقد قارن الياسا مصيرهم بمصيره. كان يحلم بحياتهم المؤمّنة والمريحة. وكلهم تقريباً كانوا من اليوغوسلافيين.

إعلان صغير

على ضفاف البوسفور كان هناك تقليد غريب فهيئة الخدم العاملة في السفارات والقنصليات كانت تنتقى من اليوغوسلاف والالبانيين المهاجرين، وكان لهم إسم خاص «الكافاس». فلماذا لا يجرب الياسا ذلك؟ ان حلمه بدأ يتجسد مع الأيام.

ذات صباح حصل شيء مهم. فسائق السفارة اليوغوسلافية ترك وظيفته. وبعدها بساعة تقدم الياسا إلى بواب السفارة وتم قبوله سائقاً على أثر مقابلة له مع الوزير المفوض ميروسلاف بانكوفيتش. حدث ذلك العام ١٩٣٢. وخلال تلك الفترة تزوج الياسا ورزق بابنة ثم بصبي. لم يكن في تلك الأثناء تعيساً، بل كان يغني دائماً. لقد كان يحب الغناء. ويقول أصدقاؤه إن الشيئين المهمين بالنسبة إليه كانا المال والغناء.

نقل بعد ذلك إلى أنقرة. وقد أعجب الياسا بتلك العاصمة الإصطناعية حيث علب ليلية. ومرت أشهر

عديدة ثم حدث المحتوم : لقد صرف من الخدمة.

كان عليه أن يعيش. واستطاع العثور على وظيفة لدى الكولونيل غلاس في السفارة الأميركية، من هناك استطاع أن ينتقل ويعمل لدى المستشار ينكه في السفارة الالمانية... ومرة أخرى صرف من الخدمة. لماذا؟ لأنه ضبط ذات مرة يقرأ بريد معلمه.

كيف استطاع العمل في السفارة البريطانية؟ لقد تم له ذلك بطريقة بسيطة جداً، عن طريق إعلان صغير:

« السفارة البريطانية تبحث عن سائق لدى السكرتير الأول».

ازدواج المفاتيح

مضت الأشهر الأولى من عمله في السفارة البريطانية دون أية حوادث. وقد أظهر الياسا أنه خادم أمين، دقيق في عمله ومتفان واستطاع أن يجتاز الحرب التي اندلعت بسلام، تماماً كما كان يجتاز أروقة السفارة.

هذا الصفاء لم يكن سوى صورة ظاهرية. فقد ارتفعت الحرارة السياسية في أنقرة وازدادت حدتها من شهر إلى شهر. وهذه الحمى كان يتجاذبها قطبان: السفارة البريطانية وسفارة الرايخ وان اسراراً كثيرة كانت ترقد في صناديق كل منهما. ان خادم السفير هيو كناتشبل – هيوغسن بدأ يهتم بأسراره.



أرنست كالتربرونز الذي كان يرئس الاتصالات مع شيشرون.

وقد حدد خريف عام ١٩٤٣ ساعة العمل. فالياسا بازنا الصغير أصبح جاسوساً، بل الجاسوس الأكثر فعالية في الحرب العالمية الثانية. وبفضله لم يكن هتلر ليجهل أي مشروع يتعلق بالحلفاء.

كيف استطاع العمل؟

أدرك بازنا أن الأوراق السرية كانت موجودة في صناديق حمراء صغيرة وفي صندوق أسود توضع أثناء النهار على طاولة السفير المخصصة للعمل. في الليل، يتم توضيب الصناديق الحمراء في « خزانة حديدية ذات طراز بسيط ». أما الصندوقة السوداء، فكان السفير ينقلها معه كل مساء إلى غرفته حيث يضع فيها الوثائق لدراستها أثناء الليل. كيف استطاع بازنا الحصول على المفاتيح؟ لقد اشترى قطعة كبيرة من الشمع، ثم انتظر الفرصة التي وأتته ذات صباح.

« سعادة السفير كان يستحم، بينما كنت أنا أحضر بذلته الرمادية في غرفة النوم. رأيت المفاتيح على المنضدة : مفتاح الخزنة الحديدية، مفتاح الصناديق الحمراء ومفتاح الصندوق الأسود فأخذت النقشة. قليل من الشمع بقي عالقاً على أحد المفاتيح، فأخذت منديلاً من خزانة السيد هيوغ، نظفت المفتاح وأعدت علاقة المفاتيح إلى المنضدة. وفي هذه الاثناء دخل السفير الغرفة وكان يلبس ثياب الحمام. لقد دخل فجأة حتى انه لم يكن لدي الوقت لأرتعش من الخوف وبنظرة خاطفة تفحصت المنديل، ثم درت صوب سعادته وقلت له :

« هذا المنديل ليس نظيفاً يا سيدي، سوف أضعه مع الأمتعة الوسخة. » وافق السفير بحركة من رأسه مع ثقتي بانه لم يسمع ما قلت له. لقد نظر حوله وفجأة رأى المفاتيح فالتقطها متنهداً ووضعها في جيب ثوب الحمام وانصرف دون أن يقول شيئاً .

ان الحصول على المفاتيح عن طريق النقشة كان بمثابة لعبة أطفال بالنسبة لبازنا. بعد هذا لم يكن عليه سوى انتظار غياب السفير. فقد كان يعمل غالباً في المساء عندما يكون السفير مدعواً إلى حفلة. إلا أنه كانت لديه الجرأة لدخول غرفة السفير وهو نائم، فيفتح الصندوق ويأخذ الوثائق إلى غرفته.

المشكلة كانت في عملية التصوير . ففي أيامنا هذه توجد أفلام شديدة الحساسية تسمح بتحضير نسخ دون اللجوء إلى مواد أخرى. إلا ان الحال لم تكن كذلك في عام ١٩٤٣. لكن لا بد له من الحصول على شيء يمكنه



١٩٦١ . شيشرون يعقد مؤتمرا صحفيا في ميونخ ويقدم عرضا لتصوير الوثائق السرية ؟ لعبة أطفال !

من صنع نسخ عن الوثائق . كان بازنا في غرفته في السفارة عرضة للمناداة من وقت لآخر مثل أي خادم آخر. لذا وجب عليه الاتيان بآلة لا تثير الشكوك.

يقول : « اشتريت مصباحاً قوته ١٠٠ واط ووضعته على المنضدة . كما اشتريت أربعة أوتدة أو جذوع وحلقة معدنية . بهذا استطيع تثبيت جهاز التصوير إلى تلك الحلقة . ان قطع هذا الجهاز ذات حسنة هي أنه لا يمكن ملاحظتها كما هو الأمر بالنسبة لجهاز خاص . فاثنان من الأوتدة يصلحان لوضعها في الخزانة وتعليق ربطات العنق عليها . والاثنان الآخران تم تثبيتهما في الحائط قرب المغسلة ووضعت عليهما منشفتي . أما الحلقة المعدنية . فوضعتها حول منفضة السجائر كاطار لها . حيث يمكن وضع السجائر المشتعلة .

... والباقي معروف : اللقاءات مع موتسيش والأموال الضخمة التي كان يتقاضاها شيشرون . لكنها كانت جنيهات استرلينية مزيفة .

« ربحت في اليانصيب »

مع نهاية عام ١٩٤٣ . استأجر الياسا بازنا في استانبول قرب ساحة تاكسيم شقة كان يسكنها يهودي . دفع الياسا مبلغ خمسة آلاف ليرة تركية لأخذها . بعدها . استأجر شقة أخرى في شارع قريب ودفع هذه المرة اثني عشر ألف ليرة . بضعة أسابيع بعد ذلك صار يقود سيارة مرسيدس . هذه الرفاهية المفاجئة أدهشت أصدقاءه الذين قال لهم دون مبالاة :

– لقد ربحت في اليانصيب ...

وأخيراً الوشاية . فسكرتيرة موتسيش انتقلت إلى جانب الأميركان . وفي ١٠ نيسان (ابريل) ١٩٤٤ استأذن شيشرون موتسيش بالرحيل .

– عليّ أن أذهب الآن !

ومضت أشهر دون ان يسمع أحد عن الياسا بازنا . انتهت الحرب مع طوفان من الحديد والدم وأخذ السلام

يعود تدريجيا إلى العالم. في استانبول. كانت زوجة بازنا وأولادها يعيشون حياة سرية في شقتها الواقعة في ساحة تاكسيم.

ذات يوم. رأى اسماعيل. حارس البناية سيارة جديدة تتوقف أمامها. وكم كانت دهشته عظيمة عندما رأى رجلاً أنيقاً جداً ومبتسماً ينزل منها. انه المستأجر الياسا بازنا. لا شيء يدل على أنه كان ذلك الخادم أو الجاسوس الخائف. لقد تحوّل بازنا إلى رجل أعمال السيد بازنا هذا الأسم يتناسب من الآن فصاعداً مع مؤسسة بازنا القوية. السيد بازنا كان قبل كل شيء المتعهد الغني.

«ذات يوم سأصبح غنياً...» هذا ما قاله الكافاس الصغير من بريستينا. وقد استطاع أن يفي بوعده.

ان مؤسسة بازنا تهتم أيضاً بشراء وبيع السيارات. وكانت حركة دائمة بين انقرة واستانبول.

العملة كانت مزورة

لم يقتصر السيد بازنا على هذه النشاطات. فقد وظف خمسة وعشرين مليون فرنك فرنسي في عملية مع السيد نيازي عكار في استانبول. وبينما كانت جدران قصره ترتفع. بدأ عملية كان يجب حسب رأيه أن تدر عليه أرباحاً طائلة. فشركة تاميز استوردت ١٣٥ طناً من مادة ملح الصوديوم. كان يملكها تاجر يدعى اسماعيل قره علي. وقد اشترى بازنا ٩٠ طناً من الصفقة. ودفع جزءاً بالعملة التركية أما الباقي وقيمته ٢٣ ألف جنيه استرليني فقد دفعه بالجنيهات.

وكانت هذه بداية التعاسة لالياسا. فأصدقاء قره علي ذهبوا إلى سويسرا دون أن تكون لديهم عملة أجنبية. فقدم قره علي لأصدقائه رزمة من الجنيهات الاسترلينية. وما أن سلموها إلى شباك أحد البنوك في لوزان حتى ظهرت الحقيقة المؤلمة: الجنيهات كانت مزورة.

عاد أصدقاء قره علي إلى تركيا بائسين. وطلبوا بعض الايضاحات من التاجر الذي هزّ كتفيه قائلاً إنه لا يعلم شيئاً. وانه هو شخصياً ملاحق بتهمة ترويج عملة زائفة. ومن سوء حظ التاجر أنه أراد استبدال الأموال المتبقية لديه في استانبول... وبدأ سيل من الدعاوي لم ينته إلا في تموز ١٩٥٥.

طلب قره علي إلى المحاكمة وكان عليه أن يدل على بازنا الذي مثل أمام المحكمة الجزائية وحكم عليه. استأنف الحكم. لكن الحكم النهائي صدر في ١٩٥٥ ويقضي بتغريم بازنا مبلغ ١٢ ألف ليرة تركية كعطل وضرر أي أكثر بقليل من مليون فرنك فرنسي قديم.

وكانت ثمة أسباب للتأكيد على ان الحكم سيبقى حبراً على ورق: بازنا كان عاجزاً عن الدفع.

عندما وجدته عام ١٩٥٥. كان الياسا قد أصبح رجلاً فقيراً. تراه في استانبول يتعاطى بعض الأمور غير المهمة. باحثاً بشتى الوسائل لجعل الدائنين يصبرون عليه... وعندما سألته عن مهنته أجاب بابتسامة صفراء:

أنا وسيط سيدي... إلا ان حلمه لم يرد الموت. فالوسيط المتعب. عندما يعود إلى بيته في المساء. يشعر بأنه رجل آخر. فالياسا بازنا يرفع رأسه. ويصبح من جديد شيشرون. حتى الأوهام عنده لم ترد الموت.

كل شيء مكتوب

في ١٦ نيسان (ابريل) ١٩٥٤. وضع الياسا في البريد مغلفاً يحمل العنوان التالي:

«سعادة السيد اديناور. رئيس المجلس الالماني الاتحادي. بون».

وبعبارات بسيطة تثير الشفقة. يحكي شيشرون السابق قصته للمستشار الالماني: لقد دخل إلى السفارة البريطانية خلال الحرب. وكان عميلاً للألمان «بسبب التعاطف معهم». وان «خدماته القيمة» قد بودلت بها جنيهات استرلينية مزيفة. لقد كان أمراً غير عادل. بعد الحرب. انهار السيد بازنا مادياً لاضطراره إلى التعويض على أولئك الذين دفع لهم جنيهات انكليزية. وهو يطلب من السيد أديناور أن يعوض عليه. فهو لا يطلب ٣٠٠ مليون بل يكتفي بمليونين ومائة ألف مارك.

لم يردّ عليه المستشار. بل أجابه وزير خارجية حكومة بون. وبرسالة مؤرخة في ٩ آب (أغسطس) ١٩٥٤. يعلمه بأدب بأن قضيته قيد الدرس. وفي ١٥ تشرين الأول (أكتوبر) يتلقى رسالة ثانية يعرب فيها وزير الخارجية عن أسفه. لأن نظام البنك والتشريع المعمول به بالنسبة للعملة يتعارض مع ما يطلبه السيد بازنا.

إلا ان علاقات شيشرون مع المانيا لم تبق عند هذا الحد. فمنذ ذلك الحين. استطاع صحفي أن يستقصي له ذكرياته وينشرها.. وهذا الأمر دعاه إلى السفر. فقد عرف المانيا وايطاليا والنمسا وفرنسا.

لقد رأيته من جديد في فرنسا. وأثرت أمام الجمهور الفرنسي وجود شيشرون. وتناولت عدة صحف



آب (أغسطس) ١٩٤٤ . هتلر يقلد وسام «ريتركرويتس» إلى السفير فون بابن الذي لعب دورا من الدرجة الأولى عام ١٩٣٣ في وصول الحزب إلى السلطة.

أجنبية معلوماتي. الآن، يوم أحد من كانون الثاني (يناير) ١٩٦٣، كنت انتظره في أورلي أمام الباب رقم ٠٤٤ كنت انتظره محاطاً بالصحفيين والمصورين. وانني أعترف بقليل من القلق وأتساءل. كيف ستكون ردة فعله عندما يراني؟ لقد دعوناه لزيارة باريس. أنا. وستيللو لورنزي واندريه كاستللو لاجراء مقابلة معه في برنامج «الكاميرا تكتشف الزمن». كيف سيتصرف عندما يتعرف علي؟.

لقد بدأت المزاحمة. انه رجل قوي البنية. أصلع. ذو وجه مربع. يضع على وجهه نظارتين. ومعه حقيبة سفر كرجل الأعمال ويحمل بيده مظلة: انه هو! أتقدم وحالاً يبتسم لي:

صباح الخير سيد ديكو!

لقد عرفني. وهو لا يحمل أية ضغينة! بدأت عدسات المصورين تعمل والأسئلة تنهار عليه. وقلت له:

– كل هؤلاء صحفيون. ألا يضايقك هذا كثيراً؟

ابتسم وقال:

– انه شرف كبير لي...

ظاهرياً. الشهرة تسحره. فهو يجد فيها ثأراً للحالة التعيسة التي كان يعيش فيها لدى اكتشافه ان ثروته كانت مؤلفة من أوراق نقدية مزورة...

– متى علمت ان الأوراق النقدية كانت مزورة وما كان شعورك؟

– اعتقدت انني أصبحت مجنوناً، سيدي.

لقد قال هذا دون أي انفعال، ثم تابع شارحاً:

– أنا مسلم. وأعتقد بأن كل شيء مكتوب.

عندما تركته بعد المقابلة التي أجريتها معه ذات صباح أمام عدسات المصورين سألته:

– إذا سنحت لك الفرصة مجدداً. فهل تعود إلى مهنة التجسس؟

ابتسم، وبلغته الفرنسية الثقيلة أجاب:

– من يدري، سيدي؟

شيء آخر، قبل التوجه إلى الاستوديو في شركة التلفزيون الفرنسية طلب شيشرون أن ندفع له ما يناسب. اقترحت عليه شيكاً فرفض. لم تعد لديه ثقة. لذلك وجب انتظار المحاسب الذي جلب معه عشرين ورقة من فئة المئة فرنك. فتفحصها واحدة واحدة بكثير من الانتباه، ثم قبل أن يتوجه أمام الكاميرات... ●

انتهى

عن «ايستوريا»

سلفادور دي مادارياغا   ترجمة "تاريخ العرب والعالم"

المقاومة

(٢)

انتفاضة الازتيك الاخيرة



في وجه الاسبان ١٥٢٠

لا الاستسلام



تمثال ازتيك : كان المتحدر من ابسط العائلات يستطيع ان يتبوأ أعلى المراكز بالكهانة أو الجندية .

● كان ظهور سفن كورتيث على البحيرة حدثا مهماً بالنسبة للمعسكرين. لكن المكسيكيين الشجعان واجهوا الموقف بثبات . وشاهد كورتيث من قلعته الصخرية خمسمائة زورق تقترب بأقصى سرعة في اتجاه سفنه . فأمر رجاله بالعودة إلى سفنهم على عجل ، لكنه أمر أيضاً الربابنة بعدم التحرك ، ليوهم الهنود الحمر بأن الاسبان خافوا. وتوقفت الزوارق على مسافة من السفن الشراعية الاسبانية . وتمنى كورتيث أن يعطي الاشتباك الأول هذا ، الهنود الحمر ، انطباعاً بتفوق الأسبان. وكتب يقول : « لقد شاء الله ان تهب على سفننا الشراعية من اليابسة ، ريح ملائمة ... وهكذا دخلنا بين زوارقهم وحطمنا عدداً لا يحصى منها ، وقتلنا واغرقنا عدداً كبيراً من الاعداء. كان ذلك أعجب ما يرى من مشاهد» .

هذان الانتصاران شجعا كورتيث على محاولة تحقيق ثالث ، ربما هو الأهم . في فترة بعد الظهر نزل في كسولوك مع ثلاثين من رجاله الثلاثمائة ، وعدد من حلفائه المحليين. وكسولوك هي المدينة المشيدة على الماء ، والتي تحمي الطرق إلى كويوهواكان وايزتابالابا. وبعد قتال عنيف ، انزل كورتيث ثلاثة مدافع ، قصف بها ذلك الشارع الذي سبق لموتيكوكوما ان حضر اليه قبل سبعة اشهر لملاقاة كورتيث . غير ان معركة كسولوك استمرت ستة أيام ، وظلت في مد وجزر بين الأسبان والمكسيكيين. في غالب أيام المعركة كانت الاشتباكات غامضة المعالم متشابكة الخيوط ، فتستمر طوال النهار وأحياناً طوال الليل أيضاً خلافاً لتقاليد المكسيكيين ، على الزوارق والسفن في الطرقات والمياه وبين السابحين. وكانت قمة هذه المرحلة الأولى من الحصار هجوماً مشتركاً لألفارادو وكورتيث يوم التاسع من حزيران (يونيو) . وكانت خطة الهجوم واحدة : التقدم بفضل الثبات في وجه عقبات تنبت بلا توقف. وتبين ان السفن كانت عوناً لا يقدر بثمن في هذه المعركة. وقد اضطر الاسبان تحت ضغط المقاتلين ، إلى التخلي عن عملائهم التلاكسكالتيك ، وكادت لحظات الهلع والتقهقر عند التلاكسكالتيك ان تنقلب إلى هزيمة منكرة لحلفائهم . على ان المعركة انتهت إلى نتيجة غير حاسمة.

بداية انتصار الاسبان

المرحلة الثانية من الحصار استمرت بقية شهر حزيران (يونيو) . واشتد الحصار بتخصيص سفينتين لمهمة ملاحقة الزوارق التي تمون المدينة بالطعام والماء تحت جنح الظلام : « ولم يمض يوم لم تحضر فيه السفينتان زوارق



المعبد الهرمي في تيوتيهواكان. وكانت الاضاحي تقدم على أعلاه.

وهنوداً حمراً مشنوقين إلى الصواري. وابتكر كواموتيموك خططا في غاية الذكاء لنصب أفخاخ للسفن واغراقها. لكنه على الرغم من نجاحه مرة في قتل قبطانين إلا انه لم ينجح في إغراق أية سفينة.

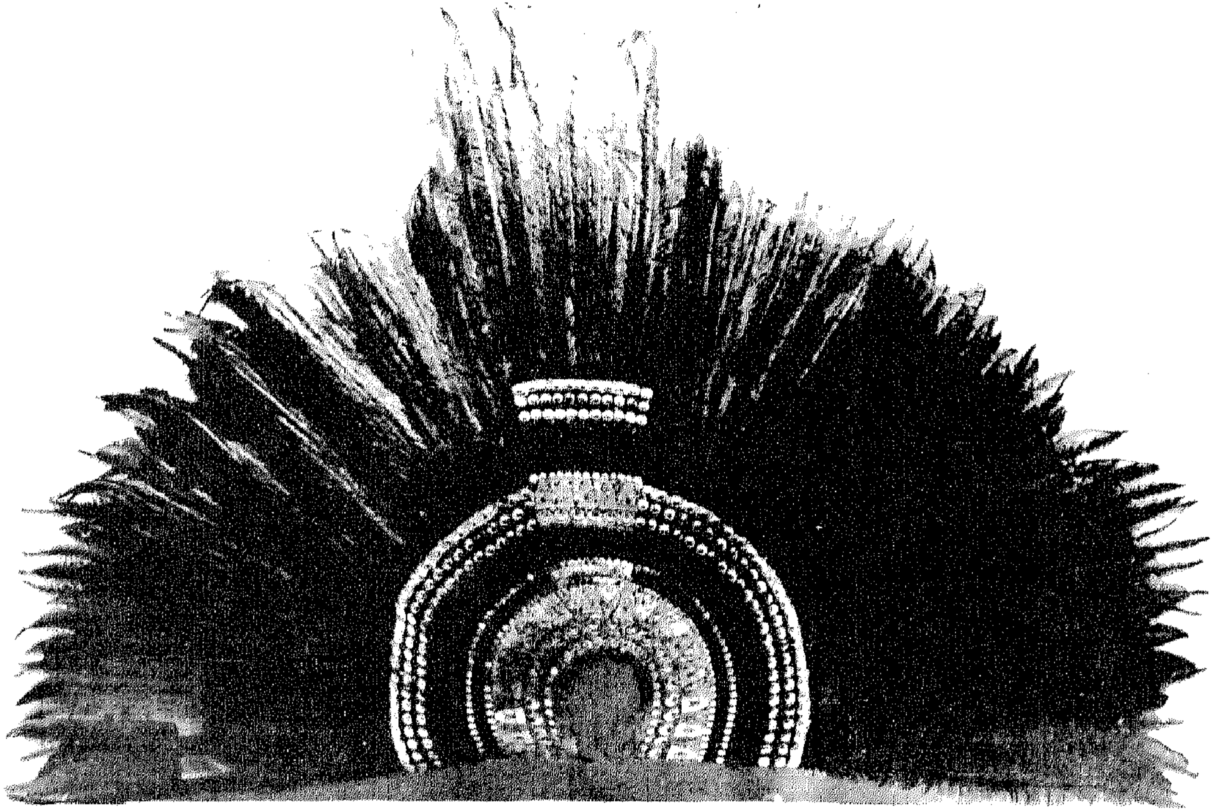
وفي هذه المرحلة أخذت هيبة المكسيكيين تتآكل في وادي البحيرة. وسر كورتيث غاية السرور بوصول ثلاثين ألف مقاتل مجهزين جيداً، أرسلهم اليه «دون فرناندو» ملك تتزكوكو الجديد، وتلقى أيضاً تأييد مدينة كسوشيميلكو وقبيلة الاوتومي. وكان هذان العاملان حاسمين استراتيجياً. وقد امتدت موجة «التأييد» إلى ايزتابالابا وشوروبوسكو ومكسيكالسنغو وغيرها من مدن وقرى البحيرة. وقد طلب كورتيث من ابناء هذه القرى ان يساعدوه في الحصار وان يشيدوا له مدينة–حصنا في كسولوك.

وهكذا كان القتال يستمر رتيباً، ولكن خطراً، حول الثغرات التي يفتحها المقاومون في طوق الحصار. وكتب كورتيث إلى الامبراطور يقول: «وكان الاسبان يتعبون في قتال النهار إلى حد انهم لم يكونوا يقوون على الحراسة ليلاً».

وكان الجنود يرفضون بناء السور عند الثغرات، ويشعرون بالخزي ان يقاتل الآخرون فيما هم يعملون. وتمكن كورتيث والفارادو من النفاذ إلى داخل المدينة والقيام بعمليات قتل وتدمير. وأدى هذا إلى قيام تنافس بين الجيشين على الوصول أولاً، على أساس أن الوصول إلى احتلال السوق سيؤدي إلى انهيار المقاومة، على حد اعتقاد الاسبان. وبنتيجة ذلك ارتكب الفارادو حماقة خطيرة: فقد اجتذبه المكسيكيون الذين تظاهروا بالتراجع على عجل ونسي أوامر كورتيث المتكررة بأن لا يترك ثغرة في صفوفه الخلفية حين يتقدم. وهكذا ضربه فجأة في تاكوبا جيش من المكسيكيين الاحتياطيين، وقطعت الطريق التي سلكها، ولم يبق الا طريق يؤدي إلى فخ خطر. فالثغرة الوحيدة التي اتيحت لرجاله وهم عائدون، كانت تسمح لهم بالفرار سباحة في الوقت الذي كان فيه المكسيكيون في زوارقهم، ينتظرونهم للقضاء عليهم. وقد أسر خمسة اسبان تم تقديمهم قرباناً. وكاد برنال دياز نفسه ان يقع في الفخ لولا معجزة.

واستاء كورتيث جداً لأنه رأى في ما حدث دليلاً على الاستهتار بالاوامر المتكررة التي أصدرها، بسد كل

معطف الامبراطور موكتيزوما المصنوع من الريش : آية في الصناعة اليدوية.



الثغرات في السور. فقصد الفارادو، لكنه فوجيء بالتقدم الكبير الذي احرزه هذا على الأرض، وبالعدد الكبير من الجسور التي كان يسيطر عليها باستمرار. وهكذا زال استياؤه على الفور. ولعل في هذا السرور المتسرع الخطوة الأولى إلى القرار الذي دفعه إلى أخطر فشل تعرض له.

.. وهزيمة اسبانية منكرة

فقد كان نجاح الفارادو باهظ الثمن على أية حال نظراً لتصميم المكسيكيين وثباتهم وصمودهم. لقد سقط في الاسر ١٨ أسيراً من رجال الفارادو الاسبان، و ٥٣ من رجال ساندوفال. وكان الاسبان يرون من مراكزهم زملاءهم يصعدون إلى النصب الذي تجري عليه الاضاحي. ومع ذلك فان كورتيث قد وجد جنوده مستائين، لا بسبب صمود الهنود، بل بسبب تقدم ألفارادو وقاوم كورتيث هذه الضغوط، لكنه عاد ورضخ لها. وسلم قيادة بعض قواته إلى الدريتي، مأمور مالية الامبراطور، وهو أمر ندم عليه فيما بعد. وحدد موعد هجومه يوم الأحد ٣٠ حزيران (يونيو) بعد القداس. وكان الأمر الأهم هو «سد الثغرات جميعا في المؤخرة».. وكان الهجوم الأول ناجحاً. فقد وصل الفارادو وساندوفال إلى تخوم سوق المدينة. وحققت مجموعات كورتيث الثلاث نجاحاً مماثلاً. ولكن في ظروف امتنع كل من كورتيث وبرنال دياز عن روايتها بوضوح، انقلب انسحاب إحدى الطلائع إلى كارثة، بسبب عدم سد احدى ثغرات السور. وكاد كورتيث ان يقتل في هذه المعركة، لولا أحد الهنود الحمر المتحالفين مع الاسبان. وفي خضم القتال المستعر، استخدم المكسيكيون الحرب النفسية بذكاء شديد. فقد القوا على تجمع جنود كورتيث رؤوس ستة اسبانيين، وأعلنوا ان الفارادو وساندوفال قد قتلوا. واستخدموا الخدعة ذاتها بين جنود الفارادو. وعندما أسرع ساندوفال، حاملاً جراحه إلى كورتيث ليؤنبه على الهزيمة، اشتكى له كورتيث والدمع في عينيه قائلاً: «انه الدريتي. لقد اعتمدت عليه لسد هذه الثغرات، لكنه لم يفعل، لأنه لم يألف الحرب أو تلقي الأوامر من الضباط».

ولم يجد كورتيث سوى المناشدة ليكف رجاله عن

القتال الذي كان استمراره ينذر بافنائهم ، في وقت كان فيه صوت طبول الاضاحي يكلل هامة ذلك النهار الأحمر ، ارضاء لالهة الملح فيكسوتوسيواتل.

انهيار سريع ودموي

بعد هذا الفشل الذريع استمر الحصار ، لكن الهجمات توقفت مؤقتاً ريثما يضمد الاسبان جراحهم ويعيدون تنظيم صفوفهم ويرممون ترسانتهم. وقضت خطة كورتيث ، بأن يهدم كل بيت يؤخذ من المدينة ، التي وصفها هو نفسه في رسالة إلى الامبراطور بقوله « انها أجمل شيء في العالم ». وفي الجهة الشمالية ، كان الفارادو يتقدم ، حتى سيطر على تيوكالي ، الهيكل الهرمي ، المطل على المدينة ، واستطاع ان يتصل بكورتيث الذي صعد إلى الهيكل ليجد رؤوس رجاله الذين ضحى بهم المكسيكيون لاله الحرب. وكان الحصار قد استمر طوال شهرين ، حتى أكل الاحياء من السكان قشور الشجر. وكان من ينجون من مذابح الاسبان وحلفائهم يموتون جوعاً. وكانت رائحة المدينة لا تطاق. وفي الوقت الذي كان كورتيث ينتظر فيه مقدم كواوتيموك مستسلماً ، ظل الزعيم المكسيكي على صموده ، مفضلاً الموت على الاستسلام.

وأمر كورتيث أخيراً بالهجوم النهائي ، ونقل كواوتيموك مقر قيادته إلى أحد القوارب. وكانت المدينة قد اقتصرت على ما تبقى من بيوت لا تتسع لما بقي من سكان بائسين. وأخذ الأطفال والنساء بأعداد كبيرة يفرون من الجحيم ، فيتلقفهم الاسبان وحلفاؤهم باستقبال متباين ، فيعتقهم البعض ، ويذبحهم البعض الآخر. واعترف كورتيث بمقتل ١٥ ألف مكسيكي من غير المقاتلين ، في هذه الظروف. وفي مرحلة من هذا الحصار حاول كورتيث ان يدعو كواوتيموك إلى الاستسلام ، لكن الزعيم المكسيكي ، كرر موقفه ، مفضلاً الموت على الاستسلام ، فخاطبه كورتيث بقوله : « اذهب إلى شعبك واستعد للموت ».

ووقع كواوتيموك في الأسر. واستدعاه كورتيث على عجل ، وأجلسه بقربه. وتكلم كواوتيموك ، فقال للقائد الاسباني : « لقد بذلت كل ما وسعني للدفاع عن مدينتي ، ولم استطع اكثر. وبما انني لم آت اليك إلا مغلوباً على أمري وأسيراً ، خذ هذا الخنجر من وسطك ، واقتلني في الحال ». وامتدت يده إلى السلاح ، وانحدرت دمعة ساخنة على وجهه. غير ان كورتيث امتنع عن الاستجابة ، وأرسل في طلب نساء وابناء كواوتيموك.

في ذلك اليوم هطلت أمطار غزيرة ، وخيم سكون الموت عميقاً ، حتى خيل ان العالم كله أصيب بالصمم.

غير ان وعود كورتيث باكرام كواوتيموك لم تصمد طويلاً. فقد لجأ القائد الاسباني إلى تعذيب الزعيم المكسيكي لاجباره على البوح بمكان الكنوز المكسيكية التي كانت قد خبئت بعناية قبل القتال. وأرسل كورتيث الحصة التي تعود إلى الامبراطور شارلكان ، من المغانم ، بحراً. فاعترضها قرصان يعمل لحساب فرانسوا الأول ملك فرنسا واستولى عليها. وهكذا انتهت هذه الثروة في الخزائن الفرنسية. وسميت المكسيك « اسبانيا الجديدة » ، لكن قصة استبسالها ظلت أمثولة لا تفنى للبطولة والاباء ●

انتهى

(عن مجلة « التاريخ للجميع » الفرنسية)



النوابغ في شبابهم

- عندما بدأ الاسكندر المقدوني زحفه على الشرق ، وقاد جيوشه الظافرة في الميادين ، كان عمره ١٦ سنة.
- وفي سن الخامسة عشرة ، قدم الشاعر الفرنسي فيكتور هوجو قصيدته الأولى الى المجمع الادبي لمنح عليها جائزة.
- وكان الموسيقي موزارت يعزف في بلاط برلين وهو في السابعة عشرة.
- وعندما قادت جان دارك جيشها لتحرير فرنسا ، لم تكن بعد قد بلغت الثامنة عشرة.
- وفي العشرين ، بدأ بتهوفن يؤلف الحانه الخالدة.
- وعندما كتب شيللر روايته « دي روبر » كان عمره ٢٢ سنة.
- وكان نيوتون قد أذاع اكتشافاته العلمية وأصبح يعد من كبار العلماء وهو ما يزال في الرابعة والعشرين.

قبل ٢٥ سنة

تموز (يوليو) ١٩٥٤

إعداد : إيمان نويهض



● الرئيس الحبيب بورقيبة.

● الرئيس عبد الله اليافي.



٣ آب.

● الاخوان المسلمون يعلنون عن معارضتهم لاتفاقية الجلاء عن قناة السويس التي وقعها رئيس الوزراء المصري جمال عبد الناصر.

٤ آب.

● بعد اعلان نوري السعيد عن تشكيل حكومة عراقية جديدة احتفظ فيها بمنصب وزير الدفاع. الملك فيصل الثاني. ملك العراق. يعلن عن حل البرلمان العراقي.

● الحبيب بورقيبة يطالب بتمثيل كافة الاتجاهات وحتى الأقلية في الحكومة التونسية القادمة.

٦ آب.

● وصول جمال عبد الناصر. رئيس الوزراء المصري. الى مكة المكرمة لقضاء فريضة الحج وحضور مؤتمر اسلامي يعقد فيها لطرح قضية الوحدة العربية والاسلامية.

٧ آب.

● بعد محاولات عديدة نجح طاهر بن عامر في تشكيل حكومة تونسية جديدة من عشرة أعضاء ٤ من حزب الدستور الجديد، ١ إشتراكي، و ٥ مستقلين.

● عودة الرئيس السوري السابق شكري القوتلي الى دمشق بعد نفي طوعي الى القاهرة لمدة خمس سنوات.

٨ آب.

● زعماء وطنيون مغربيون يطالبون المؤتمر الاسلامي في مكة بتبني مطالب الشعب المغربي الداعية الى

وقف القمع الفرنسي والمطالبة بالاستقلال واعادة تثبيت السلطان المخلوع سيدي محمد بن يوسف سلطاناً للمغرب.

١٠ آب.

● حزب الدستور الجديد في تونس يرحب بقرار فرنسا اعطاء تونس حكماً ذاتياً ويطالب بنظام ديمقراطي يضمن السيادة التونسية. ويحافظ على المصالح الفرنسية شرط عدم تعارضها وحقوق الشعب التونسي.

١٥ آب.

● الصاغ صلاح سالم، وزير الارشاد القومي في مصر، يسافر برفقة محمد رياض، مسؤول الشؤون العربية في وزارة الخارجية، الى بغداد لاجراء محادثات مع المسؤولين العراقيين في محاولة لتقريب وجهات النظر وتخفيف التوتر بين الدولتين.

١٧ آب.

● انتهاء المحادثات العراقية – المصرية باتفاق كامل حول أغلب المسائل وتصميم على تجاوز العقبات التي تقف حاجزاً بين الدول العربية.

٢١ آب.

● جمال عبد الناصر، رئيس الوزراء المصري، يعلن عدم ارتباط مصر بأي حلف دفاعي أو هجومي مع بريطانيا، كما يعلن استعداد مصر لقبول المساعدات الأميركية أو البريطانية دون أية شروط.

٢٢ آب.

● أعلن موشي شاريت، رئيس الوزراء الاسرائيلي، أن اسرائيل تعارض سياسة الولايات المتحدة بتسليح الدول العربية مؤكدة أن اتفاقية الجلاء البريطاني عن السويس أخلّ بموازين القوى في الشرق الأوسط.

٢٤ آب.

● الحكومة الأميركية ترفض تمويل مشروع نهر الليطاني في جنوب لبنان مع العلم أن المشروع قد وضع من قبل النقطة الرابعة الأميركية.

٢٧ آب.

● عبد الله اليافي، رئيس الوزراء اللبناني، يغادر الى بغداد لاجراء مباحثات مع المسؤولين العراقيين.

الفراعنة والرياضة

٢

د. سيد كريم



المبارزة والتجذيف.. العاب الكرة والجمباز والرياضات الذهنية والروحية

● لا شك في أن ألعاب المصارعة التي بدأت مع الحضارة الفرعونية من عصور ما قبل التاريخ هي النواة التي تفرعت منها الكثير من الألعاب الرياضية فظهرت المبارزة التي كانت تطوراً طبيعياً لبعض أنواع المصارعة بعد أن أدخلت في التدريبات العسكرية وتمارينها واستعراضاتها فظهرت المصارعة بالأسلحة أو المبارزة مع بداية الدولة الحديثة وكانت أولى أسلحتها العيدان الخشبية ذات الرؤوس المدببة والأسياخ المعدنية والتي لم تكن تختلف عن المبارزة بالشيش المعروفة حالياً وكان المتبارزون يغطون رؤوسهم وأذقانهم بأحزمة وخوذات من الجلد وفي كثير من الحالات كان اللاعبون يحمون سواعد دفاعهم بأربطة جلدية يتلقون بها الضربات. بجانب مبارزة الشيش ظهرت أنواع مختلفة من المبارزة بالخناجر والمبارزة بالسيوف.

تعد ألعاب المبارزة بالسلاح بصفة عامة امتداداً «للتحطيب» الذي كان من الألعاب والمباريات الشعبية المستحبة والشائعة بين المصريين من أقدم العصور وخاصة في الريف وكانت تلعب بعصيّ اختلف تصويرها.

كانت في أول ظهورها تستخدم عيدان الغاب التي تنمو على شواطئ النيل ثم استعملت عيدان سعف النخيل وعندما انتقلت إلى المدن صنعت لها عصي خاصة خلال الدولة القديمة من سيقان الأخشاب الصلبة. وتزود العصا بمقبض جلدي كما كان اللاعب يتلقى ضربات خصمه بترس صغير ضيق يشده إلى ذراعه اليسرى بشريط من الجلد مماثل لما ظهر في المبارزة بالأسلحة وقد تفنن المصريون في فن التحطيب في الدولة الوسطى فظهرت أشكال مختلفة للعصي اختلفت في الطول والسمك وقد ينزل اللاعب إلى المباراة بعصوين واحدة يضرب بها وأخرى يرد بها ضربات خصمه.

لقد اقترنت كل لعبة من ألعاب الفروسية والمبارزة والتحطيب برقصات توقيعية خاصة ابتكروا حركاتها من حركات الألعاب نفسها كانوا يقومون بها بمصاحبة الفرق الموسيقية في الأعياد وحفلات الترفيه التي تعقب المباريات والمسابقات.

● لقد ظهر ضمن صور المصارعة في لوحات سقارة وبني حسن وما ارتبط بالمصارعة من ألعاب، رياضية ابتكرها المصري القديم فكان له قصب السبق في اكتشافها ووضع أصولها: حمل الأثقال، إذ صورت النقوش كيف كان يتدرب الشباب على رفع أكياس خاصة من الرمل إلى أعلى بطريقة النطر بيد واحدة، أو أن يرفع كل منافس خصمه المماثل له في الوزن بيديه إلى أعلى في وضع أفقي.

ولمصارعة الثيران والقفز فوقها صور من الدولة القديمة وجدت في مقابر الأسرة الثالثة بسقارة ومما هو جدير بالذكر أنه قد وجدت صور مماثلة لها بتفاصيلها في حفريات كريت التي ظهرت بعد الدولة القديمة بألف وخمسمائة عام كما ظهرت صورها أيضاً في الحضارة الاغريقية التي ظهرت بعد الحضارة الكريتية بخمسمائة عام. وقد نقل كل من الحضارتين الكثير من الألعاب الرياضية المصرية التي كانت معروفة في ذلك الوقت وكان لها الفضل في انتقال الرياضة من مصر إلى العالم الحديث بأكمله.

● السباحة وألعاب الماء

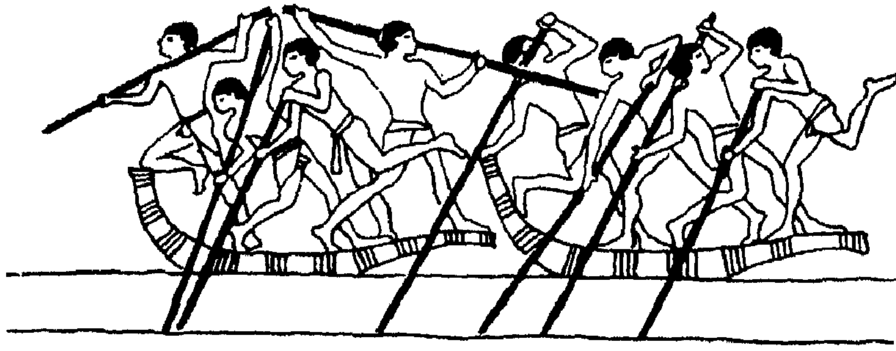
كانت للسباحة هوايتها التي ظهرت من أقدم عصور تاريخ الفراعنة. وقد خلفت لنا نقوش مقابر الدولة القديمة وكثير من أوستراكا الدولة الوسطى العديد من الصور والرسوم التي تعبر عن اهتمام المصريين بالسباحة واتقانهم لها وشغفهم بها. فوضعوا لممارستها القواعد والأصول الفنية التي ظهرت في نقوشهم ووصفوها في كثير من أساطير أدب قصصهم، وصفوا اللقاءات والمباريات بين الشباب في أحواض السباحة وبرك البردى والبحيرات المقدسة. صوروا قصص سباقات السباحة تحت الماء ومباريات الغوص لالتقاط قطع الحلي التي تكون من نصيب من يلتقطها من أعماق البحيرات والنهر المقدس في مناسبات الأعياد المقدسة وعيد حتحور إلهة الحب والجمال. ووصف الكاتب القديم مهارة شباب الريف في مباريات السباحة لعبور النيل في عيد الاله حعبي إله النيل. ووصفت إحدى البرديات الأرقام القياسية التي حققها المتبارون في عدد مرات عبور النهر بغير توقف أو السباحة الاستعراضية الطويلة في مرافقة سفينة حورس المقدسة وهي تنتقل في النيل بين إدفو ودندرة في عيد زواج حتحور من حورس.

ومع رياضة السباحة ظهرت رياضة التجذيف التي برع فيها المصريون ابتداء من ملازمتها لرياضة الصيد كما سبق ذكرها. وقد تفنن المصريون في صناعة مختلف أنواع سفن التجذيف والقوارب الشراعية وكانت هواية التجذيف من الهوايات المفضلة والمستحبة عند النساء والرجال على السواء. وكانت للنساء قوارب خاصة تفنن المصري القديم في صنعها وزخرفتها. كن يخرجن للتجذيف بها في بحيرات البردى بالفيوم والدلتا وعلى صفحة النيل وفي الأحواض الخاصة بالقصور في مختلف المناسبات والأعياد وتصاحب ضربات المجاذيف دقات الطبول والدفوف وآلات الموسيقى وأصوات الغناء مما كان مادة خصبة لكثير من أدباء وشعراء الدولة القديمة في وصف كثير منها.

ومن الرياضات المائية التي ابتكرها المصريون ما أطلق عليه اسم مبارزات القوارب. كانت المباراة تبدأ عندما يتقابل قاربا الفريقين المتنافسين فيتضاربان بعمد طويلة يحاول خلالها كل فريق اسقاط منافسيه في الماء. وهناك مباريات مماثلة كان سلاح المتبارين فيها أكياس من الجلد أو الكتان..

● ألعاب الكرة

● الكرة.. أقدم أدوات اللعب التي ابتكرها المصري القديم من أقدم الأزمان.. صنعها من أكياس نسيج الكتان وحشاها بالقش والخيش وهي المعروفة شعبياً



المباريات المائية أيام الدولة الوسطى

اليوم باسم الكرة الشراب ... وضع للعبتها أصولاً وتقاليد ما زال معمولاً بها إلى اليوم لم يطرأعليها تغيير رغم مرور ستين قرناً على ميلادها ، وأطلق عليها الفراعنة اسم «حري سنو» أي مرتين إلى الخلف و «داوا سنو» أي الرمية الخامسة . ما زالت تلك الأسماء والتعبيرات يطلقها عامة الشعب المصري على الكرة الشراب إلى يومنا هذا .

كما أن لعبة «الحكشة» الريفية التي استعملوا فيها مضارب للكرة صنعوها من جريد النخيل المفرطح الطرف ، أو سيقان الخيزران بجذوره الصلبة المعقوفة ما هي إلا لعبة الغولف العالمية بعصيها وطريقة لعبها . وحتى تتحمل الكرات ضربات العصي الصلبة الأطراف فقد هداهم التفكير إلى كسوتها بجلد الماعز ثم تطورت صناعة الكرات المختلفة الأحجام والأغراض إلى كسوتها بمختلف أنواع جلد الحيوان خاصة ما كانوا يستعملونه في الألعاب المائية .

كانت ألعاب الكرة بأنواعها التي تفننوا في ابتكار وسائل وطرق لعبها من الألعاب المحببة إلى الشعب بجميع طبقاته . فكانت هناك ألعاب الكرة الخاصة بالأطفال التي تجمع بين التسلية واللهو والتربية الرياضية اللازمة لبناء أجسامهم على اختلاف أعمارهم وهناك ألعاب خاصة بالبنات والنساء تجمع بين الرياضة البدنية وألعاب الجمباز والرقص التوقيعي صوروا الكثير منها على جدران مقابر بني حسن وسقارة منها الألعاب الثنائية أو المشتركة التي تشترك فيها مجموعة كبيرة من اللاعبات . ومن بين الألعاب المعروفة لعبة الحصان حيث تمتطي كل لاعبة كتفي زميلة لها وتتقاذف اللاعبات الطائرة برشاقة ومهارة واللاعبة التي تهزم تقوم بدور الحصان في حمل زميلتها لمواصلة المباراة .

كما استعمل المصريون في لعب الكرة أنواعاً مختلفة من المضارب الخشبية يشبه بعضها مضارب كرة الشاطئ والبنغ بونغ كما كسوا بعضها بالجلد أو سيور الجلد ونسيج الليف التي تشبه مضارب التنس الحالية . كما ابتكروا ألعاب الرماية بالكرات وكانوا يضعون لها أهدافاً من التماثيل الخشبية أو لوحات مزينة بمختلف الرسوم والنقوش .

● ألعاب الجمباز والأكروبات

برع المصريون القدماء في ألعاب الجمباز والألعاب الاستعراضية . وقد حفظت نقوش صور الحياة اليومية التي تزين جدران كثير من مقابر الدولة القديمة والدولة الوسطى مجموعات قيمة من استعراضات ألعاب الجمباز الجماعية التي تشترك في بعضها الفتيات مع الشبان وتجمع حركاتها الكثير من حركات الأكروبات المعروفة حالياً بأوضاعها الفنية التي تجمع بين الرشاقة والتناسق وكانت هناك أنواع خاصة من الاستعراضات للحفلات الدينية وأعيادها تجمع بين الحركات التوقيعية والتمثيلية التعبيرية كرقصات الباليه . وكانوا في حفلات الاستعراض والمباريات يرتدون أزياء رياضية موحدة تتشابه مع أزياء الرياضة الحالية ويتألف الزي من ازار نصفي محبوك على الخصر ومثبت بحزام عريض يحمل شارة الفريق الذي ينتمي إليه اللاعب وأشرطة عريضة يربطها كل لاعب حول معصميه ورسغيه . كما كان للمدربين والمحترفين زي خاص يميزهم عن بقية اللاعبين .

● رياضة العقل : الرياضة الذهنية

كانت لعبة الضامة أو الشطرنج من أقدم ألعاب الرياضة الذهنية التي كان الملوك وعلية القوم يتبارون في ممارستها وكانت اللعبة المفضلة عند الكثير من الفراعنة والكهنة وكانوا يحتفظون بنماذج منها في مقابرهم ضمن الأثاث الجنائزي ، كما سجلت رسومها وصورها على حوائط كثير من المقابر ضمن صور الحياة اليومية لأصحابها ، وقد وصل الكثير من نماذجها سواء ما وجد منها في حفريات

العصر العتيق والدولة القديمة بسقارة أو في مقابر الدولة الحديثة ، كان الفنانون يتبارون في تصميم أشكال مناضدها ووحدات قطعها ومن أجمل أمثلتها ما وجد في مقبرة توت غنج أمون.

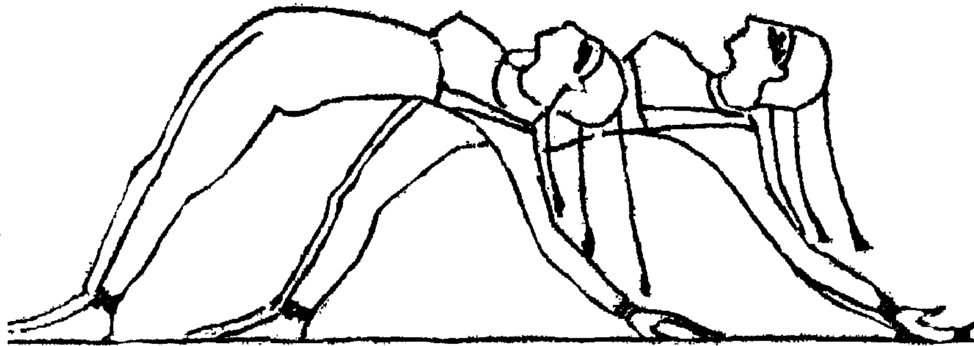
وكانت لوحة الشطرنج أو الضامة المصرية مقسمة إلى ١٨ و ٣٠ و ٣٦ مربعاً تميز عن بعضها البعض بالألوان أو الرموز والأرقام.

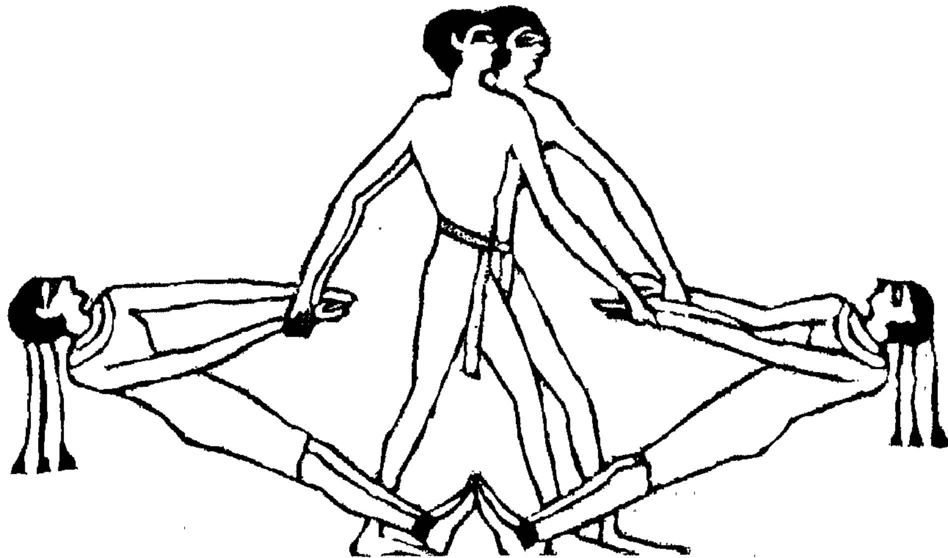
وكانت قطعها تصنع على هيئة الناقوس والمخروط ونصف الكرة كما كانت تشكل بعض قطعها بأشكال انسانية وحيوانية تصنع من العاج والابنوس والخشب ويختلف لون كل مجموعة عن الأخرى . كما تفنن المصريون في صناعة مناضد اللعب وخزائن حفظ القطع . وكان بعضها يصنع على شكل مناضد متحركة تفتح وتغلق بطرق فنية مبتكرة وبها أماكن رص القطع .

كما كانت منضدة اللعب التي تعد من أهم التحف الفنية التي يحتفظون بها في مجالسهم تضم خزائنها أكثر من لعبة من مختلف الألعاب الذهنية وألعاب التسلية حتى يشترك في اللعب أكثر من شخصين من الضيوف وأصحاب الدار كل على حسب هوايته.

لعبة الدومينو المعروفة حالياً وجدت لعبة مماثلة لها بأحجارها وترقيمها في احد مقابر الأسرة الثانية ومن الألعاب التي كانت شائعة في الدولة الحديثة لعبة يطلق عليها اسم «الكلب والثعلب» ولوحتها على شكل الدرع يتوسطها رسم نخلة وتتضمن لوحتها ٦٠ تجويفاً يساير عشرون منها جانبي ساق النخلة. وتعاقبت الأربعون الأخرى حول حوافها . أما أوتادها فهي على شكل دبابيس عاجية طويلة تشكل رؤوسها على هيئة رؤوس الكلاب والثعالب .

لقد خلف لنا الفراعنة عدة نماذج أخرى لبعض الألعاب الذهنية المعقدة أو ما أطلق عليها اسم ألعاب الذكاء والتي تعتمد على الذكاء والخبرة . ولكن لم تصل إلينا للأسف تفاصيل طرق اللعب الخاصة بها .

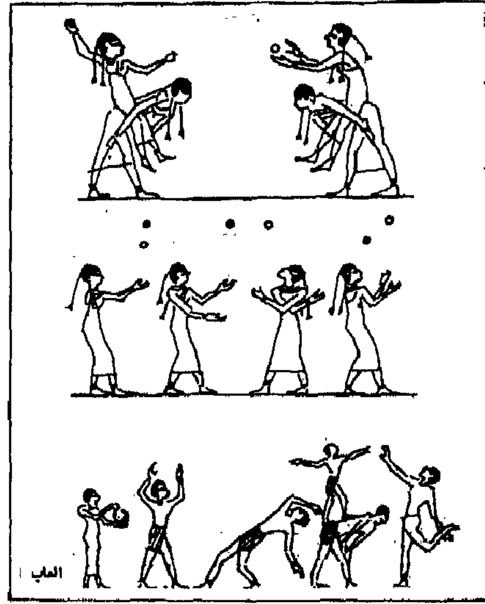




ألعاب الجمباز

● رياضة الروح : الرياضة النفسية

● ان رياضة الروح أو رياضة النفس كانت تلقن كعلم قائم بذاته له تعاليمه وطقوس ممارسته التي يعبر عنها بالرقص الديني . وكانت جزءاً لا ينفصل عن الخدمة الدينية سواء في المعابد أو خارجها في الحفلات الدينية ... وقد وصفوا الرياضة الدينية وحركاتها بأنها من الفنون الراقية التي يمارسها الآلهة والتي تستمتع بمشاهدة طقوسها . وان حركاتها هي لغة التخاطب مع الآلهة . ففيها ما يعبر عن الدعاء أو الاستمالة أو الاستجابة أو طلب الحماية وابعاد قوى الشر .



ألعاب الكرة والبهلوان

ويصف بعض علماء اللاهوت طقوس الرقص الديني بأنه نوع من الصلاة كما هو الحال في كثير من الأديان التي تعتمد طقوس الصلاة بها على الحركات الجسمانية والتوقيعية التي تصاحبها الأنغام الموسيقية والأناشيد ومنها ما كان يعبر عنه بالرقص الطقسي الذي يعتبر من الطقوس الدينية الجنائزية ومنها الرقص التمثيلي الذي تمثل فيه الحوادث التاريخية الدينية وأساطيرها ومظاهرها المختلفة بما يشبه التابلوهات التعبيرية الحية في فن الباليه الحديث . وتمتد طقوس الرقص الديني من الحركات التعبيرية والتوقيعية الهادئة إلى الطقوس التي تشبه حركات الذكر الحديث .. ان لم تكن الأخيرة امتداداً طبيعياً لها والتي تسير مواكبها حاملة الطبول أو الدفوف وسعف النخيل والسيوف لطرد الأرواح الشريرة التي تعترض الموكب أو تعوق مسيرته . وما حفلات الزار الحالية وما يصاحبها من حركات هستيرية إلا امتداد لطقوس مماثلة من أنواع الرقص الديني أو الرياضة الروحية التي قصد بها طرد الأرواح الشريرة وشفاء الأمراض المرتبطة بها والتي ارتبطت بعلاقة السحر بالعقيدة وطقوسها . وقد حاول بعض علماء العصر الحديث في علوم الرومانيات دراسة علاقة الأوضاع والحركات الرياضية التي ترتبط بتلك الطقوس . بالتأثيرات والمؤثرات الطبيعية والكونية .

لقد كشفت رياضة الروح والنفس عند قدماء المصريين عن أن رياضة اليوغا كانت معروفة عندهم وكان لهم السبق في ممارستها وأنها كانت من الطقوس الدينية . وقد وجدت صور كثيرة من أوضاع اليوغا في نقوش مقابر حفريات الدولة القديمة قام ببحثها العالمان الفرنسيان سانبوسي ولوبري في البحوث التي قام بها كل منهما عن أصول اليوغا وتعاليمها وتاريخ نشأتها . وأثبتا أن كهنة الفراعنة كانوا أول من وضع أسس اليوغا وانهم قاموا بمارستها ضمن طقوسهم المقدسة ابتداء من الأسرة الأولى نفسها أي حوالي عام ٣١٠٠ ق . م .

كما كشف البروفسور لوبري ان أول أوضاع اليوغا وهي رفع الذراعين إلى أعلى لاستقبال القوى الكونية أو علاقة الروح بالقوى العليا عبر عنها قدماء المصريين بعلامة « الكا » أي النفس التي صوروها على شكل ذراعين ممدودتين إلى أعلى تشيران إلى السماء . كما ذكر سانبوسي ان تماثيل فراعنة مصر في مختلف العصور تشترك جميعها في وضع واحد معين وهو التقدم بالساق اليسرى إلى الأمام وقبضة كل من اليدين على قطب مغناطيسي وهي من تمارين تعاليم اليوغا التي تعمل على سيطرة الشخص بقوته وشخصيته على من يقف أمامه .

كما كشف في الوقت نفسه علاقة الحركة في النحت الفرعوني وصور الآلهة وأوضاعها باليوغا أو الحركات المقدسة والتي وجدها لأوضاع معينة وثابتة لم تتغير بتغير فن النحت والتصوير وطابعه من عصر إلى آخر كما هو الحال في الأوضاع الثابتة لتماثيل الملوك وقد لعبت اليوغا دوراً كبيراً في السحر في مختلف العصور الفرعونية عندما كان كهنة السحر يحتفظون بأسرارها وطرق ممارستها داخل أسوار معابدهم .

وهكذا كان ارتباط الرياضة بالعقيدة هو الذي مهد لخلودها بوضع التشاريع الثابتة لأصولها وقواعدها فتمسك بها الشعب وحافظ عليها لتصبح من تقاليده الموروثة ومن المقومات المميزة لحضارته . وجعل ممارستها من أركان العقيدة لسلامة النفس والعقل والجسد .

نادى العالم بسلامة الجسم لسلامة العقل .

ونادى المصري القديم بسلامة الجسم لسلامة العقل وسلامة النفس ●

انتهى

تاريخ الشطرنج

الهند ٣

بقلم محمد مراد سكر



الهند تتحدى اذكياء فارس .. بالشطرنج

يروى الفردوسي في الشاهنامة القصة التالية ننقلها كما جاءت في الجزء الثاني من الطبعة الأولى الصادرة سنة ١٩٣٢م.

قال صاحب الكتاب: جلس أنو شروان ذات يوم على تخت السلطنة في مجلس حضرته ملوك الأطراف وارباب الدولة، وأعيان الحضرة. فجاء بعض الحجاب وأعلمه بوصول رسول من صاحب الهند وفي صحبته الف جمل باحمالها. فأذن له فدخل وخدم وأثنى على الملك ونشر بين يدي التخت جواهر كثيرة. ثم عرض ما استصحبه برسم الهدية. وكانت من جملتها مظلة مرصعة بالجواهر وعشرة أفيال. ثم حل الاحمال فكانت مشتملة على الذهب والفضة والعود والكافور وسائر أنواع الجواهر. فعرض الكل عند

التخت، ثم جاء بكتاب مكتوب على الحرير وتحت للشطرنج. فقال: أن الراي - يعني ملك الهند - يقول: ليأمر الملك اعلم أصحابه واذكى من على بابه أن يضع هذا التخت قدامه، وينظر فيه، ويلعب بهذه التماثيل على الصحة، ويذكر اسم كل واحد منها ويضعه في بيته من الرقعة، ويعرف كره وفره. فان قدرتم على استخراج ذلك، التزمت الخراج ونفذته الى الخدمة. وان عجزتم عن ذلك فلا تلزمونا الخراج والتزموه. فحق عليكم أن تقدموا العلم ولا تتقدموه.

قال: فاخذت تلك الرسالة بمجامع قلب انو شروان، فاستحضر النطع والتخت، وشاهد تلك التماثيل، فرأى بعضها منحوتاً من الساج والبعض مخروطاً من العاج. فسأله عنها فقال: أن هذا موضوع على رسم القتال وآيين الحرب بين الرجال، فاقبل الملك على علمائه وموابذته، وقال: عليكم باستماع ما يقول هذا الرسول، واستخرجوا المكنون من السر. فتقدم بزرجمهر وبسط النطع، وأخذ يتفكر. فعبى تلك التماثيل صفوفاً: فجعل الشاه في القلب، ورتب على يمينه دستوره، يعني الفرزان، ورتب الميمنة والميسرة، وقدم الرجالة، يعني البيادق، بعد أن قام على كل طرف من الرقعة مبارزاً، يعني الرخ، ورتب الفيل والفرس من جانبي الشاه، فسوى صفوفها حتى تقابلت وتوازت مثل الصفوف المعباة يوم اللقاء. فلما رأى الهندي ذلك، أظلم في عينه ضوء النهار، واصفر وجهه حتى صار كورق البهار، وتعجب من ذكاء ذلك العالم ومن تفطنه لذلك. فتهللت اسرة وجه أنو شروان، وتوردت وجنتاه، واستبشر بنصب بزرجمهر لتلك التماثيل ووضع كل منها في موضعه. فامر له بجام مملوء من الجواهر الشاهية، وبدرة من الذهب، وفرس بسرجه ولجامه. واثنى عليه كثيراً. فقام بزرجمهر وعاد الى منزله فوضع بين يديه التخت والفرجار، وغاص في بحر الفكر، وحذا حذو الهنود في وضع الشطرنج، وتحاوب عساكر الروم فيه والزنج، فوضع النرد بفطنته وذكائه، وأمر بعمل خرزتين من العاج منقطتين بالساج. ورتب له ناوردا كناورد الشطرنج، وسوى الصفوف من الجانبين وقسم العسكرين صفوفاً ثمانية كأنها كراديس متشمرة للقاء. ولما فرغ من ذلك ركب الى خدمة أنو شروان، وذكر له ما وضع. ثم أنهم استمهلوا الرسول سبعة ايام ليستخرجوا كيفية اللعب بالشطرنج. فانزلوه في مكان وأمر انوشروان باستحضار العلماء والموابذة فحضروا وأخذوا في استخراج ذلك اللعب الخفي فطال عليهم الأمر فلم يقدروا. وصعب ذلك على أنو شروان وقال: ان لم يتضح هذا السر أورث علماء ايران وهنا عظيماً. فخلا بزرجمهر بنفسه ونصب الشطرنج بين يديه فبقي يوماً وليلة ينقل تلك التماثيل يمنة ويسرة حتى وقف على كيفية اللعب به. فاظهر ذلك لأنو شروان فقضي العجب من ذلك واثنى عليه. ثم أمر فاوقروا الفي جمل من الأمتعة التي تجلب من الروم والصين وسائر تلك الممالك. ثم استحضر رسول الراي ملك الهند، وأجاب عن كتابه وذكر فيه أنه قد وصل رسولك وعرض ماكان معه من الهدايا والتحف فقبلناها. وأما الشطرنج فانا استمهلنا الرسول اسبوعاً فتجرد الموبذ الطاهر القلب للتفكير في استخراج اللعب به. فلم يزل ينقب ويبحث حتى وقف عليه وعلى استخراج سره الخفي. وقد نفذنا هذا الموبذ الى خدمتك مع ألفي حمل من الاقمشة النفسية ووضعنا النرد بازاء الشطرنج، ونفذناه الى الخدمة. فان فطنتم للعب به فلكم هذه الأحمال، وان عجزتم فاضيفوا اليها مثلها من عندكم ونفذوها الى خزانتنا. والسلام. فسار بزرجمهر بمن معه نحو الهند حاملاً معه النرد الى آخر القصة مما ليس له أية علاقة في الشطرنج.

تاريخ الشطرنج للمسعودي.

وينسب المسعودي (سنة ٩٠٠) م. في كتابه مروج الذهب، هذه اللعبة الى الهند ويرجعها الى الملك بلهيط فيقول في أخبار الهند:

وضع الشطرنج في أيام الملك بلهيط، فقضي بلعبها على النرد وبين الظفر الذي يناله الحازم والبلية التي تلحق الجاهل وحسب حسابها ورتب لذلك كتاباً للهند يعرف بطرق الحكماء يتداولونه بينهم، ولعب بالشطرنج مع حكمائه وجعلها مصورة تماثيل مشكلة على صورة الناطقين وغيرهم من الحيوان مما ليس بناطق، وجعلهم درجات في مراتب، ومثل الشاه بالمدير الرئيس وكذلك من يليه من القطائع، واقام ذلك مثالاً للأجساد العلوية التي هي الأجسام السماوية من السبعة والاثني عشر، وافرد كل قطعة منها بكوكب، وجعلها ضابطة للملكة، واذا كان عدد من اعدائه فوقعت منه حيلة في الحروب، نظروا من أين يؤتون في عاجل وآجل، وللهند في لعب الشطرنج سر

يسرونه في تضاعيف حسابها ويتعلقون بذلك الى ما علا من الافلاك، وما اليه منتهى العلة الأولى واعـداد أضعـاف الشطـرنج (٦١٥٠٠٠ ١٨٧٤٠٠٠٩٥٠٠٠٥١)، وهذه الألوف لها عندهم معان يذكرونها في الدهور والأعصار وما تقتضيه سائر المؤثرات العلوية في هذا العالم لارتباط نفوس الناطقين بها أو لليونانيين والروم وغيرهم من الأمم عن الشطرنج كلام ونوع من اللعب قد ذكر ذلك الشطرنجيون في كتبهم ممن تقدم منهم الى الصولى والعدلى، واليهما كان انتهاء اللعب بالشطرنج في هذا العصر..

... ويشرح البستاني :

● لغوياً

ويروي البستاني في كتابه دائرة المعارف القصة التالية: الشطرنج – قيل هو لفظة فارسية مشتقة من شاه لأنه أهم نقطة في اللعبة، وقيل هو معرب ششي رنك بالفارسية، أي ستة أبواب، وذلك لأن له ستة أصناف من القطع التي يلعب بها فيه، وقد اختلف في مخترعه وزمن اختراعه، فأرجع الى بعض من مشاهير المؤرخين القدماء السابقين لعصر هيرودوتس وفرجيلوس واورانيوس، وزمن اختراعه الى زمن حرب طرواده. ولكن الشرقيين عارضوهم في ذلك وارجعوه الى الهند، وقالوا أن لعبة الشطرنج وضعت منذ خمسة آلاف سنة ثم انتقلت الى بلاد العجم في عهد الملك كسرى، وأيدوا رواية تذكر السبب الباعث على اختراعه فقالوا :

● تاريخيـاً

قام في بداءة القرن الخامس من التاريخ المسيحي على مقربة مصب نهر الكنك ملك فتى متصف بكل السجايا التي تكسبه محبة رعاياه وثقتهم به، غير أن المراهنين المقربين اليه جعلوا سجاياه غرضاً لنيال نواياهم الخبيثة ومآربهم الفاسدة، وتمكنوا بالاستمرار في افساد اخلاقه وحببوا اليه التأنق والملاهي واللذات والاسراف، فلها بها أي لهو عن خير رعاياه وما يؤول الى نجاحهم وفلاح المملكة، فساد ذلك الحكماء والمتعقلين ولكنهم لم يجسروا على التفوه بكلمة ولا على معارضته في أمر خشية أن يعرضوا نفوسهم لانتقام اتباعه منهم، ويجلبوا عليهم سخطهم وسخطه، وكان من جملتهم حكيم على جانب عظيم من الخدمة والدراية اسمه سيساك، فجهد نفسه في هداية الملك وتقويم طرقه وإصلاح الخلل قبل أن يلم بالمملكة الخراب والدمار، وان كان يعلم العلم اليقين أن الملوك كسائر البشر لا يطيقون لضعف الطبيعة البشرية تعييب أعمالهم وتخطئه تصرفاتهم صريحا، وأن المقربين لدى الملك حاجز يحول دون عمله، ويرد الخير الساعي به شراً عظيماً، فأخذ يتصرف تصرف الحكيم البصير. وشحذ قريحته ليلاً ونهاراً توصلا الى وسيلة تفتح عيني الملك وتريه ضلاله وترجعه عن غيه دون أن تجرح احساسه ولا أن يصيبه هو منها أي أذى. فاخترع لعبة الشطرنج وجعل كما هو مشهور أهم دور فيها للملك موقفاً بقاءه وسلامته على غيرة رعاياه وصحبتهم له كل التوقف، ومن المعلوم أن لعبة تورث القهر والنكاية مثل الشطرنج تحرك رغائب القوم في تعلمها، ولا يلبث خبرها طويلاً حتى يجوب أقطار المملكة، فبلغ خبرها مسامع الملك في برهة يسيرة، فهام غاية الهيام بتعلمها، واستدعى على الفور الحكيم سيساك وطلب اليه أن يعلمه أحكامها وطوابقها. فأطاع الحكيم أمره بملئ السرور، وأخذ يشرح له كل مرة شروحاً تمثل حالته وسيرته وكل تصرفاته كما هي بأساليب شائقة وعبارات رائقة فنجع خيراً كلامه فيه فارعوى عن غيه ورجع الى معرفة الصواب وانعتق فؤاده من الأميال والعواطف التي كان الى ذلك الحين رقيقا لها، فوجه حينئذ معظم اهتمامه الى اصلاح سيرته وتعويض ما فرط منه فصار في مدة وجيزة مثال تقي وحكمة. ولشدة امتنانه في سيساك أراد أن يجزل جزاءه فقال له اقترح ما شئت فأنيلكه. فقال سيساك :

أحسب للخانة الأولى من رقعة الشطرنج حبة قمح، واثنتين للثانية، وأربعة للثالثة، وثمانية للرابعة وهلم جرا الى الخانة الرابعة والستين واعطني ما يتحصل منها جميعاً وكفى، فلاح للملك أنه طلب حقير لا يوازي ماله في الفضل، فقال له وفر الطلب ولا تخشى الفشل فأجابه: اني على ما طلبت لا غير. فضحك منه وأمر أن يعطى كما قال، ولكن لما حسب مطلوبه علم أن كل ثروة المملكة لا تكفيه، ولما وجد الملك أنه من غير المستطاع اجابته فقال له سيساك منتهزاً الفرصة أنه يجب على الملوك أن يتيقظوا لأنفسهم ويحذروا من المقربين لديهم وأن لا يعدوا وعوداً دون أن يـدركـوا أهميتـهـا وعـواقبهـا (يـبـلـغ هـذا الـرقـم نـقلاً عن مـوسوعـة لاروس الـفـرنسية ٦١٥، ٥٥١، ٧٠٩، ٠٧٣، ٧٤٤، ١٨،٤٤٦

حبة قمح). ويزيد الصفدي على هذه القصة فيقول: أنه تبين للملك أنه كان عليه لتلبية الطلب أن يجمع محصول ١٦٣٨٤ مدينة على أن تقدم كل مدينة ١٠٢٤ مخزناً في كل مخزن ١٧٤٧٦٢ كيلاً في كل كيل ٣٢٧٦٨ حبـــة مما يجعــل الــعــدد ٦٥٦، ٦٩٢، ٥٤٦، ٤٢٥، ٠٧٦، ٨٧ حبة.

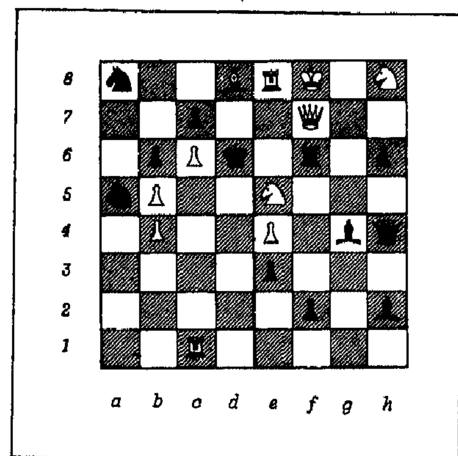
هذا العدد حدده الكونت باسترو في كتابه
((Traite élémentaire du jeu des échecs))
ويضيف ان محصول فرنسا إذا جمع ١٠٩٦٠٠ سنة لما كفي لتسديد وعد الملك.

كتاب (بهاويشيا بوران) الذي وصفه (غوتاما) الفيلسوف الهندي يحوي شرحاً بشكل محاورة بين «يودهشتر» و«فيازا» هذه اللعبة الهندية القديمة وكانت تدعى كما يقول الكاتب الفيلسوف هذا تشاطيرنجا والمعروفة أكثر باسم (تشاطورادجي) أو الملوك الأربعة، ويذكر أهم قواعدها ويضيف فيازا بعد هذا الوصف إلى أن أغلب الكتب القانونية القديمة كانت تشير إلى هذه اللعبة وعلى أن امرأة رافان ملك لانسا اخترعت هذه اللعبة على شكل الحرب لتسلي بها زوجها عندما كانت عاصمة بلاده محاصرة من قبل راما، كما يضيف أن براهمة غور والبنغال كانوا ماهرين بهذه اللعبة (عاش الفيلسوف غوتاما في القرن الخامس عشر قبل الميلاد) كما يقول بعضهم بينما يذكر آخرون أنه عاش في القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

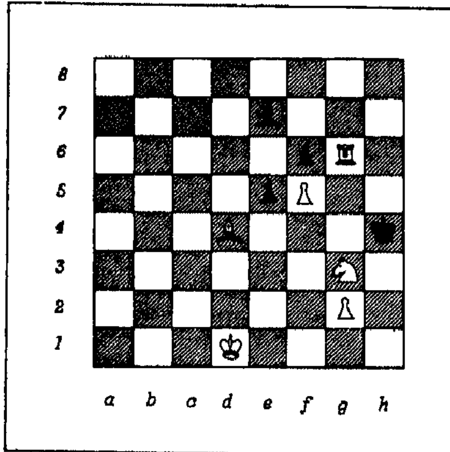
وقبل أن نختم كلامنا عن الهند لا بد في ذكر هـذه الطرفة التي روتها مجلة (لابريس) في ٢٨ آذار ١٨٦٤ عن لاعب هندي شاب كان يقوم بالعجائب أثناء لعبة الشطرنج. إذ تقول. كان هذا الشاب يستطيع أثناء لعبة الشطرنج استدباراً (أي دون أن يرى الرقعة) ضد ثلاث لاعبين دفعة واحدة، أن يلعب بالورق ويربح، وكانوا أثناء اللعب يقرعون جرساً في كل ثانيتين أوثلاثة وكان يذكر لهم في آخر اللعب كم مرة قرع الجرس، وكان آخر يرمي على ظهر هذا اللاعب بحصى ناعم واحدة تلو الأخرى وكان يعطيه في نهاية اللعب عدد البحصات التي رُميت عليه، وفوق كل ذلك كان يلقي في نهاية اللعب قصيدة ألفها علماً بأنه كان يربح الجولات الثلاث التي لعبها استدباراً.

مسابقة الشطرنج رقم ١٠

المسألة ١٩ مات بنقلة.



المسألة ٢٠ مات بثلاث نقلات.



حل المسابقة رقم ٨

المسألة رقم ١٥: المفتاح 1 - Txé4

المسألة رقم ١٦: المفتاح (1 - b7)

إذا أجاب الأسود (1 - ...Té7)

فالأبيض يلعب (2 - Cb6)

أما إذا أجاب الأسود (1 - ...Tf7)

فالأبيض يلعب (2 - Cé4).

قسيمة الشطرنج ١٠

تاريخ الطوابع

سوريا ايام الانتداب

ميشال اسطفان

● في العدد الخامس من هذه المجلة (عدد آذار–مارس ١٩٧٩) كنا قد كتبنا عن الطوابع السورية، الا اننا ارجأنا بعض البحوث الجانبية بالموضوع لضيق المكان وقتئذٍ. وها نحن نعود اليها الآن في ما يلي:

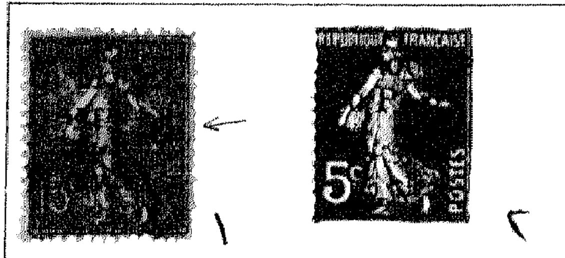
زهرة حلب: عندما تركت القوات الانكليزية سورية سنة ١٩٢٠ توقف التعامل بالعملة المصرية الموازية بقيمتها للنقد الذهبي الذي يزيد ثلاث مرات عن قيمة النقد السوري–اللبناني، باستثناء حلب، فان التعامل بالذهب بقي رائجاً فيها، وهذا حمل السلطة هناك على وضع شارة مميزة على الطوابع وبيعها بالعملة الذهبية وفق تعرفة جديدة للتخليص. فاستقدمت من فرنسا الكليشيهات الام وعددها ٢٥، وتحمل كل منها شارة تشبه الزهرة، (صورة ١)، ووشحت الطوابع الموجودة في الاستعمال، باللون الاسود فقط، وهي مجموعة سورية لسنة ١٩٢٠، (توشيح مطبعة جدعون الطبعة الأولى فقط، بعد الارقام مليمتر واحد)، وفئاتها: ٢٥و٥٠ سنتيم أو ٢و٥و١٠و٢٥و٥٠و١٠٠ قرش.

جاءت الطباعة سيئة جداً فاخذت الادارة توشح الطوابع باليد توشيحاً متقناً وباللون الاحمر، وعلى طوابع مطبعة جدعون الأولى فقط، وهذا أتاح لبعضهم الحصول على مجموعات كاملة من الطوابع العادية المستعملة في ساحل سورية وتوشيحها بطريقة سرية، فوجدت بهذه الطريقة مجموعات من طبعة جدعون الثانية (بُعد الارقام ٢ مليمتر)، وبما انها تحمل توشيحاً اصلياً غير مزور، وان كان غير رسمي فانها معترف بها من قبل الهواة؟ وهذه المجموعة على اختلاف الوان توشيحها واختلاف طبعاتها تعد من المجموعات النادرة الغالية الثمن.

نيّات الانتداب

عندما انتدبت الدولة الفرنسية لحكم سورية وفقاً لقرار عصبة الامم. اعتمدت سياسة تقسيم البلاد الى دويلات صغيرة فتسهل السيطرة عليها وتنفيذ الغايات الخلفية التي كانت ترمي اليها من وراء الانتداب. فجعلت ساحل سورية الواقع شمال لبنان الممتد ما بين النهر الكبير الجنوبي، والنهر الكبير الشمالي وتشمل سلسلة الجبال الممتدة شمالاً حتى الاسكندرون، جعلت هذه المنطقة مستقلة استقلالاً إدارياً، وذلك في ٣١ آب (اغسطس) سنة ١٩٢١، وبتاريخ ١٢ تموز (يوليو) سنة ١٩٢٢، بموجب القرار رقم ١٧٠ الصادر عن المفوض السامي الجنرال غورو، اعلنت حكومة «مستقلة».

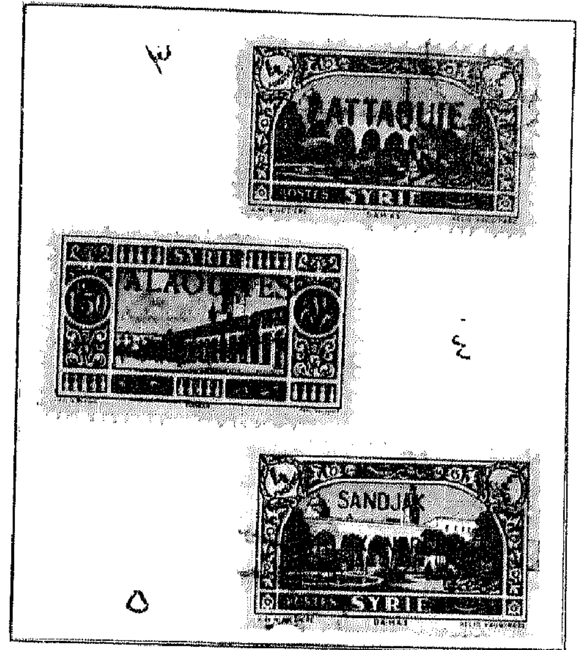
كانت البلاد تستعمل الطوابع الموجودة في سورية، أي الطوابع الفرنسية الموشحة، الى ان صدر القرار رقم ٣٠٠٥ تاريخ ٢٦ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٢٤، فأوجب في مادته الثانية ان تحمل الطوابع البريدية المستعملة هناك اسم العلويين، وبالفعل ظهرت أول مجموعة مؤلفة من ١٥ طابعاً فرنسياً من فئة ١/١٠ القرش حتى ٢٥ قرشاً موشحة بالعربية والفرنسية والسعر الجديد (صورة ٢)، ومجموعة تذكارية أخرى من ستة طوابع



تحمل صورة بستور من فئة نصف قرش الى ٤ قروش . ومجموعة للبريد الجوي مؤلفة من اربعة طوابع . عليها بالاضافة الى التوشيح السابق كلمة «طيارة» بالعربية والفرنسية . ومجموعة للأجور المستحقة مؤلفة من خمسة طوابع موشحة أيضاً .

ومنذ سنة ١٩٢٥ وضعت في الاستعمال الطوابع السورية الموشحة (إصدار سنة ١٩٢٥ المصورة) . فصدرت منها ثلاث مجموعات للبريد العادي . وخمس مجموعات للبريد الجوي . ومجموعة واحدة للأجور المستحقة (صورة ٣) .

وبتاريخ ٢٢ آذار (مارس) سنة ١٩٢٥ . بموجب قرار من المفوض السامي اطلق على هذه المنطقة من سورية اسم حكومة اللاذقية . وبقرار آخر من المفوض السامي بتاريخ ١٥ نيسان (ابريل) سنة ١٩٣١ قرر ان تستعمل هذه المنطقة طوابع سورية موشحة «اللاذقية» بالعربية والفرنسية . وبالفعل فقد صدرت ما بين ١٩٣١ و١٩٣٣ مجموعة عادية مؤلفة من ٢٢ طابعاً ومجموعة للبريد الجوي مؤلفة من ١١ طابعاً ومجموعة للاجور المستحقة مؤلفة من طابعين فقط (صورة ٤) .



سنجق الاسكندرون

الاسكندرون منطقة زراعية خصبة وهي جزء من سورية وتعد الميناء الطبيعي لحلب وشمالي سورية .

دخلت هذه المنطقة تحت النفوذ الفرنسي كما دخلت سورية منذ سنة ١٩١٩ . وكان على الدولة الفرنسية ان تحافظ عليها بوصفها جزءاً من منطقة إئتمنت عليها عملاً بشرعة عصبة الامم التي وضعت صك الانتداب . ولكن فرنسا وهبتها دون حق الى تركيا في أعقاب صفقة سياسية عقدتها معها . وعندما علا الاحتجاج وقامت قيامة سورية والعرب على ذلك . اجري استفتاء صوري لعب فيه الترهيب والترغيب والتزوير دوراً فعالاً . فاذا بهذه البلاد الغنية بشتى مواردها . الواسعة بمساحاتها وخصب اراضيها . تضم الى تركيا سنة ١٩٣٩ .

كانت هذه المنطقة من سورية تستعمل الطوابع المستعملة في سورية . إلاّ ان السلطة المنتدبة الفرنسية . مقدمة لالحاق هذه المنطقة بتركيا . ولكي يكون التنفيذ تدريجياً فيما يخص النقمة التي تتجزأ مع الوقت وتتلاشى . أمرت بأن تستعمل هناك الطوابع السورية الموشحة «سنجق الاسكندرون» بالحرف اللاتيني دون العربي . فصدرت مجموعة مؤلفة من ١٢ طابعاً للبريد العادي . ومجموعة مكللة بالسواد حداداً على أتاتورك (وما شأن سورية أو فرنسا بالحداد على اتاتورك لولا النيات المبيتة) ومجموعة للبريد الجوي من ٨ طوابع ومجموعة للأجور المستحقة من ستة طوابع (صورة ٥) .

وأخيراً عندما أعلن الالحاق بتركيا صدر عدد من الطوابع التركية تحمل توشيح «هاتاي دولتي» بالحرف اللاتيني . ثم اصبحت المنطقة بعدئذ جزءاً من تركيا تستعمل طوابعها .

جزيرة أرواد

ارادوس باليونانية ومعناها موئل التائهين أو الهاربين وهي جزيرة صخرية في المتوسط تقع على ثلاثة اميال في البحر من طرطوس السورية . طولها نحو ٨٥٠ متراً وعرضها ٤٥٠ متراً بناها المهاجرون الصيدونيون منذ القدم فجاء ذكرها في سِفْر التكوين وسِفر الايام وسِفر حزقيال وسِفر المكابيين . على انها مملكة فينيقية بعيدة الذكر والقوة والنفوذ .

ازدهرت الجزيرة فضاقت بسكانها فذهبوا في البناء صُعداً فكانوا الرواد في بناء ناطحات السحاب . وكانوا ملاحين أشداء مغامرين فجالوا المتوسط وجاوزوه . واقاموا لهم مراكز لاعمالهم في كل ثغر . اما في البر فقد اتخذوا لهم متنفساً بعد ان ضاقت بهم الجزيرة . فوسعوا مملكتهم حتى حماة . وتفساح على الفرات . كما اقاموا على الشواطئ والسفوح سلسلة من المدن سميت بنات ارواد من اشهرها

ماراتوس أو عمريت. وبالانة أو بانياس. وغبالة أو جبلة. وبالتوس. وكرنة. وانهيدرا وغيرها مما أصبح معظمه اليوم اطلالاً دارسة.

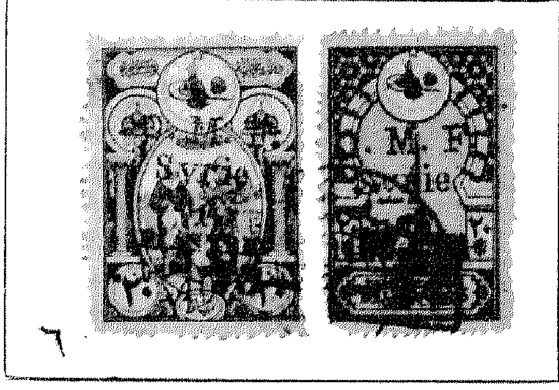
ومرت الأجيال والسنون على هذه المملكة فأتت عليها الحروب المتعددة الى ان حاصرها الجيش الاسلامي في عهد معاوية بعد غزوة قبرص. فحال فصل الشتاء دون فتحها. فعاد اليها بعد سنة. فاستسلم اهلها بشرط ان يعطوا حرية التنقل والسفر. فدخلتها الجيوش واحرقتها ودكت اسوارها وعطلت ميناءها وذلك سنة ٥٤ هجرية. وكان على رأس الحملة جُنادة بن ابي امية. ثم تملكها الصليبيون. ثم خرجوا منها عند خروجهم من سورية سنة ١٣٠٢م.

دخلت هذه الجزيرة بعدئذ في الممتلكات العثمانية. فاستعملت طوابعها عند صدورها الى ان صدرت مجموعة خاصة بها هي كناية عن ثلاثة طوابع «Levant» الفرنسية موشحة «Ile Rouad». صدرت سنة ١٩١٦. ثم صدرت بعدئذ مجموعة أخرى مؤلفة من ١٣ طابعاً من ١ سنتيم الى ٢٠ قرشاً وشحت أيضاً على الطوابع الفرنسية نفسها الخاصة بالشرق بكلمتي «   » بأحرف مزخرفة. وقد صدرت ما بين سنتي ١٩١٦ و١٩٢٠. ثم أصبحت هذه الجزيرة بعدئذ تستعمل الطابع السوري.

عينتـاب

بلد في جنوب تركيا احتلته القوات البريطانية سنة ١٩١٩ ثم القوات الفرنسية في ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٩ بوجود القوات البريطانية التي انسحبت تدريجياً بعدئذ سنة ١٩٢٠. ولكن الاتراك حاصروا البلد في أعقاب ذلك. في شهر أيار (مايو) سنة ١٩٢٠. ثم وقعت هدنة لمدة عشرين يوماً لكن الاتراك حاصروها مجدداً من ١١ آب (اغسطس) سنة ١٩٢٠ الى ٩ شباط (فبراير) سنة ١٩٢١. وانتهى الأمر بمعاهدة انقرة في ٢٠ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٢١ التي انسحب الفرنسيون على أثرها من البلد والحقت عينتاب ومرعش وأورفة وماردين بتركيا.

أما الطوابع المعروفة التي استعملت في هذا البلد اثناء احتلال الفرنسيين. فكانت أربع فئات من الطوابع التركية لسنتي ١٩١٦ و١٩١٧. التي وجدت بالبريد آنذاك بعد احتلال البلدة. وهي من فئة ١٠ بارة موشحة على ٢٠ بارة. و٢٠ بارة من طابع آخر وقرش واحد. وقرش واحد من طابع آخر. توشحت بالتسلسل قرش واحد مكرر وقرشان مكرر. مرة باللون الاحمر ومرة أخرى باللون الاسود وكان عددها محدوداً جداً واستعملت من تموز (يوليو) الى ٢٧ آب (اغسطس) سنة ١٩٢١. ولندرة هذه المجموعة اصبحت قيمتها التجارية اليوم تزيد على الفي ليرة لبنانية (صورة ٦).



— اسئلة القراء —

جوابنا عن أسئلة السيد توفيق اسكاف:

١ — هذا غير صحيح. فان للطوابع المختومة أسعار بيع وشراء. ولكن هناك اقبالا على بلد اكثر من بلد آخر.

٢ — ليست اسعار الكتالوغات صحيحة مائة في المائة. والواقع ان معظم اسعارها هي أعلى من أسعار الطوابع الحقيقية. ما عدا بعضاً منها تكون نادرة جداً وتفوق سعر الكاتالوغ.

٣ — الطوابع اللبنانية الجديدة اصدار الثلاثينات ان كانت مجموعات كاملة وحالتها جيدة ونظيفة. لها أسعار مناسبة ويهمنا الحصول على كشف واضح بالموجود أو عرضها علينا وهو الافضل.

٤ — أخذنا بعين الاعتبار اقتراحكم لاسلوب التجميع وطريقة حفظ الطوابع ونعدكم بأننا سنخصص دراسة وافية لهذا الغرض في أول مناسبة قريبة ان شاء الله.

٥ — قسم حركة الطوابع للبيع والشراء في المجلة مخصص للعروض المهمة التي لا يمكننا بتها شخصياً. حينئذ نعرضها في هذا القسم لتنشر على اكبر عدد ممكن من القراء فيعطي كل من يرغب رأيه في الشراء أو البيع وهكذا نحصل لصاحب الصفقة على احسن سعر لطوابعه. وهذه الطريقة معروفة وتشبه البيع العلني ولكن عن طريق البريد.

حركة البيع والشراء

ان ادارة المجلة اصبحت تستلم كثيراً من رسائل القراء تعرب عن رغبة اصحابها في المبادلة أو في بيع ما لديهم من طوابع . في هذا المجال ننصح لمن يرغب في بيع طوابعه ان يرسل الينا تفصيلاً دقيقاً وافياً عن مقتنياته . وإن امكن ذكر أرقام الكتالوغ وخصوصاً للذين خارج البلد ليتسنى لنا الاجابة عن طلبه وتقديم المساعدة اللازمة اليه ، اذ ان لدينا كثيرين يرغبون في شراء الطوابع لكن يريدون مشاهدتها أو معرفة التفاصيل عنها .

مجموعات كاملة

سمع احد القراء ان الطوابع ليس لها سعر تجاري أو طلب ، فتعليقاً على ذلك وخلافاً لهذا الزعم نفيد ان احد التجار يرغب شراء المجموعات المختومة لكل بلد عربي . فعلى الراغبين في بيع مجموعاتهم المستعملة ان يكتبوا الى المجلة بكل تفصيل مع عدد الطوابع لكل مجموعة لنحولها اليه وشكراً

●

مسابقة العدد

٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١	
			■						١
					■				٢
				■		■			٣
■									٤
		■							٥
		■					■		٦
	■	■							٧
		■					■		٨
			■			■	■	■	٩

افقياً :

١ – جزيرة في المتوسط . مضى .
٢ – حكومات (معكوسة) . غارات .
٣ – للنهي . قطعةُ (معكوسة) .
٤ – منطقة سلخت عن بلدها الام .
٥ – فتائل للسراج . بحر .
٦ – تميمة (معكوسة) . ندر .
(٧) منسوب الى البرتقال (معكوسة) .
٨ – رضاب . تفقد الاحياء ليلاً (معكوسة) .
٩ – قادم . عطية .

عمودياً :

١ – مدينة سورية .
٢ – ترسبات .
٣ – حب . عاصمة بلاد آسيوية .
٤ – افعالنا (معكوسة) .
٥ – يوم آتٍ (معكوسة) . مظلات .
٦ – سمة لطوابع سورية سنة ١٩٢٠ .
٧ – جنرال فرنسي .
٨ – منطقة تركية (معكوسة) . شتم .
٩ – نضد . مكان الاستثمار الزراعي .

حل مسابقة العدد الثامن

افقياً :

١ – صنعاء . بشر . ٢ – ليطاني . جا .
٣ – ال ، ف ، أرس . ٤ – حيدر ، اتلي (معكوسة) .
٥ – أ ، لامرتين (معكوسة) . ٦ – لا ، خلابة (معكوسة) . ٧ – د ، الاحمدي . ٨ – يهش ، الورم .
٩ – ناريمان .

قيمة الطوابع ١٠

عمودياً :

١ – صلاح الدين. ٢ – نيلي. أ. ها. ٣ – غط. دن، اشر. ٤ – أأ. ري. ٥ – أنف. تتاأم. ٦ – الخبري (معكوسة). ٧ – المأمون. ٨ – شجرة الدر. ٩ – رأس الخيمة.

الفائـــزون :

بالرغم من الردود العديدة التي وصلتنا، لم يتوصل هذه المرة أي متسابق الى الأجوبة الصحيحة الكاملة.



«قد يقال : ان عادات كل أمة وتقاليدها وخرافاتها أيضاً، هي التي تكسبها شخصيتها الخاصة، فأقول : ان هذا اصبح في زماننا كلاماً فارغاً وهراء محضاً، فقد تقارب العالم، وامحت الابعاد وانطوت المسافات بفضل اللاسلكي والطائرة على وجه الخصوص، وأصبح التطور في الدنيا أسرع من ان تستطيع الامم التكيف على مقتضاه، اذا هي ظلت جامدة بليدة».

ابراهيم عبد القادر المازني

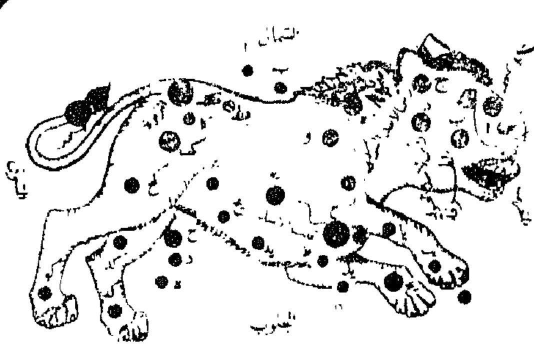


دعني أضع للبلاد أغانيها ولا يهمني بعد ذلك من يضع لها قوانينها.

حكمة قديمة

البروج الفلكية

منى شنير



الحلقة السابعة

برج الأسد ٢٤ تموز (يوليو) - ٢٣ آب (اغسطس)

● برج الأسد هو من أقدم البروج الفلكية المعروفة في التاريخ. كان الأسد عند الاقدمين بمثابة رمز لملك الغابة وإله الشمس في الوقت نفسه. من هنا فان البابليين الأوائل وقدامى الهنود ربطوا بين الأسد والشمس، وهذا ما أكده علم التنجيم الفلكي المعاصر حيث تحتل الشمس مكاناً بارزاً في هذا البرج.

أما المصريون القدماء فهم رمزوا إلى برج الاسد بصورة مركب فوقه أسد ويمسك بذيله أحد البحارة. ولم نقرأ حتى اليوم تفسيراً من العلماء حول السبب أو المغزى الذي دفع الفراعنة إلى وضع الأسد داخل مركب للدلالة على برج الأسد.

أما الأهتمام الاكبر الذي نلحظه في هذا المجال فهو عند الاغريق الذين ربطوا بين برج الاسد و «أبو الهول» (Sphinx) وهو كائن خرافي له جسم أسد وأجنحة ورأس امرأة وصدرها. وتقول أساطيرهم إن الأسد الذي يرمز اليه هنا هو «اسد نيميا» الشهير نفسه الذي قتله اله القوة «هيراكليس» كأحدى الوسائل للتكفير عن ذنبه لاغتياله زوجته ميغارا. وتشير الاسطورة إلى ان والده «زفس» رفع هذا الأسد إلى السماء وجعله بين الكواكب تذكاراً لذلك.

والعلماء العرب بدورهم لم يتركوا نجماً من النجوم الستة التي تشكل برج الأسد الا واعطوه اسماً مناسباً، وذلك كما اكدت ابحاث د. نقولا شاهين في هذا المجال.

يتميز مواليد برج الأسد بقدرتهم على السيطرة على اندفاعهم وحماسهم وتوجيه كل طاقاتهم في الاتجاه المفيد والايجابي.

يشعرون دوماً أنهم مؤهلون لاستلام أعلى المراكز، لذلك تنطبع تصرفاتهم جميعها بهذا الطابع.

يسيطرون في حزم على انفعالاتهم ويثابرون على مواقفهم. انهم بطبيعتهم ينجحون في كل عمل يقومون بادارته وفوق ذلك يظهرون مقدرة كبيرة في التنظيم. إحساسهم رقيق وهم كرماء ورحاب الصدر فيوفقون بالتالي في استمالة العديد من الاصدقاء اليهم. لهم ميل خاص للقيام بالأعمال في صورة استعراضية، لذلك يمكن ان تتحول تصرفاتهم مع الوقت إلى أعمال مؤذية لمشاعر الغير.

يظهرون للناس في صورة شخصية جديرة بالاحترام وذلك بسبب شعورهم بالكبرياء وبأنهم موهوبون لنيل إعجاب الغير. وعندما تسوء الأوضاع والظروف لا يبدون أمام الناس أي انفعال ظاهر. ولكن اذا ما ساءت الأحوال إلى حد لا يطاق بالنسبة اليهم فان روح الأسد الكامنة فيهم تستيقظ فيتحفزون للتصدي وتخطي كل العقبات.

إن الطابع المميز لمواليد هذا البرج يتلخص فيما يلي:

عندما يستقرون على رأي فانهم يدافعون عنه في عناد وكبرياء.

استناداً إلى ابحاث العلماء فان برج الاسد له تأثير مباشر في ناحية محددة من الجسم البشري هي: القلب ومحيطه.

من الشخصيات العالمية المشهورة في التاريخ القديم والحديث التي ولدت في هذا البرج نذكر:

— نابوليون بونابرت — فيديل كاسترو — ألفرد هيتشكوك — الكاتب البريطاني الدوس هكسلي — جاكلين كينيدي — موسوليني — الكاتب السكوتلندي والتر سكوت — الكاتب الايرلندي جورج برنارد شو — الكاتب الفرنسي الكسندر دوماس ●



■ أحد آلهة المكسيكيين القدماء (راجع العاصفة الأزتيك)

